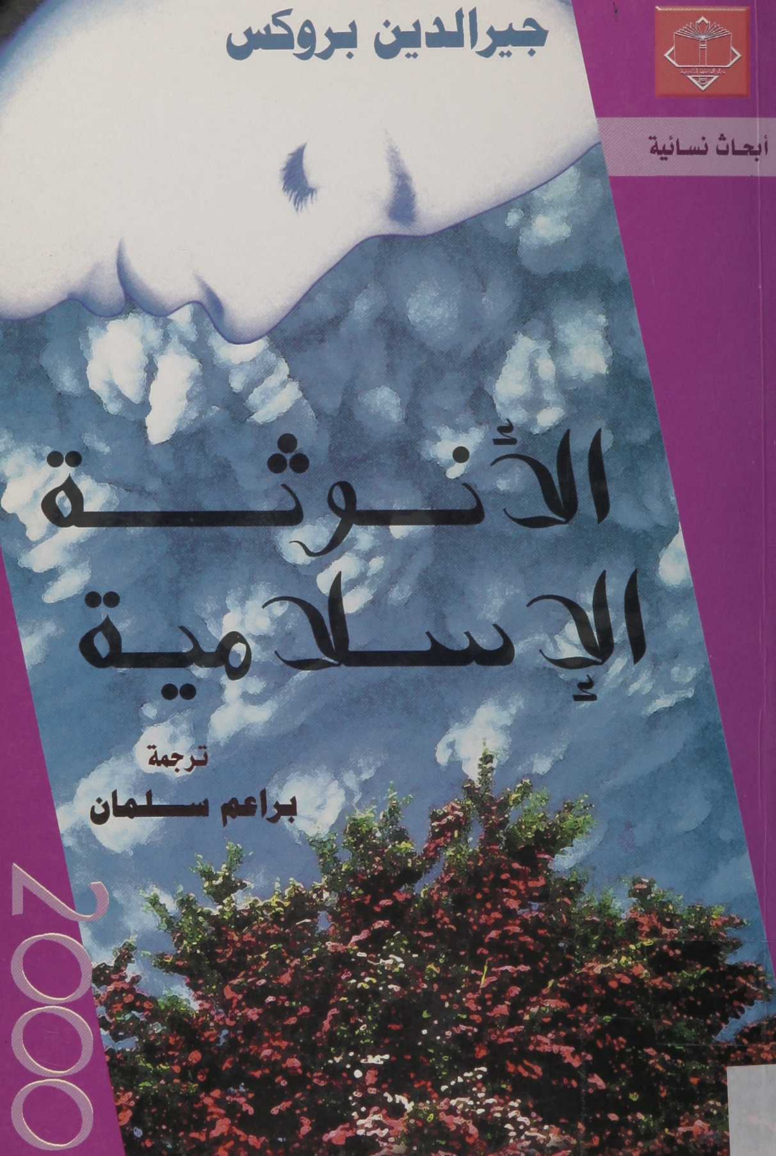

جيرالدين بروكس
أبحاث نسائية
الأنوثة
الإسلامية
ترجمة
براعم سلمان
2000

الانـوثة الاسلامية

GERALDINE BROOKS

Nine Parts of Desire

The Hidden World of Islamic Women



PENGUIN BOOKS

جيرالدين بروكس

الانوثة الاسلامية

العالم المخفي للمرأة المسلمة

ترجمة براعم سلمان

الانوثة الاسلامية
جيرالدين بروكس
ترجمة براعم سلمان
الطبعة العربية الاولى ٢٠٠٠
الغلاف من تصميم د. محمد نعيم الجابي

دار الكنوز الادبية
ص.ب/ ٧٢٢٦ ـ ١١
هاتف ـ فاكس ٧٣٩٦٩٦
بيروت ـ لبنان

لقد خلق الله الجليل الرغبة الجنسية من
عشرة أجزاء، ثم اعطى تسعاً منها
للمرأة وواحدة للرجل

من اقوال الامام علي بن ابي طالب

المقدمة

قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق"

(الفلق 113: 1،2)

حمل موظـف الاستقبال في الفنـدق بطاقـة الحجـز بيـده وقـرأ "مسـتر جيرالدين بروكس" .
ـ"لكنك امرأة؟"
ـ نعـم، أنـا كذلـك، مـا عليـك إلا أن تضيـف حـرف S لتحولهـا إلى سيدة"
ـ "لا"، قال: "لم تفهميني، لاأستطيع أن أحجز غرفـة لـك فهـذا ضـد قانون النساء" .
حدقت في أرجاء صالة استقبال الفنـدق المتلألئة، "ومـاذا عـن هـؤلاء النسوة؟" قلت هـذا وأنـا أومـئ برأسـي باتجـاه امرأتـين سـعوديتين تلبسـان الحجاب الأسود متجهتين نحو المصعد.
"إنهن مع أزواجهن". قال موظف الاستقبال موضحـاً: "في السـعودية لا تسافر سيدة وحدها إلا إذا كانت عاهرة".

لو حدث معي هدا في وقت آخر لفقدت صوابي، أما الآن فقد اكتفيت بأن تنهدت ومشيت مبتعدة، كان ذلك بعد الحادية عشرة ليلاً و لم أكن أعرف أحداً في مدينة الظهران. يمكنني أن استأجر سيارة وأعود إلى المطار وأمضي الليل على أحد كراسيه البلاستيكية، لم يكن أمام مدخل الفندق سيارات أجرة. بدت لي الأرائك البلشية[3] التي لا يشغلها أحد مغرية بما فيه الكفاية. ألقيت نفسي خلف نبتة مزروعة في أصيص وسحبت شادوري الأسود من حقيبتي لأستخدمه كغطاءٍ لي، وكنت أغمض عيني حين سعل موظف الاستقبال خلفي.

ـ "لا يمكنك البقاء هنا"

أفهمته بهدوء أنني لاأستطيع الذهاب إلى أي مكان آخر.

ـ قال: "إذن علي أن استدعي الشرطة."

لدى مخفر شرطة الظهران المقاعد غير المريحة نفسها، والأضواء المزعجة مثلها مثل كل مخافر الشرطة في أي مكان، الفرق الوحيد هو أن رجال الشرطة يرتدون أثواباً بيضاء طويلة تتسم بالبساطة. في السابق كانت زيارتي لمخافر الشرطة فقط كي أعد تقريراً حول الجريمة، أما الآن، فإنها المرة الأولى التي أكون فيها المجرمة.

خلف المقعد في وسط الغرفة، وقف شرطي شاب برتبة ملازم يقلب وثائقي الشخصية. كان لدي أوراق اعتماد صحفية من أستراليا وبريطانيا ومصر وإيران والعراق والأردن والولايات المتحدة الأمريكية واليمن. وكذلك بطاقات دعوة لاجتماعات القمة العربية والقصور الرئاسية. بل ولدي بطاقة انتساب صحفية صادرة عن وزارة الإعلام في العربية السعودية ذاتها. أمعن الملازم النظر بها جميعاً، في البداية رتبها عمودياً، ثم بشكل أفقي، رتبها في كومة أنيقة وكأنه يريد أن يقدرها من خلال ارتفاعها.

---

3 البلشية: كرسي ذات وبر طويل.

أخيراً تطلع تاركاً نظره يستقرِ على بقعة في الجدار فوق رأسي تماماً مثله مثل أي مسلم متشدد، متجنباً تدنيس نفسه بالنظر إلى امرأة أجنبية. عندما تكلم تحدث إلي بضمير الغائب: "أظن أنه لم يمضِ وقت طويل على وجود السيدة في السعودية وهي لا تعرف عاداتنا". استأنف قراءته المملة لوثائقي، سحب واحدة منها داعكاً إياها بين السبابة والإبهام. "هذه"، قال هذا بابتسامة نصر خفيفة، "انتهت مدتها بالأمس".

في ساعات الصباح الأولى أعاد الملازم لي أوراقي مضيفاً إليها إذناً يسمح لي بقضاء الساعات القليلة القادمة في الفندق. وسرعان ما استدعى موظف الاستقبال ليدلني على الغرفة، وكانت في طابق فارغ تماماً. فيه فقط حارس عسكري يجول حول المصعد.

"لابد أنهم يظنونني خطرة"، تمتمتُ، لم يبتسم البواب.

"يعتقدون أن النساء جميعهن خطيرات" أجاب وهو يضع الحقيبة وراء باب الغرفة تماماً، وتراجع في الحال وهو تحت تحديقة الحارس اليقظة.

استلقيت على السرير محملقةً بالأسهم الملصقة على المرآة التي تدل المسلمين على اتجاه الصلاة. كل غرف الفنادق التي نزلت بها خلال السنوات الثلاث الماضية فيها أسهم مماثلة، ملصقة على الطاولة أو مشبوكة على الستائر أو مثنية على السطح، لم يبقَ لطلوع الفجر سوى دقائق، مشيت إلى النافذة وانتظرت، ولما ارتفع قرص من الضياء الشاحب فوق أفقٍ أزرق سديمي، تمزق السكون كما كان يفعل كل فجر منذ ثلاثة عشر قرناً، "حي على الصلاة!" علا بها صوت مؤذني مئات المساجد في المدينة. "الصلاة خير من النوم" وإذ تختط الشمس طريقها غرباً فإن مليار مسلم سيفعل ما يفعله مواطنو الظهران الآن، ينهضون من أسرتهم، يركعون باتجاه مكة التي تبعد سبعمائة ميل عن غرفتي في الفندق.

يكمن سبب أرقي الليل كله في تلك المدينة الصحراوية، فأنا لم أستطع أن أحجز غرفة في فندق سعودي في التسعينات لأن مكياً اسمه محمد كانت له مشكلات مع زوجاته منذ ثلاثة عشر قرناً.

أحب نبي الإسلام النساء. تزوج زوجته الأولى عندما كان في الخامسة والعشرين من العمر، أمياً، يتيماً، فقيراً. لم يكن يطمح بأن يتلقى عرض زواج من رئيسته خديجة، سيدة الأعمال المكية الثرية التي ائتمنته على تجارتها الدولية. وفي حين لم يكن مألوفاً في الثقافة العربية أن تعرض النساء الزواج على الرجال، فإن خديجة كانت واحدةً من أولئك النسوة اللائي لهن من المكانة ما يسمح لهن بفعل ذلك. منحته المال والمنزلة الرفيعة وأربع بنات، الوحيدات اللواتي بقين على قيد الحياة. آية الله روح الله الخميني والملك حسين ملك الأردن وآلاف من الشيوخ والملالي الذين يرتدون اليوم العمامة السوداء التي تدل على أنهم ينحدرون من نسب الرسول، جميعهم يعود نسبهم إلى واحدة من هؤلاء البنات الأربع.

مضى محمد إلى خديجة مرتعشاً حين سمع لأول مرة صوت الملاك جبريل يتلفظ بكلمة الله. خائفاً على سلامة عقله، ألفى محمد نفسه يردد كلمات القرآن الأولى التي تعني ببساطة (القراءة أو التلاوة). ثم اختط طريقه إلى زوجته حابياً على يديه وركبتيه وارتمى في حضنها قائلاً: "دثروني! دثروني!" راجياً إياها أن تحميه من الملاك. أكدت له خديجة أنه سليم العقل وشجعته على الثقة برؤياه وأصبحت أول معتنقة للدين الجديد الذي يعني اسمه الإسلام "التسليم".

جاء الإسلام في القرن السابع إلى الجزيرة العربية حيث البنات الصغيرات عديمات القيمة في ثقافة الغزو والرعي الخشنة، كن يوءدن، وفي سوق النخاسة في مكة كان الجنود يبيعون السبايا اللائي أخذوهن على أنهن غنائم حرب. لكن قلةً من النساء، من أمثال خديجة كن يملكن المال والنفوذ مما يمكنهن من اختيار أزواجهن وتكوين حياتهن الخاصة.

ظلت خديجة الزوجة الوحيدة لمحمد لمدة اربعة وعشرين عاماً و لم يبدأ محمد بتلقي الوحي من الله بخصوص وضع النساء إلا بعد موتها، أي بعد تسع سنوات من رؤياه الأولى، وبذلك لم تضطر خديجة المسلمة الأولى

إطلاقاً لأن تضع الحجاب أو تقرّ في بيتها وما عاشت أبداً لتعاني من كلمة الله التي تعلن بأن ﴿الرجال قوامون على النساء، بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾[1]. إن آية كهذه ستبدو غريبة على شفاه محمدٍ لو أن خديجة على قيد الحياة تدفع مصاريفه.

بعد موتها بست سنوات وبعد معركة بين المسلمين والقبيلة الحاكمة في مكة التي خلفت وراءها خمساً وستين أرملة من المسلمات، نزلت الآية التي تبيح للمسلم الزواج من أربع، ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة، أو ما ملكت أيمانكم، ذلك أدنى ألا تعولوا﴾[2]. وبسبب حاجته لإقامة التحالفات مع الأعداء المهزومين عن طريق الزواج نزلت عليه آية أخرى تستثنيه من حدود الأربع. وفي كل مرة كان يتزوج جديدة يضيف لها حجرة من بيته قرب المسجد الأول في الإسلام. وتزايدت الحجرات تدريجياً حتى صار فيها ثمانٍ نساء أو تسع.

وسرعان ما بدأت الغيرة والكيد والافتراء، وتآلف أقارب الزوجات الأدنى مرتبة لتشويه المحببات إلى الرسول. وراح أعداء الدين الجديد يضايقون أزواج النبي وأي حادث مهما صغر كان مناسبة للشائعات. فإحدى الزوجات فركت يد ضيف على الغداء وهي تناوله طبق الطعام، وأخرى تعرضت للنقد الشديد وهي تخط طريقها ليلاً إلى الخلاء، والثالثة تسببت بكل أنواع الجدل لأن زوجها السابق هو زيد مولى محمد. بعد هذه الأحداث مباشرة أنزل الله على نبيه آية يطلب منه أن يعزل نساءه. بعض الزوجات كن ممرضاتٍ في ساح الوغى وبعضهن كن يخطبن للدين الجديد في المساجد. أما الآن فطلب إليهن أن يقبعن في بيوتهن خلف حجاب، لا يخرجن إلا متسترات من الرأس إلى القدم.

---

1 سورة النساء 4: 34

2 سورة النساء 4: 3

والقواعد التي قُصد منها الحفاظ على شخصيات نساء النبي سرعان ما أصبحت تطبق على بقية نساء المسلمين. ولما انتشرت الرسالة الإسلامية في الجزيرة العربية إلى البقاع المجاورة، لاقت فكرة تحجيب المرأة آذاناً صاغية. فبعكس العرب كان الفرس منذ زمن طويل قد فصلوا النساء، وفي آشور القديمة كانت نساء النبلاء يتحجبن كشارة لعلو المنزلة، بينما كانت نساء الطبقات الدنيا يرغمن على الخروج سافرات. فالعبدة التي تضبط متحجبة قد تُعاقب بصب الزفت المذاب على رأسها.

وانتقلت هذه التقاليد بسهولة إلى أرض العرب، قلب الإسلام، واستمرت هناك، ففي العربية السعودية ما تزال معظم النساء يعشن حتى الآن معزولاتٍ عن العالم، ولا يمكن للمرأة السعودية أن تقدم هويتها في فندق سعودي حديث لأنها كنساء النبي يفترض أن تقر في بيتها.

لكن على بعد بضعة أميال وعبر حدود صحراوية غير مرئية لم تعد هذه القوانين تطبق. ففي الدولة المجاورة للسعودية، أي الإمارات العربية المتحدة أصبحت النساء المسلمات مجندات، وشعورهن مربوطة إلى الوراء بشال إسلامي، يقفزن في الهيلوكبترات ويتنكبن بنادق القتال، ولو ابتعدنا قليلا إلى ما وراء الخليج، انتخب المسلمون الإيرانيون المتشددون النساء إلى البرلمان وأرسلوهن إلى الخارج كدبلوماسيات. وكانت باكستان أول بلد إسلامي ينتخب امرأةً لمنصب رئيسة وزراء، وفي تركية الآن تتبوأ امرأة منصب رئيسة الوزراء (تانسوتشلر) في حين أن بنغلادش لديها امرأة في رئاسة مجلس الوزراء، وواحدة في المعارضة. وبدلاً من الالتزام بالقوانين التي سُنت لأزواج النبي تقوم هؤلاء النسوة بالبحث عن نموذج لدور آخر في تاريخ الإسلام المبكر، فالمجندات يتطلعن إلى نسيبة التي ساهمت في إنقاذ حياة الرسول في المعركة، إذ جاهدت إلى جانبه حين فر الرجال. والسياسيات منهن يحذون حذو فاطمة، ابنة محمد الخجولة، التي كانت رأس الحربة في صراع القوة السياسي بعد موت النبي.

لم يقصد الإسلام أبداً أن يضطهد المرأة فعلام تُضطهد أغلبية نساء المسلمين؟!.

ذهبت لأعيش بين المسلمات في إحدى ليالي الخريف الحارة عام 1987، وصلتُ كمراسلة غربية تعيش من أجل الأخبار اليومية، أمضيت ما يقارب العام حتى أدركت أنني وصلت في وقت بدأت فيه أحداث القرن السابع تعني الناس الذين عشت معهم أكثر مما يعنيهم قراءة صحف الصباح.

وكانت سحر المسلمة التي لقنتني الدرس الأول، تعمل كمساعدة مدير مكتب صحيفة "وول ستريت" في القاهرة لمدة عامين حين وصلت إلى هناك بوصفي المراسلة الصحفية في الشرق الأوسط. كانت السنة الأولى لي في مصرقد بدأت من صوت قرع حذائها الإيقاعي، وهي تخط طريقها على أرصفة القاهرة المخلخلة. كانت في الخامسة والعشرين من عمرها، تصغرني بست سنوات ولكنها تتقدمني عشر سنوات برباطة الجأش والاطلاع على أحدث الآراء.

كانت انكليزيتها فصيحة دقيقة. كذلك مظهرها. وبغض النظر عن القضية التي كنا نعالجها: "انهيار مبنى في حي فقير متعرج بسبب تسرب مياه المجارير عند الأهرامات"، كانت سحر تلبس ثياب سهرة بشكل دائم، بمكياج مبالغ فيه لدرجة أنك تحتاج إلى تنقيبات أثرية حتى تستطيع أن تتعرف على شكلها الحقيقي، وتسريحة شعرها تحتاج إلى سقالات. حالما جلست إلى جانبها أحسست أنني كالعصفور الدوري يرافق طاووساً.

كان والد سحر يعمل لدى شركة سيارات أمريكية في القاهرة. لقد قضت عاماً كطالبة ثانوية موفدة في أمريكا وتخرجت الأولى على فصلها في الجامعة الأمريكية في القاهرة. أرادت أن تذهب إلى "هارفرد". كانت أليفة تبعث على الاطمئنان وتدخل القلب دون استئذان.

كنت قد تصورت الشرق الأوسط على نحو مغاير، أمراء بأثواب بيضاء، خيولاً ذات عيون لوزية، جمالاً ترسم حدود الأفق كما الخط العربي العريض. لم يكن اليوبي المصري جزءاً من هذه الصورة.

وفي العمل أيضاً، كان من العسير عليَّ أن أجد الشرق الأوسط الذي كنت أتصوره، وجدت نفسي عالقة في مكتب موظفين عرب كذبابة عالقة على ورق لقتل الذباب، جالسة في الصالونات الأنيقة لمساعدي نواب وزراء الإعلام، ارتشف فنجان قهوة صغيراً معطراً بالهال، استمع للأكاذيب، وهؤلاء الرجال المدنيون ذوو الثقافة الغربية ليس لديهم مشكلة في التحدث مع امرأة غربية. لكن في الخارج، في الشوارع، بين الناس العاديين الذين رغبت فعلاً أن ألتقي بهم، لا يتكلم معظم الرجال إلا مع نساء تربطهم بهن قرابة، وإذا ما دنت منهم امرأة وحيدة فالأمر إما موقف محرجٌ أو مناسبة لاختبار الافتراض الواسع الانتشار القائل: إن كل النساء الغربيات مومسات. كنت أكره نوع التقارير التي فرض علي أن أكتبها، والمقابلات الصحفية مع رؤساء الدول، والتخرصات المتطايرة حول السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط. وقّعت على أن أصبح مراسلة في الشرق الأوسط بحثاً عن المغامرة، لكن بدا لي أن الخطر الأكبر الذي أواجهه هو الضجر القاتل. أما زوجي "طوني" الذي تخلى عن عمله الصحفي ليأتي معي بوصفه طليقاً لم يكن لديه مشكلة، بعدما وصلنا ببضعة أسابيع، نظرت من فوق كتفي سحر وهي تقص مقالتي الأخيرة ـ "المصالحة السورية العراقية تبدو هشة" ـ وتضعها في المغلف بجانب مقالة "طوني" : "فيلق الجمال المصرية يجول الصحراء مقتفياً آثار المهربين".

لقد تطرق طوني ، إثر جولة له مع دورية مع "فيلق الجمال المصرية لمكافحة التهريب" حيث لم يسمح الجيش لامرأة للمشاركة في الجولة. كما شارك مع طاقم أحد القوارب التي تجلب الامدادات في الخليج (الفارسي)، فعاد إلى البيت بحكايا عن الصيادين العمانيين الذين يرتدون العمائم، والمراكب من طراز مراكب السندباد ومهربي السجاد الفارسي.

لم أستطع الانضمام إليه لأن وكيل الشحن لا يسمح لامرأة بالخروج إلى البحر.

ولمدة عام تقريباً وأنا أطرق وأرفس أبواب الشرق الأوسط الموصدة، وبفضل سحر تطلعت فلاحظت النافذة الوحيدة المفتوحة أمامي.

عملت أنا وسحر جنباً إلى جنب في حجرة كبيرة مضاءة في شقتي على النيل. وعندما لاأكون على سفر كنا نجلس على مقعد لا يبعد إلا أقداماً عن بعضنا، وحين كنت أكتب مقالاتي كانت سحر تترجم المواد من الصحافة العربية، تبرمج المواعيد أو ترتب تأشيرات الدخول. بعد عام من العمل جنباً إلى جنب أحسست أننا أصبحنا نعرف بعضنا بعضاً على نحو جيد.

بعدها، وذات صباح، في بداية رمضان، الشهر المقدس الذي يصوم فيه المسلمون من الفجر حتى الغسق، فتحت الباب فإذا بي أمام امرأة غريبة، اختفت منها خصل الشعر الأنيق، لُفّت بمنديل أزرق خشن وقد أزيل المكياج ، واستبدل الرداء المكسم بكيس فضفاض. لقد تكيفت سحر مع اللباس الموحد للمسلمات الأصوليات. بدا الأمر لي وكأنني أراقب فيلماً عن الطبيعة يجري بالعكس: لقد قيدت جناحيها ولفت نفسها بشرنقة قاتمة.

كان من المستحيل أن أعيش عاماً في الشرق الأوسط ولا أشعر بصخب الإحياء الديني. ففي بقاع جزيرة العرب كافة وشمال افريقيا يتزايد عدد النسوة اللائي يغطين شعورهن، والرجال الذين يطيلون لحاهم ويتجهون إلى المساجد. كنت قد افترضت أن العودة إلى الاسلام هي خيار اليائسين من فقراء الناس الباحثين عن الخلاص السماوي. لكن سحر لم تكن بائسة ولا فقيرة، فهي تحوم حول تخوم الطبقة المصرية المترفة التي لا تهتم إلا بالتوافه.

في الصباح الرمضاني ذاك، وقفت بالباب أحدق بها مذهولة، كانت النساء المصريات أول نساء في الشرق الأوسط يرمين الحجاب جانباً. ففي

عام 1923، ولدى عودتهن من مؤتمر اقتراع نسوي في روما قـامت المرأتـان العربيتان الرائدتان، هدى شعراوي وسوزا نبراوي، برمي أغطيتهن في محطة سكة حديد القاهرة، والكثير من حشد النساء اللائي جئن لاستقبالهن فعلن الشيء نفسه، وأم سحر التي ترعرعت متأثرة بهدى شعراوي وأنصارهـا لم تتحجب قط. إن اللباس الإسلامي ـ الحجاب ـــ الـذي اختـارت سـحر أن ترتديه في حرارة مصرٍ الرهيبة يـبرهن علـى قبولهـا لمتطلبـات الشـرع الـذي يعتبر شهادتها مساويةً لنصـف قيمـة شـهادة الرجـل ونظـام الوراثـة الـذي يعطيها نصف حصة أخيها الذكر وحياة بيتية مستقبلية، يمكـن لزوجهـا أن يضربها إن عصته أو يجعلها تتقاسم عنايته مع ثـلاث زوجـات أخريـات أو يطلقها بغمضة عين وله الحق بالإشراف المطلق على أطفالها.

خلال الأسابيع الرمضانية تلك كنت أمضي الساعات في التحدث مـع سـحر بشـأن قرارهـا. كـانت تتفـوه بشـعار الجهـاد الإسـلامي والأخـوة الإسلامية قائلة: "الإسلام هو الحل". وكانت القضية بالفعل قضية شـائكة، إذ كيف ستستمر بلادها اليائسة الفقيرة في تحصيل الغذاء والتعليم وتوظيف السكان، الذين يـزدادون مليونـاً كـل تسـعة أشـهر! لقـد أخفقـت مغازلـة الاشـتراكية والرأسماليـة في إيقـاف تدهـور الاقتصـاد المصـري. الحركـة الإسلامية تريد أن تتخلى عن هذه الأيديولوجيـات الـتي استـوردت حديثـاً وتسير وفق النظام الذي أقره القرآن منذ زمن بعيد. فإن يكُن ا لله قد كلف نفسه عناء الكشف عن منظومـة كاملـة مـن القوانـين والأخـلاق والتنظيـم الاجتماعي، فلما لا يتم اتباع هذه المنظومات؟ هذا ما تقوله سحر.

لقد انضمت سـحر إلى حلقـة دراسـة نسـائية في المسـجد المحلـي وقـد تأثرت بالواعظة الشابة المحجبة. كانت تقول: "كنت أجلس هناك وأقـرأ في القرآن الكريم أن على النسـاء أن يتحجـبن، ثـم أمشـي في الشـارع عاريـة الزندين، بدا لي أنني أرتدي هذا اللباس لأنه غربي، فلِـم نقلـد كـل شـيء غربي؟ لما لا نجرب شيئاً مما يخصنا؟".

ذلك الشيء يتخذ أشكالاً عديدة، فالمتطرفون يجوبون طريق الأهرامات هائجين موجهين أضواء مشاعلهم الكهربائية إلى النوادي التي تقدم الكحول. في مصر الريف، ألح أحد الشيوخ على إصدار تحريم بيع الباذنجان والقرع واليقطين، لأن ملامسة هذه الخضار الطويلة الزغباء قد تؤدي إلى إثارة الأفكار الفاسقة عند النساء. وفي القاهرة أُطلقت النار على كاتب سخِر من هذا الإعلان فأردوه قتيلاً خارج مكتبه. وحين هز زلزال المدينة أقام الأصوليون الخيام للنجدة ومطابخ لإعداد الحساء، للعناية بالمنكوبين بأقصى سرعة وتعاطف، مما أتاح للحكومة ان تتملص من مسئوليتها.

وبمرور الأسابيع انجرفت سحر إلى هويتها الجديدة بصورة أعمق، فرحت أكيف حياتي اللادينية لأتلاءم معها، متخليةً عن قهوتي في الصباحات الرمضانية، في حال كانت النكهة تضر باستمرار صيامها. وكنت أخطو بخفة وهي ترفع صلواتها عند الظهيرة على سجادة الصلاة المفروشة في غرفتنا، وهناك ألغام في كل مكان. كانت تسأل مرتابةً ناظرةً إلى لائحة المحتويات على علبة الشوكولا (ما هو كرز المرشينو، أنا لا أستطيع أن آكل أي شيء يحتوي على الكحول). تدريجياً تآلفت مع إيقاعات حياتها الجديدة ومحظوراتها، وبدأت أسماء أعيادها المثيرة للذكريات تخط طريقها إلى تقويمنا: ليلة القدر، وعيد الأضحى والحج.

بدت سحر مرتاحةً مع ذاتها الجديدة. "أمضيت الليل جلّه في الخياطة"، قالتها لي ذات صباح حين وصلت إلى العمل زائغة العينين، والآن وقد تحجبت فقد رمت معظم أثوابها الزاهية الألوان، لكنها لم تكن راغبةً في التخلي عن محتويات خزانتها برمتها (ففي كل شيء خطأ ما، شقٌّ في الظهر، عروة مشدودة عند الخصر، في الواقع اشتغلت كثيراً كي أنقذ بعض الملابس). الآن وقد ارتدت الحجاب، قالت إن الحجاب منحها الأمان في شوارع القاهرة المزدحمة، "لا يمكن أن تسمعي باغتصاب فتاة محجبة". وفي الواقع لم يكن أمراً عادياً اغتصاب أحد في القاهرة حيث الجرائم العنيفة من

كل الأنواع نادرة إذا ما قيست بمدن الغرب. لكن التربيت على القفى والتلطيش كثير جداً، خاصة في الأحياء المزدحمة وللنساء اللائي يرتدين الملابس الغربية.

شعرت سحر أيضاً أن الحجاب سهّل عليها الوصول إلى نساء غير عاديات، فالمواعيد والتساؤلات خارج الدوائر الحكومية تصبح أسهل إذا ما مضت امرأة محجبة بين البيروقراطيات العاملات هناك، ولرغبتهم في رؤية أخت مسلمة تفلح في عملها، فإنهم سيمنحون طلبها دفعة تفضيلية وفي الوقت نفسه شعرت بسهولة أكبر في التعامل مع الرجال. تقول: "يفترض بهم أن يتعاملوا مع عقلي وليس مع جسدي" قالت أن اللباس هو البداية فقط فمعدل الجريمة المؤلم في الغرب والأسرة ذات الوالد الواحد، والشيوخ المهجورون، كل ذلك يؤكد لسحر إفلاس حياتنا اللادينية وفي جذر هذه المسألة من وجهة نظرها إصرار الأنوثة الغربية على المساواة الجنسية التي تشعر أنها تتجاهل الطبيعة الجوهرية للمرأة ."لا يقضي الإسلام أن النساء أدنى مرتبة من الرجال بل يقول أنهن مختلفات" هكذا كانت تجادلني محاولة أن تشرح تحريم سلك القضاء على النساء في بعض البلدان الاسلامية. "النساء أكثر انفعالاً من الرجال، لأن الله خلقهن للعناية بالأطفال، لذا فالمرأة في المحكمة قد تظهر الرحمة، حيث يتطلب المنطق القسوة" .

أعادني حديثي مع سحر الى شعور ليس جديداً. عندما كنت في الرابعة عشر من عمري، تلميذةً في دير الراهبات الكاثوليكي في مدينة سدني، دعتنا رئيسة الراهبات إلى اجتماع، قرأت علينا حادثة الشغب، فقد شاهدت بعضنا يرتدين ملابسهن دون السترة الفضفاضة فوقها في الشارع، "ملابسنا"، تقول: "غير محتشمة"، لأن الأولاد يستطيعون أن يتصوروا ويصفوا شكل أثدائنا. يتضمن زي المدرسة الموحد السترة الفضفاضة وفيما إذا غامرت أي منا وخرجت إلى الساحة دون أن تكون مرتدية هذه السترة، سوف تعرف في الحال أي نوع من البنات نحن،

أصرت الراهبة نفسها على أن نرتدي قبعات في الكنيسة مستشهدة بالقديس بول. وأخبرتنا أن المرأة أداة سقوط الرجل من جنة عدن. ليس من اللائق أن تظهر سافرة الرأس في بيت الرب.

ظننت أن الراهبة مستحاثة. توقفت عن الذهاب إلى الكنيسة حالما أدركت كيف أن تحريم الكاثوليكية لتحديد النسل والطلاق قد يدمر حياة النساء. سحر، امرأة من جيلي، لكن كان لها اختيار معاكس تماماً لاختياري. شيء ما كان يعتريها ، وقد عزمت على فهمه.

بدأت بالعربية، لغة القرآن، فهناك عربي من كل خمسة مسلمين، والعربية هي اللغة التي يستخدمها أكثر من مليار مسلم ـ خمسَي سكان العالم ـ في التحدث إلى الله. اللغة العربية قبلية، قدر ما هي قبلية الثقافة الصحراوية التي أنتجتها، وكل كلمة تجر وراءها حشداً من المترادفات لها الجذر الثلاثي نفسه المؤلف من ثلاثة حروف ساكنة. استخدم أي كلمة في العربية وسرعان ما تتداعى المعاني التي لم تكن في البال، تعلمت أن أحد المفردات لكلمة امرأة، حرمة، تأتي في الجذر نفسه الذي منه المفردتان (مقدس) و(أثيم). وكلمة "أم" هي جذر المفردات: مصدر، أمّة، رحمة، المبدأ الأول، الغلة الوفيرة، الأمية، الغباء، ضعف الشخصية، في البدء كانت الكلمة، والكلمة في اللغة العربية غامضة على نحو رائع.

إن طبيعة اللغة العربية تعني أنه يستحيل الوصول الى الترجمة الدقيقة للقرآن. لقد ألفيت نفسي أعود إلى ترجمتين مختلفتين تماماً ـ ترجمة جورج سال ـ من أجل اللمسة الشاعرية في العمل وترجمة محمد مرمدوك بكثالس من أجل المعنى الأوضح لما قاله النص عن الزواج والجنس والعمل والجهاد، لكن حتى في الوقت الذي تكون اللغة واضحة فيه، كانت الدلالات تختلط علي: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين، أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير﴾[3]، هذا ما يقوله القرآن، لكن إذا كانت الزوجات عاصيات،﴿واهجروهن في المضاجع

---

[3] ـ سورة النساء 4: 34

واضربوهن﴾[4]. وفي محاولتي لحل هذا التناقض الصارخ، اتخذت لي مقعداً في مدارس النساء الدينية الجديدة التي تنهض عبر أرجاء المنطقة كافة، وتعلمت الكثير عن عشرات النساء اللائي ساهمن في تشكيل تاريخ الإسلام المبكر، وظهرت الازدواجية مرة أخرى، نساء وراء حجاب العفة، ونساء في طليعة حرب الجهاد المقدس.

في تلك الأثناء كان الأصوليون الإسلاميون في الجزائر وأفغانستان والسودان يتصارعون على السلطة. وتمكنوا، كأقلية قادرة في مصر والأردن من دفع حكوماتهم نحو الشريعة ـ التي تعني حرفياً الطريق إلى مورد الماء، أو الطريق المستقيم للشريعة الإسلامية. والمسلمون المهاجرون إلى الغرب كانت لهم مطالبهم أيضاً: حرّموا الكتب المهينة، دعوا بناتنا يرتدين الحجاب في المدارس، امنحونا قاعات صف فيها فصل بين الجنسين.

هل يمكن أن نستخلص الرسائل الإيجابية في القرآن والتاريخ الإسلامي ونستنبط نوعاً من الأنوثة الإسلامية؟ هل يستطيع الأصوليون الإسلاميون العيش مع الليبراليين الغربيين أم هل سيكلفنا التوفيق بين بعضنا بعضاً خسارة مبادئنا كلها؟

بهدف الإجابة على هذه الأسئلة قمت بأمر غايةً في الوضوح، لم أصدق أنني استغرقت سنةً كاملة في الوصول إليه، فقد بدأت أتحدث إلى النساء.

---

4 سورة النساء 4: 34

الفصل الأول

الحجاب المقدس

﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها، وليضربن بخمورهن على جيوبهن﴾

سورة النور 24: 31

بينما كان الباص المحتشد بالنساء يتقدم ببطء شاقاً طريقه عبر شوارع طهران باتجاه بيت الخميني، كنت الوحيدة التي لا تبكي في الباص. توقفنا بجانب زقاق مليء بالرايات السوداء. كانت أصوات النحيب المختلطة تشبه صوت الغليان. في نهاية الزقاق يقع بيت الخميني، إلى جواره مركز الحسينية الصغير، حيث صلى ووعظ إلى ما قبل خمسة أسابيع من وفاته.

غادرت الباص متصببة عرقاً، محاولةً ألا أدوس شادوري، وانضممت إلى الحشد الأسود المتراص، الذي اختط طريقه نازلاً عبر الزقاق وهو يترنم بنشيج حزين. "آه يا خميني، آه يا إمام".

كان أمامنا حشد من الرجال دخل الحسينية، كانوا عمال مصنع من مدينة "مشهد" يمسحون عيونهم المبللة بالدموع بقبضاتهم المتشققة. الشرفة

التي اعتاد الخميني أن يخطب منها أُغلقت سريعاً بالزجاج منذ وفاته لأن الذين يندبونه كانوا يتسلقون الدرابزين كي يقبّلوا كرسيه ويتمسحوا بها.

انتحت مجموعتنا جانباً من الحسينية إلى مدخل عليه ستارة وحرس ثوري نسائي على الجانبين. تحت شواديرهن ـ كان القماش الأسود الضخم المربع الشكل معقوداً فوق رؤوسهن ومتدلياً حتى أعقابهن ـ حيث يرتدي الحرس النسائي مثل نظرائهن الذكور الزي الرسمي البني الزيتوني وعليه شعار البندقية والقرآن والقبضة المضمومة. كانت أرملة الخميني وراء الستارة تنتظر لتقدم لنا الشاي.

جلست في زاوية من زوايا الفناء ذات الاسمنت المسلح المتشقق، وإلى جانبها ابنتها وكنتها وشواديرهن مشدودةٌ بإحكام حول أجسادهن. بَدَون مثل ثلاثٍ من قواريرِ البولينغ تنتظر الكرة، وخديجة زوجة الخميني ذات الخمسة وسبعين ربيعاً لها الوجه المتغضن نفسه الذي لجدة طيبة. كانت تحدق من وراء النظارتين مبتسمةً حين وصلت ومدت يدها لتحييني، وحين أمسكت بيدي وربتتها برفق، انزاح شادورها إلى الوراء منحسراً عن إنش من جذور الشعر الفضية التي تعلوها خصل من الشعر بلون الجزرة، فقدْ كانت خديجة تصبغ شعرها حتى مات زوجها.

لم أكن أبداً أتصور أن لدى آية الله، المتحجر الوجه، زوجة، على الأقل، ذات شعر أحمر جذاب.ولم أكن أتصوره مع أحفاده الصارمين والبشوشين الذين كانوا يطوفون حولنا في الفناء المفروش بالسجاد العتيق. تقول زهرة المصطفاوي ابنة الخميني البالغة السابعة والأربعين من العمر:"أعرف أنك حين تنظرين اليه، فانه يبدو رزيناً بل وحتى غاضباً، لكنه لم يكن كذلك معنا، كان يمازح الأطفال. كان يدعنا نختبىء تحت أثوابه حين كنا نلعب لعبة الاختباء". كان الخميني بالنسبة لزهرة رجلاً عصرياً حساساً هادئاً يستيقظ في الليل حين كان أبناؤه الخمسة ما يزالون أطفالاً، ليؤدي دوره في تقديم زجاجات الحليب دون أن يطلب من زوجته أبداً أن تفعل شيئاً من أجله."ولا حتى لتجلب له شربة ماء". وتظهر صور

العائلة، ويبدو فيها آية الله يضحك مبتهجاً، وهو يلاعب طفلاً صغيراً يحاول بقبضته المضمومة أن يقدم ملعقة من الطعام إلى فم جده.

جلسنا بجانب حريم الخميني على سجاد أحمر مفروش على الاسمنت المسلح. "السجاد كله مستعار، فالعائلة لا تمتلك أي شيء بهذه الجودة". قالت ذلك إحدى الحارسات الثوريات التي تعمل كمساعدة في تدبير شؤون المنزل بالإضافة إلى حرس خاص بخديجة لمدة ست سنوات.

ناولتنا صحوناً بلاستيكية عليها صور أوز وقدمت لنا التمور وشرائح البطيخ. قالت خديجة: "يؤسفني أن أستقبلكن بهذه البساطة لكن زوجي خلال سني حياته السبع والثمانين أصر دائما على البساطة".

كان روح الله، طالب الدين البائس من قرية خمين الطينية، في السابعة والعشرين حين طلب خديجة السقفي البالغة خمسة عشر عاماً من عمرها، لم يكن والدها، وهو من آيات الله البارزين (من بين علماء الدين الشيعة الأكثر تعلماً)، يفكر كثيراً بشأن هذه الخطوبة. لكن شعور ابنته خديجة كان مختلفاً. اختلست النظر إلى خطيبها عندما كانت تقدم له كأس الشاي وهي ملفوفة بشادورها. أقنعت والدها أن يوافق على الخطوبة بعد أن قصّت عليه حلماً يقول بأن النبي محمداً أعلن أن روح الله من خمين مقدر له أن يصبح قائداً دينياً عظيماً.

كانت زوجته الوحيدة وكانت مكانتها الاجتماعية متدنيةً جداً لدرجة أن الإيرانيين لم يكونوا يعرفون اسمها الحقيقي، تقول زهرة: "ارتكب أحدهم خطأً ذات مرة وكتب أن اسمها بتول وكان ذلك في الواقع اسم خادمتها. إن أمي تكره اسم بتول". ومع ذلك فإن الاسم ساد، لأن آية الله لا يرضى بلفت الانتباه لاسم زوجته بطلبه تصحيحه، لكن رغم إغفال اسمها فقد كان المقربون يعرفون أن تأثير خديجة يفعل فعله، فالذين أرادوا أن يُسمعوا الخميني شيئاً حتى في القضايا التي تخص سياسة الدولة كانوا يرسلون نساءهم ليناقشن القضية مع خديجة.

يقف بيت الخميني الصندوقي الشكل والمؤلف من طابقين متناقضاً تناقضاً حاداً جداً مع القصر المكسو بالمرمر الأخضر الذي يوحي بالثراء للشاه السابق، وهو مفتوح الآن في الجوار للذكرى وعودة الحق لأهله حيث تقشر بعض الطلاء الأخضر في جداره وتدلت ستارة ممزقة من نافذته، وفي زاوية إحدى الغرف المهجورة لُفّت بعض الحصر الرقيقة التي كانت تستخدم كفرش.

أما في المطبخ فإن موقداً من طراز قديم وسماوراً لغلي الشاي كانا الجهازين الوحيدين فيه. قالت الحارسة: "ذات مرة عندما رأى الإمام بذرتين من الرمان تسقطان في البالوعة طلب منا ألا نهدر الطعام، كان دائماً يذكرنا بأن نطفيء المصابيح عندما نغادر الغرفة."

وكل ذكرى صغيرة كان يصطحبها فيضٌ من الدموع المنهمرة من عيون الضيوف. كانت إحدى أكثر النساء بكاءً امرأةً لبنانيةً من حزب الله، نهضت على قدميها وتفوهت بخطاب شكرٍ عاطفي لأرملة الخميني لسماحها لنا بالدخول إلى فناء الاستقبال في بيتِ الإمام. أخذت تنوح: "رباه ألهمنا الصبر". قصدنا هذا المكان الذي كان يحيا فيه الإمام العظيم، تجمعنا هنا سوية في هذا المكان المقدس لنعبر عن ولائنا لنهجه. كان صوت آذان المغرب الذي دوى مخترقاً جدار الجامع المجاور إشارة على أن حفلة الشاي قد انتهت، وسرعان ما وقفت على قدميها متأهبةً في طريقها للوضوء من أجل الصلاة. وعندما عدنا أدراجنا إلى الباص الذي اختط طريقه راجعاً عبر الطرقات، كانت المرأة التي تنتسب إلى حزب الله ماتزال تخطب بعبارات: "علينا أن نقسم حياتنا إلى جزأين، ما قبل وفاة الخميني وما بعده"، نشجت وهي تقول: "لم يحن الوقت بعد حتى ندرك خسارتنا به".

لوهلة لم يكن لدي الوقت لفهم الأمر، فبعد احتلال السفارة الأمريكية في عام 1979، كانت قد أُغلقت إيران فعلياً في وجه المراسلين

الصحفيين من أواسط أمريكا، لم تكن الإقامات النادرة الممنوحة عادة، تسمح بالمكوث في البلد أكثر من ستةٍ وثلاثين ساعة لتقديم تقرير عن تفاصيل حدث محدد، المرة الوحيدة التي سُمح لي فيها أن أغطي أحداث مشكلات المئتين وتسعين مدنياً إيرانياً الذين قتلوا عندما قصفت الطوافة الأمريكية بصاروخ كروز الطائرة الإيرانية التي كانت تقوم برحلة منتظمة في الخليج ، كان ذلك عام 1988 قبل وفاة الخميني.

لكن ما كنت بحاجة إليه أن أفهم أن ما يجري للمسلمات، من الجزائر حتى أفغانستان، له جذور هنا في هذا البيت الصندوقي الشكل البسيط في شمال طهران. هذا الشخص، الخميني، قد أقنع النساء أن ارتداء معطف فضفاض يعود الى القرون الوسطى، هو عمل ثوري. هناك شيء ما في رسالته أحضر الآلاف من النساء لتواجه جيش الشاه في الشوارع، ويخاطرن بحياتهن للدعوة إلى الرجوع إلى مجموعة القوانين التي تسمح بزواج الأولاد وتعدد الزوجات وضربهن.

كان الخميني يتحدث بصوت استمد سلطته من أيام الإسلام الأولى. كان الخميني شيعياً، فرداً من طائفة الإسلام القليلة التي انفصلت عن الاتجاه السائد في السنوات التي تلت وفاة الرسول محمد. وافقت الأغلبية من المسلمين الأوائل على أن يتم تعيين خليفتهم بالمبايعة، كما كان في تقاليد الصحراء الطويلة. وبما أن كلمة تقليد تعني "سنّة"، أصبحوا يعرفون بالإسلام السُنّة. لكن أقليةً شعرت بأن خليفة الرسول يجب أن ينحدر من أسرته، اختاروا صهره وابن عمه علي، كانوا شيعة علي وأنصار علي ويُعرفون الآن بالشيعة. وبسبب أصولهم كمنشقين، وجد الشيعة ان عليهم واجب مساءلة من هم في السلطة والتمرد عليهم إن لزم الأمر، ولأن أصولهم ترجع إلى هزيمة علي وأبنائه، فإن الهوية الأعمق والأكثر تعبيراً عن الشيعة هي شخصية المقهورين والفقراء، وقد استخدم الخميني كل هذه التقاليد الراسخة عميقاً حين كان يخطب للثورة على الشاه عام 1978.

فتحت إيران أبوابها بعد وفاة الخميني عـام 1989 لأي صحفي حضر إليها. وبعد الجنازة العارمة، عقد هـاشمي رفسـنجاني مؤتمـراً صحفيـاً نـادرا للمراسلين الأجـانب. ذهبـتُ مرتديـةً شـادوري الأسـود، لأن مثـل هــذه الأحداث دائماً تُتلفز في إيران، أعلم تماماً أن منظمـي المؤتمـر الصحفـي لـن يدعوني أقف أمام المايكروفون حاسـرة الـرأس. عندمـا كـان لي أن أطـرح سؤالي عن تركيبة السلطة بعد الخميني، حدّق رفسنجاني بـي وراود طيـف ابتسامة وجهه المدور كالقمر "لدي سؤال لك" هكـذا قـال "لمـاذا ترتديـن هذا الحجاب الثقيل بينما وشاح بسيط يفي بالغرض".

وُجّهت إلي كاميرة التلفاز الإيرانية الكبيرة ذات الطـراز القديـم. مـاذا كان علي أن أرد؟ أأقول أن الشادور كان لتسـويغ دخـولي مكانـاً لم يكـن من المفترض دخـولي إليـه؟ أم أقـول أنـي رأيـت أن طياته المنتفخـة تعطيـني إحساساً بالحرارة المخيفة أقل من لفحة ومعطـف؟ أم أنـه منـذ ليلـة واحـدة مضت لم يكن نفس اللبـاس مناسبـاً مـن وجهـة نظـر أحـد موظفـي وزارة الإرشاد الإسلامي؟ (بينما كنـت أركـض لأركـب مـتن طـائرة الهيلوكبتر ذاهبة إلى قبر الخميني، عصف هواء المروحة وأزاح شادوري للحظة مُظهـراً بنطلوني القصير،"تستّري" قال الموظف بصوتٍ عالٍ محتجاً، ووجهـه مليءٌ بالازدراء). كان سؤال رفسنجاني مراوغاً، فالأمر يتّطلب أكثر من منديـل بسيط للفرار من عقوبة الثمانين جلدة التي تهدد إيران النساء بهـا حتـى لـو كنّ أجنبيات إذا لم يلتزمن باللباس الإسلامي فعلى المرأة أن تغطي بالإضافة إلى الشعر كل جسمها باستثناء الوجه واليديـن. لوهلـةٍ، تسـاءلت فيمـا إذا كان علي أن أقوم بما قامت به الصحفية الإيطاليـة اوريانـا مالاسيا وأمـزق ثوبي كما فعلت في مقابلة لها مع الخميني، ونُعتت بأنها شخصية قروسـطية تافهة قذرة.

قلت: "إنني أرتديه بموجب روح الاحـترام المتبـادل". بـدا رفسـنجاني وكأنه انسحب، والمراسلتان الصحفيتان الغربيتـان في المؤتمـر الصحفـي بـدا التساؤل في عيونهما. رغبت فيما بعد لو أنـي عـبرت بشـكل أوضـح عمـا

أود إيصاله: إذا كنت على استعداد أن أحترم المجتمع الإيراني فعلى المجتمع الإيراني أن يكون مستعداً لاحترام مطالبي، لكن بالنسبة لأكثر الإيرانيين الذين شاهدوا التلفاز بالملايين في بيوتهم ليلمحوا ما ستكون عليه حياتهم بعد الخميني لم يكن مهماً ما قلته، الذي يهم هو أن رفسنجاني أرسل إليهم مؤشراً على الاعتدال، ارتفعت قيمة الريال أمام الدولار كما سرت إشاعة بأن رفسنجاني قد أخبر مراسلة صحفية أنها تستطيع أن تخلع شادورها، فبالنسبة للتجار إن أي إشارة على الليبرالية تعني الأخبار السارة في العمل.

كان ما قلته يعني واحداً أو اثنين من الناس. ذات ليل اتصل بي عضو في الجمعية المسيحية الصغيرة في الفندق، يوبّخني لأنني تركت فرصة التعبير عن رأيي بصراحة ضد الحجاب لمصلحة النساء اللواتي أُرغمن على ارتدائه. وبعد عدة أيام دعتني زهرة ابنة الخميني إلى مؤتمر تديره جمعية نساء جمهورية إيران الإسلامية تحت شعار "الأوجه المختلفة لشخصية سمو الإمام الخميني". درست العنوان بحيرة. فأوجه شخصية سمو الإمام الخميني التي أعرفها كانت فتواه التي تقضي بقتل الروائيين وإرسال الفتيان إلى الجبهة في الحرب، وكأنهم كاسحات ألغام بشرية، ويُجيز للفتيات الصغيرات الزواج في سن التاسعة.

كان فندق الثورة في طهران مسرح أحداث المؤتمر، وكان مصعد ما قبل الثورة ذو الجدران الزجاجية، مصمماً على هيئة يوحي بمنظر حمام سباحة، وقد كُسيت جدرانه بورق الجرائد طيلة فترة المؤتمر كي لا يثير منظر جذع الرجال السخط لدى النساء المتدينات. فمنذ الثورة كان يسمح للرجال فقط أن يسبحوا علناً.

في حفل الكوكتيل المسائي الذي أقيم لكسر الجمود ـــ عصير فواكه وما من كحول، استغرقني الأمر خمس دقائق لأدرك أنني غريبة وسط النساء اللواتي كن ينتمين إلى الثورة الإيرانية المصدرة، المندوبات اللبنانيات من بينهن زوجات الرجال الذين غالباً ما يُشار إليهم بوصفهم زعماء مختطفي الرهائن. الغرفة التركية التي تتضمن الطالبة التي أصبحت مشهورة

بعد طردها من كلية العمارة لإصرارهـا علـى ارتـداء المنديـل الإسـلامي في الصف وكان هناك نساء من الميليشيات الإسلامية في الباكستان والسـودان وكينيا وتنزانيا والهند وجنوب إفريقيا. وهي مجموعة لها العديد من الاعداء، لذلك كان الفندق محاطاً بنطاق من الحرس الثوري المسلح. ومـا مـن أحـد يدخل أو يخرج دون إذن.

كان اللباس الأساسي في الحفل من اللون الأسود ـ طبقات مـن اللـون الأسود ـ كـان الشـادور اللمسـة الأخـيرة فـوق الألبسـة الداخليـة الطويلـة والكلسات والتنانير الطويلة التي تصل إلى الأعقـاب. غطـاء لـلرأس يُسـمى ماجنة (MAGNHE)، قماش دائـري يشـبه خمـار الراهبـة، لا يُـرى منـه إلا الوجه فقط. ينسدل على الرأس حتى الكتفين تاركاً فتحة واحـدة للوجـه. بينما كانت هيئات النساء المحجبات تدور حولي، بدأت أشـعر وكـأنني قـد أُقفل علي خطأً في كفن داخل جهنم.

إن انشغالهن بحديث السهرة أنساهن إياي قليلاً. "بالطبع، فـإن النـاس في هونغ كونغ قد تعرضوا لغسيل مخ من قبل الامبرياليين والصهاينـة ، مما تركهم لا يشعرون بأسى على رحيل الإمام" قالت ذلك صينية قزمة تدعى خاتيما ما (KATIMA MA) الـتي قدمـت نفسـها كزميلـة مراسـلة لجريـدة "مسلم هيرالد" الـتي تصـدر في هونـغ كونـغ. "يريـد العـدو الـذي يقـوده الأمريكيـون أن يـروا الأمـة الإيرانيـــة دون قـائد. الكـــل توقـــع حـــدوث الاضطراب هنا ولكن، الحمد لله، لم يحدث هذا، وحتى اجهزة الإعلام في هونغ كونغ، على الرغم من أنها تحـــت سـيطرة الصهاينـة بشـكل كـامل، لكنها لم تكن قادرة على فبركة قصص حول مشكلة إيران".

سألت طالبة العمارة التركيـة، المحجبـة الآن مـا عـدا عيونهـا وأنفهـا، لماذا يصر بلد إسلامي مثل تركية على الملابـس اللادينيـة إلى هـذا الحـد؟ .
"تعلمين بالطبع أنه هنـاك نوعـان مـن الإسـلام ـ إسـلام أمريكـي، إسـلام محمدي، وفي تركيا الإسلام أمريكي، وحسب الإسلام الأمريكي يتم فصل

الدين عن السياسة، لأنه يلائم مصلحة قوتهم العظمى. وحكومتنا تخشى الثورة الإسلامية إلى حد كبير، لأنها لا تريد أن تنفصل عن الغرب".

عندما هنأتها على لغتها الانكليزية الرائعة، قالت حميدة مرفت، امرأة طويلة، شاحبة : "عُينت مترجمة للمؤتمر وقد أتقنت لغتي أثناء إقامتي في /الوكر/ ".

" عفواً؟ "

"في (الوكر). وكر الجواسيس ـ السفارة الأمريكية" هكذا قالت. كانت حميدة واحدة من جماعة المحجبات اللواتي اقتحمن السفارة الأمريكية واعتقلوا طاقم موظفيها أسرى لمدة أربعمائة وأربعين يوماً. كانت وظيفتها ترجمة بريد الرهائن. سألتها إن كانت أحست في يوم من الأيام بالعطف عليهم. قالت: "أحياناً" عندما كنت أقرأ رسائل أولاد المدرسة الأمريكية التي أُرسلت للترويح عن المعتقلين. لكنني أدرك تماماً أنهم جواسيس حاولوا تدمير هذا البلد. وقد شعرت بخيبة أمل عندما أطلقنا سراحهم. أعتقد أنا شخصياً أنه كان من الواجب إعدامهم".

أومأت طالبة من جامعة كاب تاون من جنوب إفريقيا برأسها موافقة بكآبة ثم ابتهجت من جديد قائلةً: "على الأقل سوف نعدم رشدي بشكل أكيد، لقد ساعدت في تأسيس جامع في كاب تاون مكرساً لتعليم (نهج الإمام)، لكن وجدت عقبة أخرى حديثاً عندما تم تقديم اثنين من أئمة المسجد البارزين قيد المحاكمة بتهمة الخيانة.

ظلت الجنوب إفريقية تحدق بنظرات عدم ارتياح بأختها من غينيا تلك المرأة الطويلة والرزينة والتي كان يمكن أن تقف في أي حشد، لكن في هذه الحفلة كانت تقف وحيدة. فقد ارتدت بدلاً من الثياب السوداء التي ليس لها أي شكل جمالي، ثوباً ليلكياً يلتف ملتصقاً حول مفاتن جسمها، تموجت نهايات الثوب بثنيات مهلهلة فوق رأسها، منحسراً عن كتفها النحاسي الأملس، تتلصص أطراف أصابعها العارية من تحت ثوبها الجميل. خلال الأيام القليلة التي تلت ذلك، لاحظت أن واحدةً أو أخرى من

الأخوات المسلمات يقفن على رؤوس أصابعهن، يحاولن سحب الروب عن ذلك الكتف أو لف نهايته على شعرها بإحكام. إن المسلمات الإيرانيات والغينيات لهن تعريف مختلف بشكل واضح للحجاب.

إن كلمة حجاب تعني حرفياً الستارة، وكانت تستخدم في القرآن كوصية، زمن محمد، حول كيفية تعاملهم مع نساء الرسول: ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾[5] قد نزلت هذه الآية على محمد في ليلة من ليالي عرسه لحظة كان في طريقه إلى سرير زينب، زينب أكثر عرائسه إثارة للجدل.

اتفق فقهاء الإسلام بوجه عام على أن زواج الرسول من زينب سبب أخطر الأقاويل التي كانت تنسج حول الرسول كلما زاد عدد زوجاته. لدى زيارته بيت ابنه بالتبني عندما لمح زوجته الشابة التي كانت ترتدي ثياباً غير محتشمة وبدت فاتنة للغاية، استدار محمد بسرعة، وتمتم مستعيذاً با لله. ولقناعة الرجل بأن محمداً قد اشتهى زوجته، فقد طلقها. أثار زواج محمد لزينب الذي تلا طلاقها مباشرةً صخباً بين المسلمين، نظراً لأنه انتهاك للحرمات التي نزلت تشريعاتها في القرآن، و لم تخمد الجلبة إلا عندما نزلت على محمد آية جديدة تعلن أن التبني باطل ولذلك استثنى نفسه من القانون الذي يمنع زواج الأب من زوجة ابنه بالتبني.

وضعت آية الحجاب زوجات الرسول بمن فيهن زينب بمعزل، ليكن آمنات عن الفضيحة. لم تكن تعاليم القرآن للنساء من خارج أهل البيت بهذه الصرامة. ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين من زينتهن إلا ما ظهر منها. وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾[6].

---

5 سورة الاحزاب 33: 53

6 سورة النور 24: 31

في القاهرة عندما ارتدت سحر الحجاب، استشهدت بهذه الآية وتجادلت معها على أنها لا تحمل أية إشارة على وجوب تغطية الشعر على الإطلاق. بدا لي أن نقاشها سيكون حول التزام النساء بارتداء الثياب التقليدية المحافظة، في أيامنا هذه، بأنه من أجل تجنب التنورات القصيرة واللباس الشفاف، لكن سحر أجابت أنه كان من الضروري أن نبحث في ما وراء المعاني القرآنية للإفتاء بمسائل كهذه. قالت: من الواضح أن السنة، نهج الرسول ـ تلك الأمور التي قالها الرسول أو فعلها أو أجاز فعلها في حضوره ـ التي تقول "إلا ما ظهر" تعني إظهار وجه ويدي المرأة فقط. سائر زينتها ـ بما يتضمن الكاحل والرسغ والرقبة ـ يجب أن يكون محجوباً عن كل الرجال عدا زوجها وقائمة محدودة بدقة من الذكور المقربين الذين حرم الإسلام الزواج منهم، والذين هم أبوها ـ أخوها ـ صهرها ـ ابنها ـ وابن أخيها أو أختها، أولادها وأولادها بالتبني، وتستطيع أن تتكشف، كما جاء في القرآن، أمام الفتيان الذين لم يصلوا سن البلوغ والخدم الضعفاء الذين تنقصهم القوة والنشاط.

لكن تحليل سحر لم يكن عاماً. فبعض المسلمات يؤمنّ كما أؤمن أنا، أنه لا يطلب منهن إلا أن يلبسن ضمن حدود الاعتدال المعاصر وأخريات كن يصررن على المضي إلى أكثر من تغطية الرأس والوجه، إلى لبس القفازين في الكفين، مقتنعات بأن الفساد في العصر الحديث يتطلب إجراءاتٍ أكثر تطرفاً مما كان في عصر الرسول.

في مطار القاهرة أكبر بوابات العالم الإسلامي، يمكن أن تجد كل التفسيرات لمختلف اللباس الإسلامي تقريبا والذي لكل منها وجهة نظر مختلفة في تفسير تعاليم القرآن حول الحجاب، نساء من باكستان في طريقهن إلى العمل في الخليج، يطفن بـ"السلوار الكاميز" (الزي الباكستاني)، المريح والفاتن ـ ثوب حريري ناعم ينساب فوق الملابس الداخلية الفضفاضة وشال طويل من القماش الأنيق يتدلى فوق الرأس ـ نساء سعوديات يطأن الأرض برفق خلف أزواجهن، يحدقن من خلف

حجاب الوجه الشفاف والعباءات السوداء التي تلتـف 360 ° عليهـن ، مما يجعلهـن يبدين كمـا وصفتهـن جـاي دي موبسـنات (GUY – DE — MAUPASSANT) : "كأشباح الموتى خرجـت للتـنزه" . كذلـك ارتـدت نساء أفغانيات ثياباً بدرجة السواد نفسها تدعى الشـادرس ــ وهـو غطـاء مجعد ملون، بمستطيل من الشبك المطرز فـوق العيـون. النسـاء اللواتـي مـن دبي كلهن يرتدين غطاءً رسمياً معقوفاً فوق الأنــف تاركـاً العيـون العسـلية اللون مكشوفةً وبعضِ الفلسطينيات والمصريات كن يرتدين معـاطف قاتمـة اللون مطـرزةً طويلـةً حتـى الأرض وإشـارباتٍ بيضـاء. وأخريـات ارتديـن تنورات طويلةً حتــى بطـة السـاق وإشـاربات مـع عصابـة مرصعـة بحبـات منتظمة متلألئة.

كان أغرب تحليل للباس الإسلامي قد صادفته في تلك الرقعـة المترامية الاطراف القاحلة من الصحراء الجزائرية، حيث كانت قبائل البدو المعروفة بالطوارق ملتزمة بالتقاليد التي ترى بأن على الرجال وضـع الحجـاب علـى وجوههم بعد سن البلـوغ، بينمـا تبقـى النسـاء حاسـرات الوجـه، ومـا أن يصبحوا بعمر تبزغ فيه لحاهـم ويصبحون قادرين على صيام رمضان، حتـى يتوجب عليهم تغطية كـل أجسـامهم عـدا عيونهـم، بسـترة مصنوعـة مـن طبقات مـن الجـوخ النيلـي اللـون. "نحـن الجنـود نحجـب وجوهنـا كـي لا يستطيع العدو أن يعرف علام نعزم، الحرب أم السـلام، أمـا النسـاء فليـس لديهن شــيء ليخبئنـه" هـذا مـا شـرحه رجـل طوارقـي عـن هـذا التقليـد. الطوارق هم من المسلمين، لكن تفسيراتهم للدين تعطي النساء حرية مطلقة لإقامة علاقات جنسية قبل الزواج وتسـمح بإقامـة علاقـات صداقـة وديـة عذريـة بعـد الـزواج. وهنـاك مثـل طوارقـي سـائد يقـول: "ترتبـط النسـاء والرجال بعضهم ببعض من أجل العيون ومن أجل القلب وليس فقـط مـن أجل الجنس" لكن بقيـة المسـلمين يـرون هـذا التقليـد علـى أنـه شـيء مـن الهرطقة. في الحقيقة، تأتي كلمة طوارق في اللغـة العربيـة مـن (المنبـوذ مـن ا لله).

يمكن أن يكون الزي الإسلامي مجالاً لجني الأموال، طالما أن النساء يرتدين الحجاب. ففي القاهرة مركز "سلام" للتسويق للنساء المحجبات، متجر ألبسة مؤلف من ثلاثة طوابق لا يحتوي إلا اللوازم الخاصة والملائمة للزي الإسلامي. كان معظم بضائع المتجر مخصص لكل ما تعتبره إدارته من "أشكال الحجاب" ـ تنورات طويلة متناسقة الألوان وإشاربات وسترات مرصعة بالماس المزيف ومنفوخة بحشوة أكتاف أكبر من المعتاد ـ التي تغطي اللباس الكلاسيكي الإسلامي، أخذت إحدى المديرات تشرح، عندما تبدأ الزبونة بارتداء ثياب كهذه، بأنها سوف تنور روحياً بشكل تدريجي وتميل شيئاً فشيئاً إلى الألوان غير الزاهية والثياب الطويلة وغير الدارجة والتي لا شكل لها إلى أن تصبح أخيراً معصوبة الرأس وبعباءة سوداء وقفازات ووجهٍ مغطى. لكن هذه اللوازم البسيطة التي كلفت حوالي عشرة دولارات، من الصعب أن تجدها بين رفوف الحجاب العالي التصاميم والدارج والأكثر ربحاً فالثوب الإسلامي الخاص للسهرة يمكن أن يصل سعره إلى ثلاثة أو أربعة أضعاف مرتب شهري لخادم مدني.

في بيروت، في الطابق الأرضي لمسجد الرسول الأعظم، أسس حزب الله مصنعاً إسلامي الطراز ليمول الحاجة المتنامية على نطاق العالم للحجاب، "إن إسلامي ليس إسلام حفنة من المقاتلين، إنه ثورة في الثقافة والأفكار" قالت ذلك مديرة المصنع، البدينة التي قدمت نفسها باسم الحَجّة زهرة، أرتنا وهي تقلب في كتلوك خياطة ألماني كيف أن أحدث الأساليب في الجيب والأكمام والفتحات يمكن أن تصنع على الثياب الطويلة التي تستر والتي ينتجها المعمل بالمئات. حولنا تكومت أكداس القماش حتى السقف. أوضحت لنا أن الألوان الصفراء والحمراء والفاتحة ستستخدم في خط البيع للأولاد. أما الألوان البنية والرمادية والخضراء الطحلبية فهي من أجل أزياء النساء. أوضحت قائلةً: "أن الألوان الهادئة جزء من فلسفة الكساء الإسلامي للنسوة إذ يشيع جواً من الهدوء والراحة النفسية".

كان الحجاب هو العلامة الأوضح على النهوض الإسلامي الذي كنّس في طريقه سَحَر وأخريات كثيرات. بدأ ذلك عام 1967 بعد خسارة مصر المأساوية أمام إسرائيل في حرب الأيام الستة. ولتبرير الهزيمة توجه الفلاسفة المسلمون بإصبع الإتهام إلى علمانية حكومة جمال عبد الناصر، وحثوا المصريين للعودة إلى الشرائع الإسلامية التي تخلوا عنها، وشيئاً فشيئاً أخذ عدد المتحجبات يتزايد.

لكن البلاء الحقيقي جاء مع الثورة "الثيوقراطية" الإسلامية الإيرانية، حين أصبح الحجاب فعلاً دينياً علاوةً على كونه فعلاً سياسياً. في عام 1935 حرّم والد الشاه الشادور. فقد كان رضا شاه يريد لبلاده أن تظهر بمظهر عصري وكان يعتقد أن العباءة السوداء القديمة لا توحي بذلك. لكن النساء المتدينات خاصةً "الكبيرات منهن"، لم يستطعن التأقلم مع هذا التغيير المفاجىء، فمن ذكريات "ابنة فارس" ستاري فارمايان تكتب عن تصميم أمها: "حين علمت أمي أنها ستفقد اتزان الشيخوخة الذي يمنحه الحجاب استثير غضبها، واعتبرت هي وكل التقليديين أن أمر رضا أسوأ شيء فعله في حياته ـ أسوأ حتى من هجومه على حقوق رجال الدين، بل وأسوأ من فسقه واغتيالاته"، وخوفاً من سخط الشاه أمرها زوجها بالخروج سافرةً علناً. "في اليوم التالي كانت تبكي غيظاً ومهانةً ثم انعزلت في غرفتها، وبينما كانت تبكي كانت تجاهد لإخفاء خصل شعرها السوداء الطويلة الجميلة تحت عباءة فرنسية صغيرة غير مناسبة".

أما بالنسبة للأخريات فقد أصبح ما سمي حركة التحرير شكلاً من أشكال السجن. فالرجال الذين بدؤوا يبيحون لبناتهم الذهاب إلى المدارس تراجعوا عن رأيهم عندما أصبح الأمر يعني أن عليهن المشي إلى الصف سافرات. والنساء اللائي عصين أمر الشاه وخاطرن بالنزول إلى الشوارع محجبات كن عرضةً لتمزيق أغطيتهن وقصها بمقصات الجنود. وقد حُظر على النساء اللائي يرتدين الشادور استخدام وسائل النقل العامة ومنعن من

الدخول إلى المخازن، وتجنباً للتعرض لهذه الإهانة، فقد فضل الكثيرات من النسوة البقاء في بيوتهن، أما خديجة زوج الخميني فلم تبرح منزلها أبدا، كان هذا القيد قاسياً جداً في وقت لم تكن فيه معظم البيوت تملك حمامات والنساء مضطرات للتجمع لكي يستحممن ويمارسن حياتهن الاجتماعية خلال وجودهن لساعات في الحمامات المحلية. كان الحظر إجبارياً عام 1935 حتى عام 1941 عندما خف الضغط الوحشي استمر تشجيع النساء على رمي الحجاب، أما النسوة الراغبات بالتحجب فقد وصمن بالتخلف.

وحين تصاعد الضغط الثوري في نهاية السبعينيات أصبح ارتداء الشادور رمز الاحتجاج على الشاه ومسانديه الغربيين. وقد ساند ذلك بعض الموظفين الكبار لأسباب مستقبلية. "فلو أن النساء ارتدينه" ، يقول رجل الدين ابراهيم أميني، "يمكن للزوجات أن يسترحن واثقات من أن أزواجهن حين لا يكونوا في البيت فإنهم لن يغازلوا امرأة أخرى قد تصرفهم عنهن". وفي بريطانيا توصل الفقيه الإسلامي "شابير أختار" إلى نظرية أخرى. يقول أن الغاية من الحجاب "هو أن نخلق ثقافة جنسية فعلية تغني المرأة عن الحاجة الاصطناعية التي تقدمها الصور الإباحية"، وفي الحالتين كلتيهما يتوقع من النساء أن يضحين براحتهن وحريتهن ليلبين المتطلبات الجنسية الذكورية: فإما أن يكبحن أو أن يحقرن الدافع الجنسي الذكري".

لكن أياً من هذين التحليلين لم يلقَ كبير وزن لدى المثقفين الشباب من أمثال مترجمي الإيرانية "حميدة معريفات" فبالنسبة لها كان ارتداء الشادور، أولاً وأخيراً، فعلاً سياسياً ولأنها ترعرعت في بيت ينتمي إلى الطبقة الوسطى فهي لم تفكر أبداً بالحجاب حتى بدأت تحضر المحاضرات السرية التي يلقيها المثقف الكارزمي، علي شريعتي. شريعتي إيراني المولد سربوني الثقافة، زاوج ثقافته الماركسية مع إسلامه الشيعي الإسلامي بجذوره الثورية المتمردة على ما كان سائداً بعد وفاة محمد. وجاء بنهم ثوري مصممٍ على استنهاض الجماهير لتحدي الطغاة. يقول أن اللباس

الغربي هو شكل من أشكال الامبريالية التي تحول جمال المرأة إلى منتَج رأسمالي يباع ويُشرى وفي الوقت نفسه جعلوا من نسوة العالم الثالث مستهلكات اتكاليات من طراز سريع العطب. وهو يجادل بأن على المسلمات أن يؤكدن حريتهن عن طريق تبني اللباس الإسلامي. بالنسبة للشابات من أمثال حميدة معريفات يخدم الشادور هذه الغاية بالذات بوصفه مثل معطف الدينيم الذي ترتديه "أندريا دوركن" رمز أنثى الجيش الأمريكي. بالنسبة لحميدة يرمز الشادور إلى الحرية، ارتدته قبل عام من ثورة 1978 وحين احتلت السفارة الأمريكية ارتدته بوصفه راية.

لكن حين التقيتها بعد عشر سنوات مضت كان وهج الثورة قد بدأ يخبو. كانت كلما ابتعدنا عن أنظار الرجال ترمي القماش الأسود الضخم عن جسدها بارتياح قائلةً: "ليتني لم أرتديه" هكذا أسرّت لي ذات يوم. "في البداية كان من المهم أن نثبت وجهات نظرنا الثورية أما الآن فما علينا أن نثبت ذلك بل يمكن للمرأة أن تكون ثورية وهي لا ترتدي سوى منديل ومعطف".

حين ذهبت لزيارتها في المنزل بدت حميدة مرحةً بتنورة ذات ثنيات وقميص حريري ومجوهرات ذهبية متزنة. لكنها حين خرجت للشارع، ارتدت الزي الإسلامي الثوري كاملاً. بالنسبة لي كان التعامل مع حميدة ذات الشادور أسهل، فالأشياء التي تقولها كانت تبدو لي أقل إرباكاً وهي تخرج من ذلك الظلام المجهول. في الغرفة التي تسكنها أسرتها المفروشة بشكل أنيق، بينما كنا نثرثر في مواضيع حيادية كالشعر الفارسي مثلاً أو صعوبة الاجتماع بالرجال المؤهلين للانتخاب، كان من السهل أن أبدأ بالنظر إليها بوصفها امرأة أخرى حلوة تماماً بمثل سني وما هو مشترك بيني وبينها الكثير. بعدئذ تدخل يدها في شعرها الكستنائي المسرح وتطرح رأياً (مدمراً) بتطرفه "اسرائيل يجب أن تزول من الوجود" ثم تقول وهي تتناول فنجان الشاي وترشفه "إنني أتطلع إلى اليوم الذي أشارك فيه في الحرب لتدميرها".

وفي حين يفترض المسلمون السنة صلة مباشرة بين الله والمؤمنين، يؤمن الشيعة بأن رجال الدين هم الوسيط في هذا. وفي العادة يختار كل شيعي مفكراً شيعياً من مرتبة عالية ويتبع أي قاعدة دينية، أو فتوى يصدرها ذلك الشخص، وقد اختارت حميدة الخميني، الأمر الذي يعني أنها قد رتبت كل تفاصيل حياتها وفق الآراء التي وضعها الخميني في مجلداته الثمانية عشر في التفاسير الدينية. "يقول بعض آيات الله أن على النساء ان يرتدين القفازات" قالت موضحة، " لكن الإمام الخميني يقول أن الجزء الأسفل من اليدين تجوز عدم تغطيته". يعتقد بعض آيات الله الآخرين أن صوت المرأة مثير ويمنعون المرأة من الكلام في الاجتماعات المختلطة إذا لم تضع حصى في فمها لكي تشوه الصوت. أما الخميني وهو يفكر باجتماعات الرسول مع المجموعات المختلطة نساء ورجالاً فلا يعتقد أن هناك مشكلة في صوت الأنثى.

سألت حميدة عن إمكانية أن يخطيء الخميني في أي من فتاويه الدينية. قالت بالتأكيد نحن نؤمن بأن أي كائن بشري غير معصوم لكنني إذ أتبع فتواه وهي خاطئة ـ لنقل أنني قتلت شخصاً ما أمرني بقتله وهذا الشخص بريء ـ فإن من قتلت سيذهب إلى الجنة وإثم القتل في عنق من أصدر الفتوى وليس في عنقي.

الآن وقد مات الخميني فإن حميدة تشعر أنها لا تستطيع أن تتخلى عن الشادور. فلو توقفت عن ارتدائه فجأة بعد موته قد يبدو الأمر وكأن التزامها بخطه قد ضعف. والمقالات في الصحف تذكر النساء باستمرار أن الشادور هو "الخندق في مواجهة قيم الغرب". والرجال في مواقع السلطة يؤمنون به. لقد ذهبت إحدى الصديقات إلى مقابلة من أجل عمل حكومي مغطية شعرها وثنياتها بمعطف ومنديل لا غبار عليهما إسلامياً. لكن الفاحص شخر ورفض توظيفها قائلاً: "إنك عارية".

في البداية اعتقدت ساذجة أن الحجاب على الأقل سيحرر النساء من طغيان مستحضرات التجميل، لكنني في مؤتمر النساء الإيرانيات الذي يغص ليلاً نهاراً بالراديكاليات المسلمات سرعان ما اكتشفت أنني كنت على خطأ.

طلبت من حميدة أن ترتب لي لقاء مع نساء حزب الله اللبنانيات. كانت معاقل هذه الجماعة في وادي البقاع وضواحي بيروت الجنوبية. والمناطق محظورة على الصحفيين الغربيين منذ اختطاف رئيس طاقم الصحافة المتحدة، تري أندرسون. رغبت في السؤال عن أندرسون الذي كان يقضي أيامه مقيداً إلى سخان (شوفاج) في عالم بيروت تحت الأرض المظلم، بدا لي أن الاجتماع مع النسوة اللائي يُقال أنهن زوجات الخاطفين الفرصة الأفضل التي لم أحصل على مثلها في حياتي لأنقلها إلى أسرته اليائسة.

في النهاية لم أعرف شيئاً عن ورطته لكن لقاء النسوة كان مفيداً بطرق أخرى. فقد دعونني للانضمام إليهن في ذلك المساء لتناول الشاي في جناحهن، شرط أن أتعهد بعدم ذكر اسم أي منهن في أية مقالة أكتبها، وعندما فتح الباب اعتقدت أنني أخطأت الغرفة. فالمرأة التي أمامي قد فردت شعراً أشقر منساباً حتى الخصر. كانت ترتدي فضلة حريرية وشالاً مهفهفاً. وراءها، على السرير اضطجعت امرأة أخرى بتكاسل في منامة من الساتان القرمزي المفتوح من الجانبين. ومن خلال النسيج الشفاف تبين أن أجسادهن كانت ملساء تماماً مثلهن مثل دمى باربي. أخبرنني أنها السنّة التي تقضي أن على كافة النساء المتزوجات أن يُزلن الشعر عن أجسادهن كل عشرين يوم، والمزيل التقليدي هو عجينة من السكر والليمون تسحب الشعر من جذوره. قلن لي أن الرجال المسلمين أيضاً عليهم أن يُزيلوا شعر أجسامهم. والفترة التي يوصى بها للرجال هي أربعين يوماً. استغرقني الأمر بضع دقائق حتى عرفت أن الشقراء المبيضة هي المرأة نفسها التي ولولت مثيرة الهياج العاطفي في بيت الخميني، وحين ذكرت دهشتي بالشكل الذي

بدت به، ضحكت "هذا وضعنا في المنزل" قالت ذلك وهي متخذة وضعية مغرية "الإسلام يحضنا على أن نتجمل لأزواجنا" وسرعان ما فهمت لماذا حنت خديجة زوجة الخميني شعرها بلون برتقالي ــ جذري ولماذا ازداد الشيب بمقدار بوصة بعد أن توقفت عن صبغه بعد وفاة زوجها.

أما ابنتها زهرة فلا يبدو عليها أنها تحب نمط لفة الجزرة ولا نمط الفضلة التي تغطي الرقبة، فهذا مثار خلاف، بل ارتدت تحت شادورها تنانير من الصوف الخشن مزدوجة ومن النوع الذي ترتديه الطاعنات في السن ــ ملابس أكاديمية لأكاديمية تدرس الفلسفة في جامعة طهران.

استغرق الأمر ثلاث سنوات والعديد من اللقاءات قبل أن تنفتح علي بما فيه الكفاية وتسمح برؤية أي شيء غير شادورها. وحتى في غرفة تعج بالنساء نادراً ما كانت تسمح لشادورها بالانزلاق من قبضة يدها المضمومة التي حافظت عليه مشدوداً فوق حواجبها وشفتيها. أدى هذا الأسلوب إلى صورة محيرة. فهذا المجتمع النسوي أحب أن يعلي من شأن النساء اللامعات ــ أعضاء البرلمان من النساء، الفنانات، المؤلفات. لكن في مجال الصور الجميع بَدَون على السواء: كمثلث أبيض صغير، الرأس منحن داخل مثلث أسود ضخم.

وذات مرة أثناء مؤتمر طهران تركت زهرة شادورها ينزلق للحظة كاشفاً عن شفتين وذقن، ومض زر فلاش أحدهم. تركيز. لو سمحتن، من التقطت الفلم فلتسلمه فوراً؟ ستقوم الجمعية النسائية بتحميضه وقص الصورة المزعجة ثم إعادة بقية الصور ومعها صورة مناسبة للسيدة مصطفاني. والتفتت كل العيون التي في الغرفة نحوي. فأنا كصحفية كنت متهمة بامتياز، نفضت شادوري لأبين لهن أن لا شيء في كمي، شرحت لهن أنني لا أحمل كاميرا. اعترفت خاتيماما التي تشبه الغنمة بأنها هي التي التقطت الصورة. وبدت وهي تسلم الفيلم آسفةً لخسارة مراسلة جريدة *هيرالد مسلم* لهذه الصورة.

كانت زهرة مصطفاني امرأة ثقيلة شاحبة، غليظة الملامح لها نفس المنظر العنيف والملمح الجاد الذي لوالدها، يحط على أنفها سلك قاسٍ لنظارتين ويلتمع بيدها خاتم ماسي مطعم بالذهب، وبوصفها رئيسةً الجمعية النسائية كانت أكثر بنات الخميني الثلاث الباقيات على قيد الحياة نشاطاً في مجال السياسة. صديقة أرملة تعيش بهدوء مع أطفالها السبعة. فريدة أستاذة دين كانت مقترنة بتاجر من قم.

إن موقع زهرة كأستاذة للفلسفة كان إنجازاً عظيماً بالنسبة لامرأة لم تدخل المدرسة قط. فالخميني مثله مثل بقية رجال الدين الإيرانيين قبل الثورة، رفض أن يرسل أياً من بناته إلى ما كان يشعر أنه نظام تعليم للإفساد تديره الدولة. تعلمت زهرة في البيت على أيدي رجال دين مختارين وفي كل يوم كان والدها يعلمها بناءً على طلبها لمدة نصف ساعة، وجدت زهرة نفسها مشدودة إلى الماورائيات وللفلاسفة الغربيين من أمثال "برتراند راسل" ، "عمانوئيل كانت".

قالت إن الخميني كان أباً مطواعاً في معظم الأوقات، لكنه لم يكن يساوم في القضايا الإسلامية. "لو أردت أن ألعب في بيت ما وعلم أن في البيت صبياً كان يقول لا تذهبي إلى هناك بل العبي في البيت" ثم تذكرت "لا يمكنك أن تقولي في هذه الحالة: بابا دعني أذهب"، لأن ما قاله مرتكز على الإسلام وليس على رأيه الشخصي.

وما أن أنهت دراستها، حتى بدأ والدها يفكر بالأزواج الممكنين. رفضت زهرة ثلاثة خاطبين اقترحهم والدها قبل أن تقبل بالرابع: "كان أبي يأتي إلي ويقول اخترت واحداً لا أظنه سيئاً، فيه مواصفات كذا وكذا لكن الأمر يعود لك". وكلهم كانوا من الرجال الذين التقيتهم في جو العائلة. "ما كانوا يبدون غرباء أبداً، كنت أعرف كل شيء عنهم وانتظرت الشخص الذي يناسبني". اختارت أكاديمياً هو الآن يرأس جمعية تثقيفية، وكامرأة متزوجة بقيت في إيران عندما أمر الشاه بنفي والدها. لكنها كانت تزوره كل عام وتعود محملة بالأشرطة والمقالات الثورية المخبأة بين ملابسها.

وحين تعود إلى طهران كانت تخرج ليلاً لتوزع ذلك."كنت آخذ ابني وأجعله يتسلق الأشجار ثم يرمي النسخ وراء أسيجة الناس".

لكن ابنتها التي كبرت بعد الثورة الإسلامية لم تواجه أنواع القيود التي فرضت على زهرة كالبقاء في البيت أغلب الأوقات. وما أن سيطر الثوار وطهروا المؤسسات كالمدارس والجامعات والبنوك والأعمال، حتى أصبح الخميني لا يعترض على مشاركة النساء (المحجبات أصولاً) في السياسة والاقتصاد. وبذلك ذهبت حفيدته إلى كلية الحقوق وتزوجت من جراح قلبي وعاشت في لندن أثناء اكمال زوجها للدراسة.

في شتاء عام 1993 حين احتاجت خديجة للعناية الطبية التخصصية لم تتردد زهرة في إحضارها إلى لندن. انتقلت في تلك الأثناء من القاهرة إلى لندن وفوجئت بمكالمة تدعوني إلى العشاء معها في المستشارية الإيرانية. كان ذلك في أسبوع الذكرى الرابعة لفتوى أبيها بالاعدام لسلمان رشدي، ولكي تعبر بريطانية عن عدم رضاها التقت سكرتيرة الخارجية مع رشدي، وسرعان ما رفع الإيرانيون الغاضبون ثمن تأشيرة الدخول للمسافرين البريطانيين إلى إيران حتى وصلت 504 جنيهات استرلينية. لكن زهرة سرعان ما نفضت كل ذلك بهزة من معصمها. لم تكن في يوم من الأيام شخصية هينة للدردشة معها، فكل محادثة جرت بيننا كانت تبدأ بالكلمات "بسم ا لله الرحمن الرحيم" ، دائماً تقف في وجه الأحاديث البسيطة، فالترعرع في بيت واعظ والعمل كاستاذة محاضرة جامعية قد تركا لديها ميلا إلى الحوار العميق، وما أن تنطلق في حديثها حتى يصبح من العسير على المرء أن يطرح سؤالاً، نادراً ما يكون الأمر معها شبيهاً بالمحادثة.

لكنها على الغداء في لندن بدت أكثر استرخاءً وشجعتني على تناول المزيد من الرز والدجاج والكباب، وهي تكوم قطع اللحم اللذيذ في صحنها. كانت تتكلم بارتياح عن مناهج لندن، والأشجار، والشوارع العريضة، والناس المهذبين، أنا أعلم أن الخميني حين مضى إلى منفاه في فرنسا قد تفادى النظرالى جانبي الطريق من المطار إلى مقر إقامته. كي لا يلوث نفسه

بالبيئة الغربية، وفي بيته خارج باريس أزالوا له التواليت الكرسي وركبوا بدلاً منه تواليتاً شرقي الطراز بسيطاً. ابتسمت زهرة حين سألتها إذا كانت أجواء لندن غير الإسلامية تزعجها. قالت: "لا إشكال أبداً". الإزعاج البسيط الوحيد الذي حصل لها كان عندما تعرف عليها منفي إيراني كان في الشارع وصرخ بملاحظة مشينة حول أبيها. "بالطبع أنا لا أحب أن يشتم أحد أبي، لكنه كان مستعداً دائماً للتسامح في أي شيء يوجه إليه شخصياً أما الهجوم على الإسلام فأمر لم يكن يستطيع أن يغفره".

كانت زهرة تشمخ بشادورها في شوارع لندن، في حين أن الكثير من المؤمنات الإيرانيات لا يرتدين شادورهن في الغرب لهذا السبب بالذات وهو أن أحد الأهداف الرئيسة للحجاب هو أن يجعل المرأة أقل لفتاً للأنظار أما في لندن فالشادور يلفت الانتباه والتحديق أكثر من المنديل والمعطف، لكن بالنسبة لزهرة كان الشادور أشبه بجلد ثانٍ لا يمكن أن تسلخه.

كان أحد أسباب دعوتها لي إلى المستشارية هو أن تعرّفني على الدبلوماسيات العاملات هناك. إحداهن درست القانون الدولي وأخرى درست وضع النساء في بريطانيا. وحضورهن كان نوعاً من الانتصار للجمعية النسائية التي ضغطت لتعيين النساء في الخارج.

هؤلاء النسوة كن مجموعة مختلفة كلياً عن نساء الأقلية العصرية من الطبقة العليا والوسطى اللائي جاهدن تحت راية ليبرالية الشاه واللائي دمرت الثورة الكثير منهن. إحداهن "أصفاند فاروخرو برزة" أول امرأة في مجلس الوزراء الإيراني قد لفّت بكيس ورميت بمدفع عقاباً على جرائم "الإفساد في الأرض" وترويج الدعارة والتجديف على الله. ما فعلته هو توجيه بنات المدارس لئلا يتحجبن وأمرت بتنقيح الكتب المدرسية لتقديم صورة أكثر حداثة عن المرأة، لقد سجنت مئات النساء لرفضهن الانصياع للأوامر الثورية والآلاف منهن نجون من الموت إلى المنافي. لكن الأخريات من الأسر الريفية المحافظة الفقيرة قد ظهرن ولأول مرة من وراء الأسوار العالية، أسوار

الأندرون (أحياء للنسوة ذات بيوت تقليدية اعتادت أغلبية واسعة من النساء الإيرانيات أن يعشن بها طيلة حياتهن). شجع الخميني هؤلاء النسوة للنزول إلى الشوارع التي لم تكن ترحب بهن قط، وأن يتظاهرن مطالبات بالثورة. بل وقد قرر أنهن لسن بحاجة لإذن أولياء أمرهن كي يغادرن المنزل من أجل غاية كهذه فوجهة نظره في هذه المسألة لم تكن كما يقول: وجهة نظري على الإطلاق بل هي تشريع الإسلام الحرفي. فإن تلكُ السنّة المحمدية تقول بأن النساء يمكن أن يتزوجن في التاسعة فبإمكانهن إذاً أن يتزوجن في التاسعة وإن قالت أنهن لا يمكن أن يكن قاضيات فإنهن في هذه الحالة سيحرمن من كرسي القضاء، لكن إن تلكُ قد قالت إنهن يستطعن فعل أشياء أخرى، يُدرن أعمالاً، كما فعلت زوجة النبي الأولى، أو يشرفن على مريض، أو حتى يمضين إلى المعركة كما فعلت نساء عهد النبي يجب أن يُسمح للنساء الإيرانيات إذاً أن يفعلن الشيء نفسه. وفجأةً ولأن الإمام قد تكلم كان على الآباء والأزواج والأخوة المحافظين أن يسمعوا، وبالنسبة للنسوة اللائي كن سيمضين حياتهن مبعدات فإن ارتداء غطاء الرأس كان ثمناً بسيطاً مقابل حريتهن الجديدة.

ما يزال لغز يحيرني كيف أنه في لحظة، يمكن للضغط العام وقوانين الدولة أن تؤدي إلى إرغام النساء على ارتداء الحجاب، فلا يبدو أن أحداً يعير انتباهاً كبيراً لنواظم اللباس الإسلامي بالنسبة للرجال. حضّ القرآن الرجال كما حضّ النساء على الاعتدال وكانت سنّة محمد واضحة في هذا الشأن: فكما أن على النساء أن يسترن كل شيء عدا اليدين والوجه فإن على الرجال أيضاً أن يستروا منطقة البطن من السرة إلى الركبة والغطاء ينبغي أن يكون غير شفاف وفضفاضاً ومناسباً تماماً لستر الأعضاء التناسلية الذكرية.

لكن الرجال، على امتداد العالم الإسلامي، يقفزون فوق هذا القانون، فالجينز الكاحت المكسم كان الزي السائد بين شباب الخليج، واللاعبون "الأبطال الوطنيون كانوا يتنافسون وهم يرتدون سراويل لا

تكاد تغطي الورك". ومباريات المصارعة المتلفزة كانت تُظهر الرجال الذين يتصببون عرقاً وفي وسطهم شرائط فقط. وفي بحر قزوين حيث ترغم الإيرانيات على السباحة بالشادور، لم يكن أحد يصر على ارتداء الرجال لملابس سباحة تغطي السرة.

لكن النفاق كان واضحاً بشكل خاص أثناء مباريات كرة القدم حيث لا تستطيع الإيرانيات لابسات الشادور أن يأخذن أبناءهن لمشاهدة اللعبة لأن اللاعبين الذكور لم يكونوا يلبسون ملابس إسلامية. في الفترة نفسها كانت المباريات نفسها تبث ليلاً على شاشة التلفزيون الحكومي التي تسمي نفسها صوت ورؤية الجمهورية الإسلامية. وكلما سألت الإيرانيين عن هذا الموضوع كانوا ببساطة يضحكون أو يهزون أكتافهم. "يفترض بالنساء أن يغادرن الغرف إذا أراد أزواجهن مشاهدة كرة القدم". قالت إحدى الصديقات "حتى هذه الحكومة تعرف أن هناك حداً، يمكنك أن تطلبي في بلاد ما تقديم التضحيات الكثيرة، أما أن تتوقعي من الرجال أن يكفوا عن مشاهدة كرة القدم، فمعناه أنك تبالغين بالأمور إلى حد كبير."

لكن الجواب أعمق من ذلك بكثير، ففي الجمعيات الإسلامية لم يكن يُنظر إلى أجساد الرجال بوصفها تمثل نفس التهديد لاستقرار المجتمع كأجساد النساء. إن الوصول إلى حقيقة الحجاب هو إلى حد ما يشبه ارتداءه، مسألة طبقات يجب تعريتها، قطعة في كل حين وفي النهاية، وتحت كل أساليب الاخفاء، فإن العباءة، الشادور، الجلابية أو الشيلة هي الجسد، وتحت كل الأحاديث عن الحجاب وتحرير النساء من الاستغلال الجنسي أو التجاري وكل النقاشات حول إمكانيات الحجاب بوصفه رمزاً ثورياً وسياسياً ذاتياً يقبع الجسد: جسد المرأة الخطير الذي حمل بشكل أو بآخر في المجتمعات الإسلامية عبء الشرف الذكوري الثقيل.

الفصل الثاني

الى من يحق للرجل تملكه؟

﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة﴾

النور 24:2

كانت حجرة العمليات عبارة عن كهف مطلي بالأبيض ومحفور في إحدى التلال الإفريقية وتحت أضوائه البيضاء بدا اللحم مثل لوح رمادي مصفر.

أدخلت الجراحة يدها حتى المعصم في بطن المريضة وأمسكت رحم المرأة الزلق كما لو أنها أمسكت عدواً. والمريضة، في أربعينها تعد عجوزا بالمعايير الصارمة لهذه المقاطعة الأثيوبية. فقد عاشت رغم المجاعة والحرب والعنف الروتيني الموجه ضد النساء بحكم عادات البلاد القديمة.

في الثامنة من عمرها ثبّتوها بينما كانوا يختنونها بسكين غير معقمة وخاطوا اللحم بأشواك الأكاسيا. ليلة عرسها اضطر زوجها لأن يستخدم خنجره كي يشق طريقه عبر هذه الندبة المثلومة التي أصبحت عبارة عن أعضائها التناسلية. هذا الألم الذي كان مقدمة لآلامها المقبلة، عاودوها

عندما عانت آلاماً مبرحــة أثنـاء ولادتهـا لأربعـة أطفـال عـبر قنـاة الـولادة المتضيقة عند هذا النسيج الرقيق الملتئم. هنا تنتهـي واحـدة مـن كـل خمـس ولادات بوفاة الأم.

سيزول الخطر عاجلاً أم آجلاً، وبقـوة غـير متوقعـة، قـامت الجراحـة بأصابعها الملفوفة حول رحم المرأة المريضـة بإعـادة آخـر مـزق النسـيج إلى مكانها ثم انتزعت العضو وهي تثبـت قدمهـا إلى طاولـة العمليـات كـانت الرائحة في الغرفة الصغيرة ذات الجدران الحجرية خليطاً واخـزاً مـن رائحـة المطهر ورائحة اللحم المبتور لتوه.

إن استخدام المثبتات بطرقة خاصة في جراحة الحوض، والإبـر القديمـة المحنية، جعلت الطبيبة تتوقـف مـن حـين لآخـر لتعتصـر الدمـاء مـن الكتـل القطنيـة الموضوعـة في بطـن المريضـة. أوضحـت قائلـة: "نعـاني مـن نقـص الشاش".

كانت "عبريت جيبريكيدان" معتادة على نقص كـل شـيء تقريبـاً إلا المرضـى. وفي عـام 1977 تركـت عملهـا في مركـــز سـيراكوس الطـبي في نيويورك لتنضم إلى حركة الانفصاليين المتداعية للسقوط والتي شنت أطـول حرب في تاريخ إفريقيا. وقد أدركت بوصفها طبيبـة توليـد ونسـائية أنهـم سيحتاجون خبراتها هناك في مخابئ الجبال التي ينطلق منها شعبها الأريـتري لخوض معاركه ضد سياسة الإلحاق الأثيوبية منذ عام 1962 وحتى سـقوط الحكومة المركزية عام 1991.

عندما قابلتها أواخر عام 1989، كـانت الدكتـورة (عـبريت) تعمـل في مشفى تتناثر أجنحته والتي هي أكواخ من القش يتقطر الملـح مـن أغصانهـا المتدلية، على مسافة تقارب الثلاثة أميـال علـى امتـداد وادٍ جبلـي منحـدر الحواف. لم يكن معظم أعمالها له علاقة بالحرب، بل تضمن إنقـاذ النسـاء من العواقب الوخيمة لبتر أعضائهن التناسـلية.وتتعـرض الفتيـات في أريتريـا لأمرين هما: استئصال البظر والختان أي بتر الشـفرين وتخييـط الجـرح مـع ترك فتحـة بالغـة الصغـر مـن أجـل التبـول والطمـث. فـإذا نجـت الفتيـات

الصغيرات السيئات التغذية من تلقاء أنفسهن و لم ينزفن حتى المـوت، فهـن غالباً ما يمتن من الإلتهابات التي تعقب ذلك أو فقر الـدم المضـني. وبالنسـبة لبعضهـن فـإن النسـيج الملتئـم قـد يعيـق السـائل الطمثـي أو البـولي مسـببـاً الإلتهابات الحوضية. فالنساء اللواتي لديهن قنوات الولادة الملتئمة متضيقـة يعانين ولادات خطرة مأساوية. وفي بعض الأحيان يؤدي رأس الولد العالق إلى نـزف محتـم، أو إلى تمـزق المثانـة، مسـبباً نـزاً بوليـاً يجعـل رائحـة المـرأة كرائحة المرحاض ويسمم كل الأجنة اللاحقة.

وبهذه المعدات التي عفا عليها الزمان تستغرق كل عمليـة زمنـاً أطـول مما ينبغي، فعملية استئصال الرحم التي تستغرق عادةً ساعة واحدة، ونصف ساعة في مركز سيراكوس الطبي، قد تستغرق منذ بدايتها حتى نهايتها ليـلاً كاملاً. فخيوط الجراحة التالفة هنا جعلت الدكتورة (عبريت) تسـتغرق في العملية أكثر من خمس ساعات. وفي الخارج كـانت الحالـة التاليـة، فتـاة في الثالثة عشر تنتظر بفارغ الصبر عملية إعادة ترميم جدار مهبلها. هذه الفتاة بدوية مسلمة تزوجت في العاشرة مـن عمرهـا، والممارسـة الجنسـية الفظـة لزوجها معها كانت أقسى من أن يتحملها جسدها الذي لم ينضج بعد، مما أدى إلى تمزق الانسجة التي تفصـل مهبلهـا عـن إستها. هربـت الفتـاة مـن زوجهـا بعدئـذ، وانضمـت إلى المقاومـة الأريترية. في البدايـة سـجلوها في المدرسة، ثم أحضروها فيما بعد إلى الدكتورة (عبريت).

فوق قناعها الجراحي الأخضـر، كـان علـى جبـين الدكـتـورة عـبريت المتصبب عرقاً وشمٌ فظٌ على شكل صليب. في أريتريـا، وهـي إسـفين مـن الأرض على امتداد الساحل الاثيوبـي بمسـاحة تقـرب مـن بريطانيـا، ثلاثـة ملايين ونصف إنسان ينقسمون بالتسـاوي تقريبـاً بـين مسـيحيين يقطنـون المرتفعـات ومسـلمين يقطنـون الأراضـي السـاحلية المنخفضـة. والدكـتـورة عبريت تعالج المرضى من كلتا الجماعتين. وتعود عادة بتر الأعضاء التناسلية للمرأة إلى ماقبل قدوم الديانتين إلى البلاد، وعلى امتـداد مئـات السـنين لم تناقش هذه المسألة أي من الديانتين. كانت حركة المقاومة الأريترية واحدة

من بين التنظيمات الافريقية القليلة التي حاولت إزالتها. وكانت حملتها جزءاً من برنامج أوسع لتعزيز حقوق المرأة، اشتمل أيضاً على إصلاح توزيع الأراضي لاشراكها، والضغط من أجل تمثيل المرأة سياسياً.

"لانستطيع أن نرغمهم، بل نستطيع أن نعلمهم" هذا ما قالته نور حسين وهي واحدة من ست نساء انتخبن عضوات في هيئة تشكيل البوليس الأريتري التي يبلغ عدد أعضائها واحداً وسبعين عضواً. بدأت عادة ختن النساء تتراجع في المناطق المرتفعة، حيث كانت الأغلبية المسيحية للسكان تنظر إلى هذه العادة بوصفها حالة ثقافية أكثر من فرض ديني. أما بالنسبة للمسلمين في الأراضي المنخفضة فقد ظلت المسألة شديدة الحساسية، وقد أدركت أمينة المسلمة هذه الصعوبات: "قيل للنساء إن ذلك مكتوب في القرآن وأن لابد لهن من ذلك". كان بإمكانها أن تخبرهن أن هذا غير صحيح لكن كلماتها بوصفها امرأة وغريبة لا تفيد في شيء أمام كلمات شيخ القرية.

كان تعليم النساء ليتمكنَّ من قراءة القرآن لأنفسهن حجر الزاوية للحملة الأريتيرية المتأنية ضد استئصال الأعضاء التناسلية للنساء. قابلتها قبل عام وكانت (أسيت ابراهيم) تقول لمن يسألها عن الاختتان بأنه ضرورة لجمال المرأة وحسن بنيانها. "فأمي وجدتي، وجدة جدتي كلهن قلن أن هذا صواب ولولاه لما استطاعت المرأة أن تتحكم بنفسها وستنتهي إلى العهر" .

هذا ما تقوله أسيت الجميلة ذات الثمانية وعشرين ربيعاً والتي استئصل بظرها وهي في السابعة. "لقد تعلمت الاعتقاد بأن الامور أفضل على هذا النحو. فقد ترعرعنا ونحن نردد مقولة: (البيت ليس جميلاً دون باب)".

وكما تبين فيما بعد، فإن الختان لم ينقذها من العهر، إذ بسبب جمالها أُجبرت أسيت على الأعمال العبودية من قبل الجيش الأثيوبي، فتطلب ذلك أن تعمل كخادمة منزلية وفي بعض الأحيان كعاهرة في ثكنات الجنود. وعندما سقطت البلدة في أيدي الأريتريين، عرضت المقاومة على

أسيت فرصة التدرب لمدة أربعة أشهر كمساعدة مولّدة، وتعلّم علم التغذية وعلم الصحة وتنظيم الأسرة والقبالة. كما غُطي جزء من المناهج بشرح مخاطر استئصال الأعضاء التناسلية. هذه المعلومات تنقلها أسيت الآن إلى كل مريضة من مرضاها.

لم يكن عمل أسيت سهلاً، إذ كان عليها أن تقنع مرضاها بالابتعاد عن ممارساتهم القديمة، كوضع أحجار ثقيلة على أجساد النساء أثناء المخاض لتسريع عملية الوضع، أوحفر أخاديد بجانب آذانهم لطرد الأطفال من أرحام أمهاتهم، وعادةً ما يعاد قطب النساء المختونات بعد كل عملية ولادة، هذا الإجراء المؤلم جداً، يؤخر الشفاء ويزيد من خطر الإصابة بالإلتهابات.

قالت أسيت: "الآن أعرف أن لا جدوى، لكن ما دمت قد اقتنعت فإني آمل أن أقنع الأخريات لكنه عمل عسير".

أحياناً تطلب بعض النسوة خياطتهن، لأنهن يخشين معارضة أزواجهن وأخريات لا يقتنعن بتأكيدات أسيت على أن هذه الممارسة ضارة. فإذا أصرت إحدى النسوة على موقفها، فإن أسيت تعيد ختنها آملةً أن الأدوات المعقمة على الأقل ستخفف الضرر أكثر من الأدوات التقليدية للقابلة المحلية.

ولأن بعض المسيحيين وأتباع المذهب الحيوي يمارسون الختان الجنسي أيضاً، فإن العديد من المسلمين يستاؤون لأنهم يعدّون هذه الطريقة من صميم ديانتهم لكنٍ واحدةً من كل خمس مسلمات تعيش هذه الأيام في جماعات تجيز ضرباً من ضروب التدخل في شؤون أعضائهن التناسلية.

يبدو أن الانتشار الواسع للختان متأصل في إفريقيا الوسطى منذ العصر الحجري، وقد ارتحل شمالاً عبر النيل إلى مصر القديمة. وظل حتى فتحت جيوش العرب المسلمين مصر في القرن الثامن حيث انتشرت هذه الممارسات خارج إفريقيا بطريقة منهجية موازية لانتشار الإسلام، فوصلت حتى

باكستان وأندونيسيا. ثم انحسرت واقتصرت على أماكن قليلة في جزيرة العرب: في واحة البريمي، في الإمارات العربية المتحدة ظل ذلك تقليداً الى ما قبل بضع سنين خلت، كانوا يزيلون مقدار ثمن بوصة من بظر كل بنت في سن السادسة. وإذا ما سألت نساء البريمي عن أسباب هذه الممارسات لم يكنّ يجبن بشيء، وبما أنهن مطلعات جيداً على ديانتهن فهن يعرفن أن القرآن لم يتطرق لذكر هذه الممارسات. وكنّ على دراية بأن الكثير من القبائل المجاورة لا تفعل ذلك. لكنهن يعرفن أن المقصود من العملية هو حماية شرف بناتهن فعلى عفة البنت يتوقف شرف الأب والأخوة.

وفي حين يحتج بعض المسلمين على ربط الختان بديانتهم فإن قلة من الشخصيات الدينية تجهر بصوتها ضد هذه الممارسة، والكثير من النصوص الاسلامية ما تزال تدافع عنه.

في استراليا سمعت في احدى المرات، شابةً مثقفة مفوهة تعبر عن امتنانها لإزالة جزء من بظرها، قالت:" يذكرني ذلك أن زواجي يرتبط بأشياء أهم من المتعة".

وفي لندن في عام 1992، لم تجد (دونو كاجبارا) مراسلة صحفية (ساندي تايمز) أي صعوبة في إيجاد طبيب يوافق على إزالة بظرها، رغم أن العملية محظورة في بريطانيا منذ صدور قانون منع ختان النساء عام 1985. والصحفية قامت ببساطة بإخبار طبيب (هارلي ستريت) فاروق الصديقي، أن خطيبها مصرٌّ على العملية قبل الزواج.

في معظم البلدان الاسلامية، تكون النساء راعيات لشرف أقاربهن الذكور، فلو أن زوجة أو ابنةً لعوباً مارست الجنس قبل الزواج أو أثيرت الشكوك حولها، فإنها ستسيء إلى شرف أبيها وأخوتها وأحيانا إلى شرف الأسرة التي تحمل اسمها، ولتقليل أو تدمير المتعة الجنسية لا بد من تحجيم المغريات، والاحتياطات المتخذة في حال الأوامر الدينية القاضية بالتحجب والعزل غالباً ما تخفق في القيام بذلك.

ومع ذلك فإن تقليل المتعة الجنسية للمرأة يتناقض صراحة مع تعاليم محمد.

فكل كلمة في القرآن مقدسة بالنسبة للمسلمين، ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ هذا ما يقوله القرآن وكل مسلم يؤمن أن الآيات الستة آلاف تؤلف التعليمات الإلهية المباشرة. لكن هناك جدلاً حول المصدر الثاني للتعاليم الدينية الإسلامية: وهو الكم الهائل من الأحاديث التي تدور حول حياة الرسول وأقواله، والتي جمعها المسلمون الأوائل في بحث وجهد كبيرين خلال القرنين اللذين تليا وفاة محمد. ولأن المسلمين يشعرون أن محاكاة محمد هي المثل الأعلى فإن أدق تفاصيل عاداته، مهما بدت عادية، قد حفظها لنا سلفه. والنتيجة مجموعة من الأحاديث مشفوعة بسلسلة أنساب توثق مصدر الحادثة وكيف نقلت ومن نقلها. فلكل حديث مرتبة (الصحيح والحسن والضعيف) وبذلك يستطيع فقهاء المسلمين أن يميزوا ما إذا كانت سلسلة الناقلين موثوقة أم لا.

ومن دراسة الحديث نشأت مدارس إسلامية مختلفة، وضمن هذه المدارس استقطب بعض الفقهاء الكثير من الأتباع. معظمهم يتفقون على (الحرام) كأكل لحم الخنزير وشرب الخمر، وعلى ما هو (واجب) مثل مضمون وتوقيت الصلوات الخمس. والمسلم يأثم إما بارتكاب المحظور أو بإغفال الواجب، وما بينهما يقع في (المكروه): أي الأعمال التي لا يُشجَّع عليها ويجب عدم الإتيان بها، أما السنن فهي مستحبة وليست إلزامية.

إن إطالة اللحية عمل من السنة، تصرف مستحب يعبر عن التواضع ومحاكاة الرسول ويُجزى المرء على القيام به، لكنه لن يُعاقب على إهماله. وفي المجتمعات الإسلامية التي مارست الختان الجنسي للنساء فإن إزالة البظر هو عمل مساوٍ لإطالة اللحى ـ أي سنة ـ وبعض المسلمين يعتقدون أن سنة محمد تشجع علًى إزالة ثلث بظر الأنثى. أما أغلبية المسلمين فتقول أن هذه السنة لا وجود لها. والدلائل تأتي مصدقة لوجهة النظر الأخيرة إذ أن هناك

كماً هائلاً من الأحاديث يُطري فيها محمد وأصحابه المقربون على النساء وحقهن في المتعة الجنسية.

وتشير الكثير من الأحاديث إلى أن محمداً كان يمقت نوع الكبت الجنسي الذي تتطلبه تقاليد الرهبنة المسيحية. ففي إحدى الليالي حين جاءت امرأة إلى بيت محمد لتشكو إليه زوجها عثمان المنصرف عنها إلى الصلاة، غضب محمد لدرجة أنه لم ينتظر حتى يلبس خفيه. بل مضى مباشرةً إلى بيت عثمان وحذاؤه في يده وأنبه قائلاً بما معناه: يا عثمان لم يرسلني ا لله بالرهبانية بل بالدين القويم، أصوم وأصلي وأعاشر زوجتي. قارن هذا مع كلام القديس بولس إلى الكرنثيين: "خير للرجل ألا يمس امرأة.....لكن إذا لم يستطع السيطرة على نفسه فليتزوج، فالزواج خير من أن ينحرف".

ينظر المسلمون إلى الثورة الجنسية الغربية باعتبارها ردة الفعل الحتمية على الكنائس التي حاولت أن تقمع بل وتعيب الدافع الجنسي الذي منحنا ا لله إياه.

وبالنسبة لمحمد فإن الجنس في حالة الزواج يجب أن يستمتع به الزوج والزوجة على حد سواء، وقد شجع المداعبة قبل المقارنة الجنسية، قال: "لا ترتموا على نسائكم كالبهائم." وذات مرة عندما كان يتحدث عن القسوة قال أن الجماع دون غزل هو ضرب من ضروب القسوة.

لم يضع الإسلام أي قيود على نوع الجنس الذي يتمتع به الزوجان. فالقرآن يقول: ﴿نساؤكم حرثٌ لكم، فآتوا حرثكم أنى شئتم﴾[7] ومعظم الفقهاء المسلمين يفسرون هذه الآية بأنها تعني كافة أشكال المقارنة الجنسية ومن ضمنها المقارنة بالفم. أما بالنسبة لوضعيات المقارنة فهناك بضع محظورات على العشاق المتطرفين، فمن المكروه ممارسة الجنس وقوفاً أو الرأس أو المؤخرة في مواجهة القبلة. والنواهي الصريحة في الحياة الزوجية

---

7 ـ البقرة 2 :223 .

الإسلامية ـ النهي، مثلاً، عن ممارسة الجنس مع الزوجة بعد موتها ـ يبين إرادة الإسلام في تصور سلسلة الاحتمالات الجنسية الكاملة.

الإسلام واحد من الديانات القليلة التي تضمنت الجنس بوصفه أحد أشكال الثواب في الآخرة ـ علماً أنه للذكور فقط. وأحد أوصاف القرآن الكثيرة للجنة يبدو وكأنه بحث موجز في بيوت الدعارة السماوية.

ففي جنة النعيم ذات الأنهار والظلال يستمتع المؤمنون الذكور بحوريات رائعات الجمال ﴿كاللؤلؤ والمرجان﴾ لا تنظر عيونهن إلى رجل آخر ولم يمسسهن رجل من قبل، وإذا كانت المسلمات لم يُذكرن كمشاركات في هذا الجنس الأخروي فلهن علىٍ الأقل الجنس على الأرض. وفي العديد من البلدان الإسلامية، فإن واحداً من الأسس القليلة التي تستطيع المرأة أن تطلب الطلاق على ضوئها ـ حسب الشريعة الإسلامية ـ هو فشل الزوج في ممارسة الجنس معها مرة واحدة على الأقل كل أربعة أشهر. والسبب: هو أن المرأة المحبطة جنسياً من السهل إغراؤها باقتراف الزنى الذي يؤدي إلى الفتنة.

يقول علي، زوج فاطمة ابنة محمد ومؤسس المذهب الشيعي ما مفاده أن الله العلي القدير خلق الرغبة الجنسية من عشرة أجزاء. أعطى تسعاً منها للنساء وواحداً للرجال.

في مدرستي الكاثوليكية كانوا يعلموننا شيئاً مغايراً: فالبنات، النوع الأقل نشاطاً من الناحية الجنسية، عليهن أن ينتبهن لسلوكهن لأن الأولاد الذين يدفعهم الشبق إلى الجنون، ليسوا بقادرين على التحكم بسلوكهم. وفي أي من الثقافتين آلت الأمور بالمرأة إلى الطرف الخاطىء، فالنساء يتحملن وطأة اتقاء الفوضى الاجتماعية في التقاليد الكاثوليكية لأنهن لا يعتبرن مغاليات جنسياً. ويعانين في المجتمع الإسلامي نفس المصير لكن للسبب المعاكس. وفكرة شبق المرأة الذي يمكن التحكم به، غالباً ما تكمن وراء تبريرات الختان والعزل والحجاب. ذات مرة قال لي صديق سعودي

يسمى عبد العزيز: "تظنين أننا نخبىء نساءنا لأننا مضطربون في المسألة الجنسية؟ على العكس من ذلك، نحن نخبئهن لأننا لسنا مضطربين"

لكن الأمر ظل يحيرني فقد تعرفت في العربية السعودية على زوجين أحبا بعضهما من خلال الهاتف. فهو يحرر مجلة وهي أسهمت بقصيدة لتلك المجلة. اتصل بها ليناقش مسألة نشرها، وفي الحال بدآ يتبادلان الأحاديث الودية في الشعر والسياسة واتفقا على الزواج قبل أن يرى أي منهما الآخر.

وكمعظم البيوت السعودية فإن لبيتهما مدخلين: واحد للرجال وآخر للنساء. وصلت الفيللا العالية السور ذات ليلة لحضور حفل. تحرك الرجال بأثوابهم البيضاء إلى الباب الأمامي، أما زوجاتهم المحتجبات بالسواد، فقد مضين إلى مدخل جانبي.

وكلا البابين يؤديان إلى حجرة مليئة بالكراسي الضخمة، وحجرة النساء مزينة بالستائر القطنية القرمزية اللون والسجاد البلشي. أما حجرة الرجال فهي رسمية وكالحة أكثر. لم تختلط المجموعتان بل كان هناك ضيف ذكر أراد مني المضيف أن ألتقيه بوجه خاص: وهو أكاديمي سجن بسبب وجهات نظره السياسية التي وضعته في مواجهة العاهل السعودي. وللحديث معه اضطررت إلى خرق التقاليد والجلوس مع الرجال. حين عدت إلى حجرة النساء غمزتني زوجة المضيف قائلةً: "لقد أسديت لي معروفاً أشكرك عليه فزوجي يحب أن يتكلم بالسياسة، والتحدث بالسياسة إلى امرأة لا بد أن يثيره، والآن يمكنني أن أنتظر الاختلاء به في البيت وأنا أعرف أنه سيشبعني جنساً هذه الليلة". خجلت. فضحكت المرأة وقالت: "أنتن الغربيات تخجلن من الحديث بالجنس أما نحن فنتكلم عنه طوال الوقت".

ومع العلم أن النساء السعوديات يرغبن بالأسرة الكبيرة فما من واحدة منهن يمكن أن تفهم الفكرة الكاثوليكية القاضية أن الجنس هو فقط من أجل الإنجاب. فالنبي محمد قد أنجب فقط من زواجه الأول، لكنه تمتع بالعلاقات الجنسية مع الزوجات اللاحقات اللائي تجاوزت بعضهن سن

الإنجاب. وقد أجاز أيضاً تقطع الجماع الجنسي أي طريقة تحديد النسل الشائعة هذه الأيام، ونشأت قضية منع الحمل عندما بدأ الجنود المسلمون يفوزون بانتصارات كبيرة. فقد كانت النساء جزءاً من غنائم الحرب والقرآن أعطى الرجال حقوقاً جنسية بالسبايا لكن محمداً فرض قيوداً جديدة على هذه الحقوق. في البداية شجع القرآن المسلمين على تحرير عبيدهم، وهذه فكرة جديدة غير مألوفة في اقتصاد يرتكز على تجارة الرقيق. وقد فرض القرآن على المسلمين ألا يرغموا إماءهم على ممارسة الجنس إن كن راغبات في الحفاظ على عفتهن.

أصبح منع الحمل مهماً، لأن أَمَة أي مسلم تحمل بطفل لا يمكن أن تباع، بل وتعتق تلقائياً بوفاة الرجل ويصبح ابنها وارث الأب. وبالنسبة لجندي لا يرغب بخسارة ما يدره بيع إمائه أو لا يرغب برؤية ثروته توزع على نسل الإماء، أصبح منع الحمل ضرورياً للحفاظ على الثروة.

طلب محمد من أحد الجنود أن يستمر في ممارسته لسحب القضيب أثناء القذف لأن الله إن أراد خلق شيء فما من فعل إنساني يمنعه.

ويحاول القضاء الإسلامي أن يواكب المعايير الجنسية المعاصرة وذلك بتطبيق الحلول القديمة على الظروف المعاصرة. فعلى سبيل المثال قضى الفقهاء الإسلاميون بأن الإخصاب الاصطناعي مباح. لكن فقط بالسائل المنوي لزوج المرأة. وبتلاوة الأمر القرآني القاضي بأن على المؤمنين أن يحفظوا فروجهم إلا عن زوجاتهم فإن معظم المسلمين لا يقرون باستخدام السائل المنوي المتبرع به. لكن ما الذي يحصل لو أن زوجين يائسين من إنجاب طفل قد اخترقا هذه القاعدة فأنجبت المرأة طفلاً عن طريق التخصيب بسائل منوي متبرع به؟ لمن يكون الطفل من ناحية الإشراف عليه بنظر الإسلام وقوانين الميراث؟

عندما سُئل الفقيه الشيعي، محمد جواد مغنية، أن يقضي في مسألة كهذه، ذكر حالة صراع قديمة على الإرث سببها أن امرأةً واقعها زوجها

فمضت مباشرة إلى عبدتها ومارست معها السحاق، وقد افترضوا أن مني زوجها قد دخل إلى رحم العبدة فحملت.

وبعد أن بين العقوبة التي يجب تنفيذها على المرأتين بسبب سحاقهن المحرم، قضى الأئمة بأن ابن العبدة هو وارث صاحب المني، وبالقياس إلى هذه الحالة قضى الشيخ مغنية أن الطفل الذي جاء من مني متبرع به لا بد أن يُعتبر على الدوام أن أبوته تعود للمتبرع بالمني ولا يمكن النظر إليه بأي حال من الأحوال باعتباره قريباً لزوج الأم أو وريثاً له.

وكلما طال بي المقام في ديار المسلمين كلما أذهلتني المفارقة بين ما هو مباح جنسياً وما هو مكبوت، فذات يوم حار في إيران، سافرت إلى مركز "قم" الديني ومعي "ناهد أختاي" طالبة طب تركت دراستها في لندن لتعود وتشارك في الثورة الإسلامية في بلادها. يهيمن على سماء "قم" الصحراوية مسجد مذهب القبة يؤوي في داخله المزين بالمرايا رفاة قديسة شيعية هي فاطمة المعصومة "أي فاطمة الطاهرة"، لا يسمح الإيرانيون عادةً بدخول غير المسلمين إلى مقدساتهم الهامة، لكن ناهد التي تقول أن هذه الضوابط ليست من الإسلام بل جاء بها ضيقو الأفق، أصرت علي أن أتجاهل هذا الأمر.

وبينما كانت ناهد تتوضأ للصلاة، طفت باحة المسجد الواسعة، وأنا أراقب الأسر التي تتنزه في حرمه المفروش بالآجر الأزرق، أخيراً أدركت أن رجلاً يلبس العباءة كان يتبعني. كان شاباً ذا لحية غير كثيفة يرتدي الجلباب الأخضر الباهت والعباءة السوداء الرقيقة لطلاب الدين الإيرانيين، و"قمٍ" مليئة بهذا النوع من الشباب ولما التفت تقدم خطوة وهمس شيئاً ملحاً بالفارسية: "هومن سجحي مشّي؟" (هل توافقي على زواج المتعة معي؟). خشيت أن يكون قد لمح أنني لست مسلمة وأنه يطلب مني أن أغادر. شددت شادوري إلى وجهي وابتعدت عنه بخفة وأنا مطرقة العينين.

ولما وجدت ناهد التصقت بها بين أجساد النساء في المدخل. عند الباب سلمنا أحذيتنا ودخلنا إلى داخل المقام المتلألىء.

في الداخل كانت ألسنة الضياء المنبعثة من الثريات تتراقص على الموزاييك الشفاف وتنداح على الميداليات المزججة، المركبة على الرخام المنقوش. اختطت ناهد طريقها عبر حشد النساء وطوقت بذراعيها الأعمدة المسكوبة من الفضة التي شكلت قفصاً عالياً حول قبر فاطمة. وقفت بين عجوز لا أسنان لها وفتاة حامل يقدمن الصلوات لهذه القديسة التي تتعاطف مع المشاكل النسائية.

بعد شهر، بينما كنت أصف جمال المكان لصديق إيراني، ذكرت فرحي برؤية ذلك المكان، وكيف أن أحد الملالي أوشك أن يطردني قائلاً: "لا أظن أنه شك بأنك لست مسلمة، بل كان يطلب منك الزواج وما طلبه منك: هل ترغب السيدة بزواج مؤقت معي؟ هو دعوة إلى عقد شيعي شامل يسمى سجحي أو المتعة، ربما كنت ترتدين شادورك بطريقة خاطئة وهذه إشارة تستخدمها النساء إن كن يبحثن عن زواج المتعة"

"سجحي" هو اتفاق بين رجلٍ وامرأة يحلله رجل دين، قد يدومٍ بضع دقائق أو تسعة وتسعين عاماً. وعادةً ما يدفع الرجل للمرأة مبلغاً متفقاً عليه، مقابل زواج مؤقت. دافعه الأساسي هو الجنس، لكن بعض الزيجات المؤقتة تهدف إلى غايات أخرى. حين يكون الجنس هو الهدف يختلف الإجراء عن الدعارة في أن القرينين عليهما أن يمثلا أمام رجل دين لتسجيل العقد، ويعتبر الاطفال الذين يولدون من هذا الزواج شرعيين في إيران. وبالمقابل فإن السجحي خال من مسؤوليات الزواجٍ: يمكن للقرينين أن يتفقا فيه على ما يشاءان بشأن المدة التي سيمضيانها معاً، والمال والخدمات والجنس او اللا جنس الذي سيقدمه كل منهما.

والشيعة يؤمنون أن محمداً قد أقر زواج المتعة، أما السُّنة، الأغلبية الإسلامية، فلا يوافقون على ذلك وحتى في إيران الشيعية، فقد خف الحماس لزواج المتعة، حتى شجع عليه رفسنجاني بعد الحرب العراقية

الإيرانية التي انتهت في عام 1988. ففي خطبة له عام 1990 ناقش قائلاً أن الحرب قد خلّفت كثيراً من الأرامل معظمهن لا أمل لهن بالزواج مرة أخرى، وهو يقول أن هؤلاء النسوة بحاجة إلى سند مادي وإشباع جنسي وفي الوقت نفسه لا يستطيع الكثير من الشبان تأمين البيت للعروس وبالتالي فهم يؤجلون الزواج. إذاً يحتاج التوتر الجنسي إلى مخرج آمن، وما دام زواج المتعة قد وجد لهذه الغاية فعلام لا نستفيد منه.

أثارت ملاحظاته هذه جدلاً ساخناً بين الإيرانيات اللائي عارضت بعضهن بمرارة هذه الممارسة باعتبارها استغلالية وقلن أن على الدولة أن تمد أرامل الحرب بالشكل المناسب بحيث لا يضطررن لبيع أجسادهن في زواج المتعة. وهناك من وقفن إلى جانب القضية وقلن أن زواج المتعة لم يكن مسألة مال فقط فالأرامل والمطلقات لهن حاجات جنسية ورغبة في معاشرة الرجال وزّوج "المتعة" له حضور محبب لدى الأطفال في البيت وقد رسمت مجلة "كولاجها" الأسبوعية الناقدة كاركاتيراً يسخر من النتائج المحتملة لموقف رفسنجاني. يظهر هذا الرسم طاولتين لإعطاء تراخيص الزواج، واحدة لتراخيص الزواج العادي وواحدة لتراخيص زواج المتعة. لم يكن لدى مأذون الزواج العادي أي زبون، أما الرتل أمام مأذون زواج المتعة فقد امتد خارج الباب.

وفي الغالب تكون الفقيرات من النساء هن من يقبلن بزواج المتعة. أخبرتني صديقة محامية عن امرأة تنظف لها بيتها، مات زوجها شاباً وتركها لتعيل طفلين. قالت صديقتي أن هذه المرأة بقيت بائسة فترة طويلة، كانت تأتي إلى بيتي وتشاهدني وأنا مستمتعة بحياتي مع زوجي وابنتي في حين لم تكن حياتها إلا عملا بعمل. ثم تعاقدت على زواج مؤقت فتغيرت شخصيتها، لم تكن المسألة متعلقة بالمال فقط، فجأة صار لديها رجل تقضي الوقت معه ويُخرجها للنزهة. ففي ثقافتنا لا يمكن للمرأة والرجل أن يخرجا مع بعضهما ويستمتعا بالرفقة إلا في حال زواج المتعة.

وبعضٍ الشيعة يستخدمون "السجحي" لخلق قرابة تبيح للمرأة أن تظهر سافرة أمام رجل لا يحق لها لولا ذلك أن تظهر أمامه، مثلا: شخص ذو قرابة بعيدة مع المرأة يشاطرها نفس البيت، إن عقود السجحي هذه تُكتب لتحدد عدم وجود علاقات جنسية، في الغرب تستفيد بعضٍ العائلات الشيعية من السجحي كطريقة لتمكين الشابين من التعارف جيدا قبل الزواج. فعقد السجحي الذي يحظر العلاقات الجنسية يمكن أن يسمح للفتى والفتاة أن يلتقيا طوال فترة الخطوبة دون أن يتعارض ذلك مع التقاليد أو الدين.

والسجحي أيضاً يقدم حلاً لإشكالات العقم التي يحاول الغربيون الآن حلها بعقود شرعية للأمومة البديلة، أما في الشق السني من الإسلام فإن المرأة إذا لم تكن منجبة فإن زوجها عادةً ما يطلقها أو يتزوج بأخرى. أما عقود السجحي في إيران فيمكن أن تنص على أن الطفل الذي ينتج عن الزواج المؤقت يمكن أن يربيه الزوج والزوجة الدائمات.

والسجحي هي الطريقة الوحيدة التي يمكن بها للشيعي أن يتزوج من امرأة غير مسلمة. فهم بخلاف السنة الذين يسمحون للمسلم أن يتزوج من الموحدات الأخريات، فإن الشيعة يطلبون اعتناق الإسلام من كل النساء غير المسلمات والرجال غير المسلمين قبل أن يعقدوا معهم زواجاً دائماً.

جاء إحياء رفسنجاني للسجحي بمثابة هدية للإيرانيين من غير المتدينين الذين أربكت الثورة حياتهم الخاصة. فالعشاق غير المتزوجين مثلاً لا يمكنهم أن يذهبوا معاً لقضاء عطلة نهاية الأسبوع ـــ فلا الفنادق تعطيهم غرفة مزدوجة إذا لم يكن معهم ترخيص زواج والحرس الثوري قد يلقي القبض عليهم في أي طريق. وبالنسبة لـ "لو"، وهي امرأة أوروبية أحبت الثقافة الفارسية وأخذت الجنسية الإيرانية، فإن هذه الأمور مشكلة. وبالرغم من أنها اعتنقت الإسلام لتبقى في إيران فإن تعاليمها الدينية كانت خليطة من "الزن" و "اليوغا" والروحانية. وكونها بوهيمية في الصميم وليس لديها ميل للتوافق مع الضوابط الجنسية الإسلامية، فقد اتخذت

الكثير من العشاق وخاضت الكثير من المغامرات، إلى أن أعيد النظر في السجحي. فالآن حين تقع في غرام شخص ما، فهي توقع معه عقد سجحي لبضعة أشهر، ومعها مستند تلوح به أمام أي من المتحمسين الدينيين، ولعل ذلك ما لم يخطر ببال رفسنجاني.

لكن، بالنسبة للشيعة والسنة ومهما يكن ما يجيزه دينهما فهو يأتي محاطاً بعقوبات صارمة للتجاوزات الجنسية. وحدود الحرية الجنسية في الإسلام مرسومة بدقة حول سرير الزواج سواء اكان مؤقتاً أم دائماً. والجنس خارج إطار الزواج واللواط محرمان وكلا الاثنين يمكن أن يؤديا إلى أشد العقوبات رعباً في الشرع الإسلامي.

ففي حين أن عقوبة الموت، في الشرع الإسلامي اختيارية بالنسبة لأهل القتيل، فإنها ملزمة على من ارتكب فاحشة الزنى، وهو قادر على اشباع حاجته الجنسية مع زوجته او زوجها. والعقوبة في حال العُزّاب هي الجلد مائة جلدة. أو في حال ان احد الزوجين كان مريضاً أو مسافراً حين ارتكبت الفاحشة.

إن الرجم أو ما يفضل الإيرانيون ترجمته بكلمة الرمي بالحجارة، ما يزال ينفذ في حالات الزنى. والعربية السعودية أيضاً تعرّف الرجم باعتباره عقوبة للزناة المتزوجين. وبعض المجاهدين الأفغان الذين تدعمهم الحكومة الأمريكية بحماس منقطع النظير في حربهم مع الإتحاد السوفيتي، يريدون إعادة عقوبة الرجم إلى أفغانستان. لكن الرجم لم يأتِ ذكره أبداً كعقوبة للزنا في القرآن. فالقرآن ينص على أن الزوجات الزانيات: ﴿فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾[8]. لكن خلال إقامة محمد في المدينة غالباً ما كانت تنفذ عمليات الرجم للزانيات من قبل المجتمع اليهودي في المدينة، وهناك أكثر من حديث لمحمد يوصي بهذه

---

8 ـ سورة النساء 4: 15.

العقوبة للمسلمين. لكن الرجم لم يصبح شرعةً لقتل الزاني إلا بعد وفاة محمد وخلال حكم الخليفة الثاني، عمر، الشديد القسوة على النساء.

والرجال الذين يتعرضون للرجم هذه الأيام في إيران يدفنون في التراب حتى الخصر، أما النساء فيدفن حتى الصدر وتنتقى الحجارة بعناية، فهي ليست بالكبيرة ولا بالحصى بحيث لا يكون الموت رحيماً وسريعاً ولا طويلاً إلى ما لا نهاية. في تشرين الثاني عام 1991 استبدلت عقوبة امرأة في الثلاثين من عمرها تدعى زهرة حين أفلحت في الخروج من الحفرة التي دفنوها فيها، شعر القضاة أن نجاتها حصلت، دون شك، بمشيئة الله.

وأولئك الذين حضروا عمليات الرجم مؤخراً يصفون حشداً كله من الرجال، وهو بذلك يختلف عن المجموعات المختلطة التي تحضر قطع الرؤوس. المزاج العام هو مزاج السخط والتعطش للدم. إن واحداً من طقوس الحج هو رمي الحجارة على النصب الذي يفترض أنه يمثل الشيطان. يقول الشهود بأن المرأة التي تخضع لهذه العقوبة تصبح إلى حد ما مجردة من إنسانيتها كهذا النصب. ولربما كانت متنفساً لإحساس الرجال بالإثم من غرائزهم الجنسية التي لايمكن التحكم بها مع فارق أن الحجارة في هذه الحالة تضرب اللحم الطري. وبسبب الطريقة التي تدفن فيها فإنها لدى كل ضربة ترتد رقبتها إلى الوراء في سلسلة من الصفعات الموجعة جداً، وغالباً ما يكون الموت بعد أن يتهشم الرأس تماماً.

من الصعب أن نتصور طريقة أسوأ للموت، ومع ذلك فإن العقوبات الموضوعة للواطيين مصممة لتكون أكثر قسوة. فإذا كان الشريكان متزوجين، فقد يُحرقا حتى الموت أو يلقيا من مرتفع شاهق حتى يموتا. وإذا كان كلاهما عازبين فإن الملاط به يعدم ما لم يكن عبداً، واللائط يُجلد مائة جلدة، الاختلاف في العقوبة يعكس مقت الإسلام لفكرة أن يأخذ الرجل دور الأنثى أمام الشريك الآخر. أما السحاق فإن عقوبته مائة جلدة إذا كانت النساء عازبات، والسحاقيات المتزوجات قد يُرجمن.

لماذا الإسلام قاسٍ إلى هذا الحد في مسائل الزنى واللواط والسحاق؟ يتساءل "محمد رجفي" وهو فقيه ديني لدى المؤسسة التعليمية الاسلامية في "فانكوفر" يكتب عن الإسلام والجنس. "لو لم يسمح النظام الإسلامي بإشباع الحاجة الجنسية بالطرق المشروعة ودون ربطها بالإثم، يحق لنا القول أن الإسلام قاسٍ جداً. لكن ما دام قد سمح بإشباع الغرائز الجنسية بالطرق الشرعية فعليه أن يكون مستعداً لمواجهة أي سلوك شاذ".

لكن السلوك "الشاذ" ظل قائماً حتى بين أكثر المسلمين تظاهراً بالتقوى. في خريف عام 1990 حين كانت القوات الأمريكية تتدفق لحماية العربية السعودية من صدام حسين ذهبت لأكتب عن رد فعل السعوديين. وفي ليلتي الأولى في البلاد، قابلت أحد المتنفذين في شركة النفط، ولأنه تعلم في جامعة "جورج تاون" ومدرسة "وارتون" فقد توقعت منه وجهة نظر ليبرالية متأثرة بالغرب، بدلاً من ذلك قال لي أنه يأمل أن يبقى الأمريكيون محصورين في قواعدهم، لتفادي العواقب النجسة للمفسدات كالكحول وقيادة النساء للسيارة. قال أنه يعتقد أن من المكروه أن تعمد الـ CNN إلى إرسال مراسلة هي الصحفية المحنكة "كريستين أمانبور" لتغطية نزول القوات. وبالنسبة له لم يكن هوس الأمريكيين بالمساواة الجنسية سوى جبهة لإفساد الأخلاق. " قولي لي في أي مؤسسة لا يتطلع المدير إلى سكرتيرته ويفكر بطريقة للنيل منها، وإذا لم يحصل ذلك فليس لأمر إلا للمصلحة الذاتية ـ التي قد تتضرر إذا ما ضُبطا".

كان مكتبه المحاط بالزجاج يطل على حوضٍ سباحة تغمره الأنوار، وفناء مليء بالأزهار. لو لم يكن الجدار زجاجيا لما استطاع الجلوس معي كما أوضح لي. قال: "ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان ثالثهما الشيطان" بعد حوالي نصف ساعة أغلقت كرّاسي وشكرته على المقابلة. وإذ اصطحبني إلى الباب توقف ليطرح فكرة أخيرة وسألني إن كنت راغبة بلقاء بعض أصدقائه فأجبته بالطبع أنا راغبة.

وإذ كنا نمشي في الردهة فتح باب يفضي إلى غرفة خافتة الأضواء تعج بموسيقا "الروك" الصاخبة والأجساد المتشابكة. كانت فيلبينية جسورة بفستان أسود قصير جداً ترقص وهي تحف جسدها بشكل إيقاعيٍ على جسد شريكها ذي الثوب الأبيض، وقد جلس رجل آخر متربعا على الأرض وهو يوجه ضوءاً ملوناً إلى ساقيها، وعلى كنبة وثيرة يداعب تركيٍ أشقر ممتلىء بالرجولة مصرية ليثير رجلاً آخر جلس يتلصص مبتسما، وعلى البار في إحدى الزوايا يحتسي الضيوف ويسكي "جوني ووكر" ، سعر الزجاجة الواحدة مائة وخمسة وثلاثون دولاراً في السوق السوداء. وعقوبة شربها هي الجلد في ساحة المدينة، وإذ أخذ يرشف من كأس امتزج فيه الثلج بالويسكي، بدا المضيف وكأنه أدرك تناقضه بين ما قاله لي منذ لحظة وما يريني إياه الآن. بدأ بعد رشفته الثانية، يخبرني عن زواجه الفاشل من أمريكية. قال بامتعاض: " أصرت على ركوب سيارة الرولز دون أن تغطي وجهها وبالطبع كان الجميع يحملقون بها" وبعد الطلاق احتفظ بالأطفال كحق له وفق القانون السعودي. وليس في نيته أن يتزوج ثانيةً. "أستطيع أن أحصل على امرأة متى شئت" قالها وهو يشير إلى الفلبينية. "دفعت في الشتاء الماضي لامرأة جميلة كي تكون معي لمدة خمسة عشر يوماً في سويسرا".

ظل نفاق هذا الرجل يحيرني حتى قرأت رواية لنجيب محفوظ الشخصية الأساسية فيها رجل قوي الإيمان يحتجز نساءه بمنتهى العنف لكنه كل ليلة يخرج للدعارة مع مغنيات القاهرة الشهيرات. وحين يؤنبه شيخ ما على زناه يجيبه: "إن نساء المتعة هذه الأيام هن إماء الماضي اللائي أحل ا لله بيعهن وشراءهن".

ومن الواضح أن السعودي كان ينظر إلى النساء بطريقة مماثلة. فمعظمهن يعملن لدى الخطوط الجوية السعودية، حيث يتيسر فيها العمل للأجنبيات في العربية السعودية التي لا تمنح إشارات دخول النساء "دون

محرم". الخطوط الجوية تحتاج للأجنبيات لأن السعوديات لا يمكن أن يوظفن في عمل يتطلب سفراً غير مباح واحتكاكاً دائماً بالرجال.

حين نهضت لأغادر، سألتني الفلبينية إن كان بمقدورها أن تنتقل مع سائقي وأخذت العباءة ــ المفردة العربية التي تعني الشادور ـ وحجاب الوجه. وإذ كانت منتبهة إلى أن عيون الرجال عليها، شدت الحرير الأسود ببطء وتركته ينزل قليلاً قليلاً فوق مؤخرتها ويتدلى ببطء على فخذها. وإذ أخذت القطعة التي تغطي الوجه، أرخت غدائرها وهي تنحني إلى الأمام انحناءة معبرة لمدة لحظة، ثم استدارت بشكل طفيف لتمكنهم من رؤية مؤخرتها المستديرة. ردت رأسها إلى الخلف جامعة شعرها تحت النقاب، إنها حفلة تعرٍ معكوسة. وفي النهاية وقفت أيقونة سوداء مثلها مثل أي أنثى سعودية.

في البداية أدهشني أن يغامر مضيفي المنافق بحياة كهذه في بلد يضع حدوداً صارمة ضد الزنى، لكنني أدركت في نهاية المطاف أنه كان آمناً تماماً خلف أسوار قصره العالية. ففي التجاوزات الجنسية يجري تنفيذ أحكام الإعدام والرجم عادة فقط إذا اعترف المتهم، والوصول إلى إدانة بغير ذلك أمر مستحيل تقريباً في ظل الشريعة الاسلامية التي تطلب أربعة شهود ذكور." أو بما أن شهادة المرأة تساوي نصف شهادة الرجل، فشهادة امرأتين وثلاثة رجال". يشهدون على أنهم شاهدوا الإيلاج. ومن يتهم ولا يأتي بالعدد الكامل من الشهود لدعم شهادته يُتهم بالقذف ويجلد ثمانين جلدة.

لكن بالنسبة للنساء، في الغالب لاتطبق أي من الشروط لأن تنفيذ الحكم يكون قد جرى قبل أن تصل المتهمة إلى أية محكمة.

"مات أبي وأنا في التاسعة" هذا ما تقوله (تمام الفحيلية) وهي تحك أظافرها عبر خصلة من الشعر الأجعد وتقول:" هذا من حسن حظي. فلو كان هنا فلربما كنت قد قتلت منذ سنين مضت".

مضت تمام إلى طاولتها في شقتها وتناولت سيكارة، وإذ انحنت إلى الأمام، تموج اللحم فوق الصدارة الخفيفة. تعيش تمام لوحدها، وتعيش حياة خطيرة بالنسبة لفلسطينية مسلمة بلغت السابعة والثلاثين، فلديها عاشق منذ ثلاث سنوات: طبيب فلسطيني وسيم يدّعي أنه مناصر للأنوثة.

"بالطبع كان ذلك كله كلام بكلام. فقد عاد في نهاية المطاف إلى قريته وتزوج ابنة عمه. الرجل دائماً يستطيع العودة أما أنا فلا، وما من أحد سيتزوجني الآن إلا مخبول أو عجوز طاعن في السن ".

لم تكن تمام تبالغ حين قالت أن والدها ربما كان قد قتلها لو علم بعلاقاتها الغرامية، ففي كل عام تموت أربعون امرأة فلسطينية على أيدي إخوتهن أو آبائهن فيما يسمى بالدفاع عن الشرف الذي يزيل العار الذي سببته العلاقة الجنسية للقريبة الأنثى خارج إطار الزواج أو قبله. ومعظم حوادث القتل تقع في القرى الفلسطينية الأبعد والأشد فقراً، ومعظم النساء يُحرقن بحيث يمر الموت وكأنه حادثة انتحار، وغالباً ما يتحول القاتل إلى بطل محلي: رجل فعل ما ينبغي فعله لتنظيف سمعة العائلة. والقتل من أجل الشرف موثق لدى الفلسطينيين بشكل أفضل من أي مكان آخر بسبب الاحتلال الاسرائيلي، علماً أن حوادث الموت لا تصل كلها إلى الشرطة المدنية أو الجيش الاسرائيلي.

ومع ذلك فإن القتل من أجل الشرف يحصل في طول البلاد الإسلامية وعرضها، وأبرز حادثة من هذا القبيل هي حادثة الأميرة مسحال بنت فهد بن محمد في أحد ساحات جدة عام 1977 التي شاهدها سراً مغترب بريطاني. وقد أحدث عرض فلم القتل تحت عنوان وثائقي "موت الأميرة" أزمة دبلوماسية أدت إلى طرد السفير البريطاني لدى السعودية. وفي الولايات المتحدة الأمريكية حين خططت الـ **PBS** لعرض الفيلم، طالب أحد كبار المسؤولين في شركة النفط بإلغاء ذلك. والقليل من حقائق هذه العلاقة الغرامية قد تم اليقين منه، أما القصة التي رويت على شاشة التلفزيون البريطاني فتقول بأن مسحال كانت متزوجة ثم فرت مع عشيقها "خالد

محلل" ابن أخ الرجل الذي يعمل الآن كوزير للإعلام السعودي، وأمضت معه بضع ليالٍ في فندق في جدة، قبل أن تحاول الفرار من البلاد وهي متنكرة بزيٍ رَجل. ألقي القبض عليهما في المطار وسُلمت لأهلها.

لكن أمريكية جعلها زواجها ضمن أحد الأسر السعودية البارزة على صلة حميمية مع الناس أصحاب العلاقة فهي تروي قصة فيها مبالغة أكبر. تقول أن مسحال لم تكن متزوجة بل قتلت ببساطة لأنها تحدت إرادة الأسرة وهربت من زواج رُتب لها، لكي تتزوج ممن تحب. تجاهل جدها الأمير محمد، كبير فرع آل المسحال الأسرة المالكة، كافة التماسات الرحمة التي جاءته حتى من أخيه الأصغر، الملك. أطلقت النار على مسحال وقطع رأس خالد محلل، و لم يكن هناك إعلان عقب القتل كما هو الحال في الإعدامات التي تحصل حسب الطريقة الشرعية المناسبة.

وفي كلتا القصتين وحسب أحكام الشريعة في مسألة الشهادة لا يمكن أن يدان أي من الشابين. وإذا ما كانت الأوصاف الوثائقية صحيحة وكانت مسحال امرأة متزوجة ارتكبت فاحشة الزنى، فإن الجزاء هو الموت، لكن فقط في حال أمسك الاثنين أربعة شهود وبالجرم المشهود في الفندق، والشهود العرضيون الذين يمكن أن يوجدوا في آن واحد وفي المكان نفسه لن يكونوا كافيين. وعلى افتراض انها عازبة، فإن مسحال لم تقترف إثماً كبيراً حسب قوانين الشريعة.

لم يكن من المألوف أن ينفذ حكم القتل المبالغ فيه من أجل الشرف عند عائلات الطبقة العليا أمثال آل سعود، بل غالباً ما يكون الخطر الأكبر على النساء من الأسر الأفقر والأقل ثقافة.

كان والد تمام أمياً محتاجاً: وكان يعيل أبناءه السبعة من العمل كبستاني، كانت الأسرة تعيش في مدينة عكا القديمة في حيّ مزدحم قريب من أسوار الصليبيين التي تمتد في مواجهة البحر. ولأن أسرتها كانت بين 156000 فلسطيني ظلوا في الأرض و لم يفروا خلال الحرب العربية الاسرائيلية عام 1948، فقد نشأت تمام عربية تحمل هوية مواطنة في دولة

اسرائيل وتتكلم العبرية بطلاقة كما تتكلم العربية، وهي الأخيرة بين خمس بنات، واسمها الذي يمكن ترجمته بـ "الكامله" أو "النهائية" كان بناءً على رغبة أبيها في وضع حد لسلسلة البنات غير المرغوب فيهن. وقد استجيبت دعواته، إذ رزق بذكرين فيما بعد.

والأخوان أيضاً ربما كانا مشكلة بالنسبة لتمام، لكن لأنهما صغيران جداً ولأنها غادرت البيت حين كانا ما يزالان ولدين صغيرين فلم تتح لهما فرصة أن يشعرا بالهيمنة على أختهما. "بالنسبة لمعظمنا يكون الأخوة أشبه بكلاب ضخمة نابحة، ويشعرون أن هدفهم النهائي في الحياة هو أن يصونوا أجسادنا، إنه ضرب من ضروب الظلم لهم أيضا، كونهم سيضطرون لأن يمضوا حياتهم وهم تحت وطأة الشعور بالمسؤولية والخوف من أن نقوم في أي لحظة باختطاف شرفهم".

بعد أن أنهت المدرسة غادرت تمام المنزل مباشرةً لتحصل على عيشها من عملها في تعليم الأطفال المعاقين. ثم دُربت لتكون ممرضة، حين التقيتها عام 1993 كانت تعيش وحدها أو مع أصدقائها لمدة تزيد على عشر سنوات، وهي المرأة الوحيدة التي التقيتها في الشرق الأوسط التي لا تعيش مع الزوج أو الأسرة.

في حزيران عام 1991 أخذت تمام صحيفة الصباح وقرأت فقرة قصيرة عن حادثة اغتيال في قرية عقسال في الجليل، التي لم تكن بعيدة جداً عن مكان نشأتها. كانت القتيلة في التاسعة عشر من عمرها عزباء لكنها حبلى في شهرها السابع، وجدوا جسدها الممزق ملفوفاً في سيارة محروقة، كان القاتل والد الفتاة الذي تجاوز الرابعة والسبعين من عمره.

"شعرت أن هذه الفتاة هي أنا، فهي أي واحدة منا ونحن جميعاً نصارع لنبقى على قيد الحياة هنا".

لمدة ستة أشهر قبل حادثة القتل، كانت تمام وقلة من صديقاتها يلتقين مرة في الأسبوع ويقرأن كتباً مناصرة للأنوثة ويناقشن مشاكل النساء في المجتمعات العربية والاسلامية. بل واستحدثن اسماً لمجموعتهن الصغيرة هو

"الفنار" بمعنى مصباح البيت. "كانت لدينا أحلام كبيرة في أن نصبح عوناً للنساء اللائي يقعن في مشاكل، فاستدعيت صديقاتي وقلت: "إذا لم نفعل شيئاً حيال هذه الحادثة فما فائدة أحاديثنا؟".

علقت تمام وأصدقاؤها إعلانات تقول:" يا أبي، ياأخي ساندوني، لاتذبحوني" واتصلوا بكل مجموعات النساء العربية التي يعرفونها، طلباً للدعم، فلم يحصلوا على الكثير، ورفضت كل الصحف الفلسطينية في الضفة الغربية أن تمس الموضوع، نافضةً أيديها من أي نقد للمجتمع العربي يمكن أن تستغله الدعاية الاسرائيلية. وقد جادلت مجموعات نساء الضفة الغربية قائلات أن الوقت غير مناسب وأن الكفاح من أجل الاستقلال عن الحكم الاسرائيلي ينبغي أن يأتي أولاً وقبل قضايا حقوق المرأة. والأحزاب السياسية العربية الإسرائيلية أيضاً ظلت صامتة إذ لم تكن راغبة في أن تثير خلافاً بين أعضائها.

وتدبرت تمام وصديقاتها المال الكافي لإعلان احتجاجهن في الصحف العربية الإسرائيلية. وفي الحال بدأ هاتفها يرن حاملاً المضايقات والتهديدات، قالت تمام: "اتهمنا المتصلون بنا بمساندة الزنى، وقد استشهد أحد المتصلين بالآية القرآنية التي تقضي بأن الرجال قوامون على النساء"، واتهمها بالهرطقة لتحديها هذه المقولة."قالوا: إذا استمرت الإجتماعات فسيضعون حداً لنا جميعاً مثلما حصل للفتاة من عقسال".

وحين تجمعت نحو أربعين امرأة للإجتماع عصر يوم الاثنين في الشارع الرئيس في الناصرة، وجدن متفرجين مناهضين لهن وآخرين مساندين.

قالت تمام: "صاح بعضهم بنا: عاهرات، وشتائم أخرى، لكن العديد من العجائز من الرجال انضموا إلينا تلقائياً". وإذ شجعهن نجاحهن بدأت النساء في الارتحال إلى القرى البعيدة وهن يوزعن مقالات لم تكن ضد القتل بدافع الشرف بل أيضاً ضد الإرغام على الزواج والشائعات الخبيثة التي تستخدم في التجمعات الصغيرة للتحكم في سلوك النساء والفتيات،

تقول تمام: "وجدنا أنه من الأفضل أن نذهب إلى القرى في الساعات التي يُرجح أن يكون الرجال خلالها في عملهم، إذ لولا ذلك، لخرج الرجال إلى الباب وأخذوا الملصقات ونظروا إليها ثم مزقوها قبل أن تتمكن الزوجة من مشاهدتها".

وفي تشرين الثاني أثارت حادثة قتل أخرى من أجل الشرف احتجاجاً آخر، هذه المرة كان الهدف هو البوليس الاسرائيلي في بلدة الرملة العربية ـ "الاسرائيلية". أمسك البوليس بهاربة عربية في السادسة عشر من عمرها أمسكوا بها تطوف بسيارة مسروقة مع رجل متزوج، رجت الفتاة البوليس ألا يخبروا والديها. قالت تمام: "شرحت لهم أنهم سيقتلونها، لكن البوليس لم يأبه لذلك بل استدعى الأسرة وقال: "أمسكنا بابنتكم هنا وهي مرعوبة وعليكم أن تعدونا بألا تأذوها" بالطبع قالت العائلة أنها لن تفعل ذلك، لذا أعاد البوليس الفتاة لهم" بعد فترة وجيزة وجدت الفتاة مقتولةً.

بدأت نشاطات (الفنار) تلفت انتباه الصحافة الاسرائيلية، ورحبت النسوة بالمراسلين الصحفيين، لكن أملهن خاب حين ظهرت المقالات. تقول تمام: "شعرنا بأننا استخدمنا من أجل الدعاية الاسرائيلية، فقد كتبوا /انظروا إلى العرب المتخلفين يقتلون بناتهم، انظروا كيف يهاجم المسلمون المتخلفون النساء اللائي يقفن ضد القتل/ كان المراسلون يأتون للالتقاء بي ويقولون:/أنت لست كالعرب/ فأقول: أنا آسفة لا أريد من اليهود أن يعرّفوا لي من هم العرب ويقولون لي أنني مختلفة".

و لم يؤدِّ اهتمام الصحافة اليهودية إلا إلى تسعير رد فعل الأصوليين، تقول تمام: "بالإضافة إلى نعتهم لنا بالعاهرات بدؤوا الآن ينعتوننا بالخائنات" و لم تعد النسوة قادرات على الذهاب إلى القرى دون أن يتعرضن إلى الاحتقار أو ما هو أسوأ منه، التجاهل. "حتى النساء بدأن ينظرن إلينا باعتبارنا غريبات عن مجتمعاتهن لدرجة أنه ما من شيء نقوله يمكن أن تكون له أية صلة بهن. كنا نظن أننا نعرف ثقافتنا لكننا في الواقع لم نكن نعرف سوى دائرة الأصدقاء الصغيرة. والآن أن تذهبي إلى قرية عربية صغيرة

وتسألين الناس عن رأيهم بـ(الفنار)، فإنهم سيسخرون. أصبحنا نكتةً، أصبحنا العاهرات اللائي حسبن أن بمقدورهن تغيير طريقة سير العالم".

أدى الرفض إلى مناقشة التكتيكات والمقاربات ضمن المجموعة ثم إلى التفكك، وقد اختفت (الفنار) من الوجود بعد عامين من تأسيسها، تقول تمام: "إن المجتمع لم يكن جاهزاً ونحن أيضاً لم نكن مستعدات".

لكنهن حاولن على الأقل، والمولدات في أريتريا الحديثة الاستقلال يحاولن أيضاً أن يزلن الضرر الذي ألحق بالنساء من خلال تحريف التعاليم الاسلامية، فالعديد من المسلمين مقتنعون أن القتل من أجل الشرف والختان الجنسي ليسا من الإسلام، وإنما هي عادات جاءت من الثقافات المحلية، وليست لها علاقة بالعقيدة. وبهذا التأكيد فإن الكثير من التيارات الإسلامية تنفض يديها من العملين الوحشيين التوأمين اللذين يصوغان حياة ربع نساء الإسلام تقريباً.

من المفهوم أن المسلمين التقدميين يكرهون رؤية الدين مرتبطاً بهذه الممارسات، لكن ما ليس مفهوماً هو طريقتهم في توجيه سخطهم إلى المعلقين الذين ينتقدون هذه الممارسات وليس إلى الجرائم بحد ذاتها. والمثال على ذلك موجود في كتاب رنا القباني بعنوان "رسالة إلى المسيحية " الذي نشرته كرد على الهجوم على الاسلام الذي أعقب فتوى الخميني ضد سلمان رشدي. رنا القباني ولدت في دمشق لكنها ترعرعت في الخارج وهي الآن تعيش في لندن، وشكواها تستحق أن يُستشهد بها كاملةً فهي تكتب قائلة: "أنا دائماً أتألم من الفهم الغربي الخاطئ لحياة المسلمات، إن التجاهل الغربي غالباً لا يمكن فصله عن تبني وجهة النظر التي تصر على النظر إلينا كضحايا لا حول لها ولا قوة، في حين لا يميزونا بالكاد بين الثقافات المختلفة جداً التي ننحدر منها، زارتني في لندن مؤخراً روائية جاءت لتناقش معي شخصية مسلمة أرادت أن تضعها في كتابها التالي، سألتني: "كيف يمكن لمن تناصر قضية الأنوثة مثلك أن تدافع عن الاسلام

في حين أنه يطالب بختان المرأة؟". وكما شاعت الصدف قرأت في اليوم نفسه للمؤرخة "مارينا وارنر" تصف الاسلام بالدين الذي يمارس الختان للنساء، ألم يكن ممكناً لهاتين الكاتبتين أن تتجشما عناء اكتشاف أن هذه ممارسة افريقية لا تمت إلى الاسلام بأي صلة".

ألم يكن بوسع رنا القباني أن تتجشم عناء التعبير عن أن واحدة من كل خمس فتيات مسلمات تعيش في مجتمعات إسلامية يجري فيها نوع من أنواع الختان الذي يجيزه ويسوغه دينياً القادة الإسلاميون المحليون؟ أو أن تلاحظ الفصول بعنوان "النساء والختان" التي تظهر في العديد من الطبعات الجديدة للكتب الإسلامية خاصة في مصر؟.

وإلى أن تستهدف الناطقات المفوهات المدافعات عن الاسلام كرنا القباني الإخوان الضالين بالحماس نفسه الذي يستخدمنه لحالات النقد الخارجية، سيستمر الخطأ القاتل بربط الإسلام بالختان الجنسي للمرأة والقتل دفاعاً عن الشرف، بل والأهم من ذلك بكثير ستستمر الممارسات نفسها على حساب سعادة وصحة الكم الغفير من النساء المسلمات.

الفصل الثالث

هنا جاءت الطيور

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة﴾

سورة الروم" 30 : 21

راتا ـ تاتا ـ تات ـ تات ـ بوم ـ بوم ـ بوم ، راتا ـ تاتا ـ تات ـ تات ـ بوم ـ بوم ـ بوم .

سحبت وسادة أخرى فوق رأسي، لكنها لم تنفع وحين رفعت زاوية من كومة الأغطية فتحت عيناً واحدة واختلست نظرة إلى ساعة الفندق الرقمية تومض مخضوضرة على الطاولة، كانت الحادية عشرة والنصف قبل منتصف الليل وهناك ساعة على الأقل أو ساعتان قبل أن يتوقف الصخب. كان علي أن أنهض في الخامسة صباحاً لألحق برحلة الطيران لكن النوم كان حلماً مستحيلاً.

نهضت ومشيت إلى النافذة. كان الشارع في الأسفل مزحوماً بحركة سير حفلات الأعراس، أحصيت على الأقل ثلاثة سيارات ليموزين للعرائس تتزاحم خلف السيارة التي اتجهت إلى مدخل الفندق وقد ظهرت

عروس لتوها من إحدى السيارات وهي في موكبها البطيء تصعد درج الفندق محاطة بفرقة الطبالة. كانت حسب ذهني المكدود، هي العروس التاسعة تلك الليلة.

راتا تاتا - تات تات - بوم بوم - بوم.

كنت في بغداد أزور العراق في الفترة الفاصلة بين حرب الخليج الأولى (حرب أجنبية بالوكالة بين إيران والعراق) وحرب الخليج الثانية (القنابل الدولية الأمريكية الصنع) في العراق، في أي وقت يتوقف تساقط القنابل يبدأ طبل العرس، لقد أصدر صدام حسين قراراً يقضي أنه على العراقيين أن يتزوجوا وينجبوا كي يعوضوا الخسارة البشرية التي وقعت في جبهة المعركة وكي يصل إلى مراميه حرم منع الحمل وقدم مكافأة نقدية تشجيعية ضخمة لحفلات الزواج والإنجاب.

وحين بدا النوم غير مرجح في وقت قريب، قررت النزول إلى بهو الفندق وإلقاء نظرة أفضل على الاحتفالات التي يفصل بيني وبين أصوات طبولها وكمنجاتها وأبواقها المصمّة للآذان ستة عشر طابقاً وخمس وسائد. سهى، الشابة في منتصف الجميع، بدت كضحية حادث، ملطخة مرتعشة. ترتدي ملابس بأناقة أميرة، مشت في موكب وسط الموسيقيين نحو غرفة الوليمة المليئة بأطباق الطعام، وعرش للعروسين مصنوع من الخشب الفاخر القرمزي. في مكان ما، وربما في أوائل تلك الليلة أوربما منذ أيام خلت، وضع العريس ووالد العروس يديهما تحت قطعة من القماش قدمها رجل دين مسلم، قال الأب للعريس: "أعطيتك ابنتي، سهى العذراء البالغة، زوجة على سنة الله ورسوله" أجاب العريس: "أخذت ابنتك سهى العذراء البالغة زوجة على سنة الله ورسوله" حينئذ سأل الأب: "هل تقبل ابنتي؟" أجاب العريس: "قبلتها"، قال الأب: "بارك الله لك بها". فرد العريس: "آمل من الله أن يمن علينا بالبركة"، حينها تلا جميع من في الغرفة سورة الفاتحة الشاعرية القصيرة.

ما أن يوقع العريس ووالد العروس على العقد حتى يصبح الزواج شرعياً وعادة ما يكون الهدف الرئيسي للعقد هو توثيق ما يدفعه العريس للعروس لقاء الزواج وكم سيتوجب عليه أن يدفع لها إن قرر طلاقها في وقت لاحق. والعقد الإسلامي أشبه باتفاقية ما قبل الزواج في عالم الغرب ـ وهو وثيقة عنيدة غير رومانسية تقف في وجه حالات فشل الزواج، والعقد المحكم يمكن أن يصور لنا بعضاً من اللامساواة في تشريع الأسرة الإسلامية، الذي يبطل حق المرأة في العمل ومتابعة تعليمها، ويضيف شروطاً للطلاق إلى تلك الشروط القليلة المتاحة لها في ظل الشريعة وفي هذه الأيام تضيف الكثير من النساء فقرة تعرف باسم "العصمة" تعطيها الحق في الطلاق إن أرادت ذلك. والبعض الآخر يضفن تقليداً آخر ينص على حقها في الطلاق عندما يتزوج الرجل بزوجة أخرى.

وقفت على رؤوس أصابعي ورحت أراقب من فوق أكتاف النسوة المزغردات والعريس يخط طريقه لينضم إلى العروس في صدر الغرفة، العروس، سهى، ابتسمت ابتسامة كسلى عندما رفع الجلوة وقبلها على جبينها. لا بد أن هذه العائلة عائلة تقدمية ففي معظم الأعراس الإسلامية لا يمكن إظهار هذا التودد الضئيل المحتشم علناً.

وفي القاعة، كان أحد الأعراس السابقة ينفض. وحين كان الضيوف يخرجون من الغرفة صفقوا وزغردوا عندما اختفى العروسان داخل المصعد واتجهوا إلى إحدى المقصورات الفاخرة في الفندق.

وإذا ما كان العرس حسب الكتاب، فإن حدة ليلة العرس ينبغي أن تنتهي بطقوس أرق. وحين تسلم العائلة ابنتها أخيراً إلى الزوج الجديد يفترض بالعريس أن يستقبلها بنزع حذائها وغسل قدميها. إنها طريقة مستوحاة كي تقيم جسراً لتجاوز حاجز لمسة الغريب الأولى. يفترض به بعد ذلك أن يصلي ويباركها مردداً الكلمات التالية "اللهم بارك لي بحبها وودها وقبولها إياي وأسعدني بها واجعلنا من أفضل الأزواج وعلى وفاق

نام، إنك تحب الحلال وتكره الحرام". وبعد أن تصلي العروس يضع العريس يده على جبينها ويسأل الله أن يحمي ذريتهما من الشيطان.

كان من الصعب أن أتخيل هذين الزوجين المرهقين الأرقين وهما يفعلان ذلك كله. كان كلاهما تحت وطأة ضغط حاد، فاستمرارية الزواج من قبل الشاب تعني استمرار عرضه لفحولته، فإذا ما أخفق في الوصول إلى حالة الانتصاب فإن الزوجة تمتنع عليه. أما الضغط الواقع عليها فهو إثبات عذريتها فإذا لم تنزف دما فقد تعاد مهانة إلى أهلها الذين قد يستشيطون غيظاً لدرجة قتلها. ولأجيال عديدة، لجأت النساء إلى حشو فروجهن بالاسفنج المبلل بالدماء أو بنثارة الزجاج كتعويض عن البكارة الضائعة. و لم يبقَ حتى الآن سوى الفلاحين في القرى البعيدة الذين يعرضون ثياب العروس الملطخة بالدماء على العامة. لكن قضية ما إذا كانت سهى ما تزال "عذراء، بُكراً" ما تزال لها أهميتها حتى عند العائلات المدنية العصرية.

قال مدير ردهة الفندق وهو يتكأ على أحد الأعمدة منهكاً: "معظمهن يحملن في حقائبهن خرقاً مسروقة ليبرزنها عند الزواج، فأقاربهن المسنات ما زلن يصررن على رؤيتها، ثلث حجرات الفندق محجوزة للعرائس الجدد وسيجري الليلة الكثير من ذلك الذي تعرفينه في الطوابق العليا". وابتسم ابتسامة عريضة.

تساءلت مستغربة كيف تجري الأمور. فالكثير من القرائن كانوا غرباء تقريباً حتى في بغداد التي يعمل فيها الرجال جنباً إلى جنب، تظل حياتهم الشخصية منفصلة انفصالاً شديداً. أثناء الحرب مع إيران حين كان محظورا على العراقيين السفر إلى الخارج اعتدت أن أكون المرأة الوحيدة على متن الطائرات القادمة إلى البلد والخارجة منها. وفي المطار وأنا في طريقي إلى بيتي في القاهرة كنت أصطف وسط حشد هائل من العمال المصريين بانتظار تفتيش الأمن العراقي المشدد. ذات مرة قام مفتش شاب بالتقليب في حقيبة ملابسي الداخلية وسحب علبة "تامبون". رجّ المحتويات ثم نادى

رئيسه، أفرغ الرجلان العلبة على طاولة التفتيش وتهامسا. في النهاية نظر إليّ المفتش الشاب وهو ممسك بتابونة ملفوفة بالسلوفان أمام النور نظرة اتهام. "ما هذه؟" وحين حاولت أن أخبره بدا محتاراً ثم مشمئزاً. وبالرغم من أنه من المفترض أن يكون قرأ في القرآن أن الطمث "مرض" فأنا لا أعتقد أن أحداً ما قد شرح له الطبيعة الفعلية لدورة المرأة الشهرية.

حتى هذا القرن، كان معظم المسلمين يتزوجون مباشرة بعد سن البلوغ، أما الآن، ومع الاعتراف على نطاق واسع بضرورة النضج في الزواج وبسبب تكاليف العرس فإن معظم المسلمين الشباب يضطرون لتأجيل إيجاد الزوج حتى العشرينات أو بداية الثلاثينات. وإلى أن تتزوج الفتاة المسلمة المؤمنة يفترض بها أو يتوقع منها أن تتجنب التواصل بالعينين مع فتىً غريب. ولا يجوز أن يصل بها الحد لدرجة أن تسلم باليد على رجل ولا أن تخرج إلى موعد أو تقبل أحداً.

وفي بلدان كمصر، حيث شقت النسوة طريقهن إلى سوق العمل أصبح أكثر شيوعاً بالنسبة للشباب أن يلتقوا زوجات المستقبل قبل أن تتدخل العائلة في ذلك. لكن في بلدان عديدة، يتم ترتيب الزيجات بين غرباء. ففي السعودية لم يحصل قبل عام 1981 أن أفتت لجنة من الفقهاء الإسلاميين بجواز التقاء الشابة مع زوج المستقبل سافرةً قبل الزفاف، "أي رجل يحظر على ابنته أو أخته أن تلتقي عريسها وجهاً لوجه سيحاكم بوصفه آثماً مذنباً" ، هذا ما نصت عليه اللجنة. لكن بعض النساء السعوديات يفضلن عدم الاستفادة حتى من هذه النعمة الصغيرة. "فباسلة الحمود"، مديرة المدرسة البالغة الثامنة والثلاثين من عمرها كانت في الواحدة والعشرين عندما أخبرها والدها أنها تلقت عرض زواج. قال: "هل تودين رؤيته؟ هل تودين الجلوس معه؟" قالت: "إن كنت أنت قد جلست معه فهذا يكفيني" لمحت زوجها للمرة الأولى من أحد نوافذ بيتها العلوية حين وصل ليلة زفافهما. "كان يدخل المنزل مع بعض أقاربه، وقع ناظري عليه مباشرةً فدعوت أن يكون هو العريس." آمنت أن لها الحق أن

تثق بأبيها. "من يتمنى لي مثله؟ من يعرفني أفضل منه؟ فإذا نظرنا للأمر على هذا النحو فليس زواجي علاقة بين شخصين فقط بل يشتمل على عائلتي كلها وعائلة زوجي كلها. ولأن الأسرتين معنيتان فإنني سأفكر ألف مرة قبل أن أقول: هل يمكن أن تطلقني؟ ".

لكن بعض الشابات الأخريات لم يكن واثقات. "الزواج بالنسبة لنا مخاطرة حقيقية"، قالت "أرزو مورديان" طالبة لغة انكليزية في الثامنة عشر من عمرها في طهران. "للزوج عليك سلطة عالية لدرجة أنك مجنونة لو تزوجت رجلاً لاتعرفينه تماماً. لكن في ظل النظام الذي لدينا هنا، من المستحيل أن تتوصلي إلى معرفة فتىً ما معرفة تامة. إذ لا يمكنك الخروج معه، لايمكنك أن تقضي الوقت معه وحيدةً."

وما أن تتزوجيه حتى تصبح كلمته قانوناً (شريعة) حسب ما أشار معلق ديني في الإعلام السعودي إلى أحد المراسلين في التاسع من كانون الثاني عام 1993. "في عالم اليوم الليبرالي يفترضون دائماً أن الزوجة لها حقوق مساوية على نحو مطلق لحقوق زوجها"، هذا ما كتبه "نعمه وزهلد" ، الجداوي، "أظن من المستحسن أن يستطيع المرء شرح السلوك الصحيح للزوجة".

لا شك أن "نعمه وزهلد" كان مسروراً بالتوضيح "تُعطى القيادة في الأسرة للزوج". كتب المعلق: "أما مطالبة الزوجة بالمساواة الكاملة التامة مع زوجها فيؤدي إلى وجود سيدين في الأسرة"، هذا ما لا وجود له في الإسلام، وقد أضاف المعلق محدداً، "أن ترفض الذهاب مع زوجها حين يدعوها إلى الفراش خطأ قاتل". وعلاوةً على ذلك "فإن مغادرة البيت أكثر من المعتاد، تعتبر عادة رديئة بالنسبة للمرأة وعليها ألا تغادره إذا كان زوجها يعترض على ذلك"

فإذا ما أفرطت في هذه الأمور ورغبت في أن تفارق بالحسنى، فإن حصول الطلاق تعرقله صعوبات كثيرة بالنسبة للمرأة.

الإسلام عملياً يكره الطلاق وهناك أحاديث منسوبة لمحمد تنص على أن "أبغض الحلال إلى الله الطلاق". ويعرض الإسلام قائمة من المتطلبات الكثيرة التي تقف عائقاً في طريق إنهاء الزواج، بدءاً بأمر يقضي بإحضار محكمين من أسرتي الطرفين ليحاولوا رأب الصدع، وفي الكثير من الدول الإسلامية صرفت السلطات الكثير من طاقاتها على النقاشات الدائرة حول ما إذا كان التحكيم إلزامياً أم مستحباً فحسب، "ما من أحد تقدم وسأل لماذا. سواء أكان إلزامياً أم مستحباً أم أياً كان الأمر لم تتخذ إجراءات عملية للإذعان لهذه الوصية الواضحة"، هذا ما كتبه الفقيه الإسلامي، محمد رشيد رضا، الذي ظل حتى وفاته عام 1935 يتزعم رد الفعل العقلي على انتهاك القيم الغربية لحرمة بلاد المسلمين. وبدأ هو والمعلق الإيراني المؤثر في قضايا المرأة، "مرتضى مطهري"، بإعادة قراءات النصوص القرآنية حول الطلاق، بحيث، إذا اتبعت يمكن أن تؤدي إلى تطبيق قانون أكثر عدالة تجاه المرأة.

لكن حتى الآن فإن فكرة كل من الشيعة وأتباع المذاهب السنية الرئيسة الأربعة قد حافظت على نمط طلاق لايمكن أن تسانده أية قراءة للقرآن إلا القراءات المعقدة. هذا هو الطلاق حين ينطق الزوج بكلمات "طلقت" ثلاثاً. ولا يطلب منه شيء ، أما المرأة فليس لديها ما تقول. من جانبها ليس للمرأة المسلمة حقوق طبيعية في الطلاق وفي بعض البلدان الإسلامية ليس لها حق شرعي به. فالمذهب الحنبلي الذي يتبعه السعوديون لايمنح للمرأة أي وسيلة تقريباً للخلاص من زواج تعيس دون موافقة زوجها. أما الشيعة والسنة من المذهب الحنفي فيجيزون لها أن تنص على حق الطلاق في العقد (صفقة الزواج). ويجيز كل من الفقه الشيعي والحنفي والمالكي تظلم المراة على أرضية عجز الزوج الجنسي، والشيعة والمالكية يجيزون لها أن تتظلم على أرضية فشله في إعالتها، او إصابته بمرض معد غير قابل للشفاء أو الامتهان الذي يهدد حياتها. أما القسوة العقلية والامتهان الجسدي الذي لا يؤدي إلى التشويه أو مجرد التعاسات البسيطة، فنادراً ما تعد أساساً يمكن للمرأة على ضوئه أن تطلب الطلاق.

" أقول لك إنني لا أتمنى أن أقع في الحب أبداً"، قالت الإيرانية الشابة "أريزو" ذلك بفارغ الصبر وهي تعيد تثبيت الخواتم التي ما تنفك تنزلق في إصبعها، "هل تعلمين ما السبب؟ لأن الفتيات حين يقعن في الغرام هنا يفقدن صوابهن. نعم بالطبع يستطعن أن يضعن الشروط كافة في عقد القران لكن من تفعل ذلك؟ فالأمر دائماً يمضي: (آه إني أحبه ولن يؤذيني أبداً). لقد شاهدتهن يخطون بتلك الإبتسامة البلهاء على وجوههن وينزلقن في أكبر مقامرة يمكن أن تتعرضن لها في حياتهن".

وقد تؤتي هذه المقامرة أكلها مع بعض النساء طبعاً، فقد صادف أن أسعد قرينين عرفتهما كانا من أكثر المسلمين الذين قابلتهم في حياتي تشدداً. فخديجة شيعية كويتية شابة تم ترتيب مسألة زواجها. وقد أذعنت للصفقة دون أن تلتقي الخطيب، وكان شرطها الوحيد أنه ينبغي أن يوافق على السماح لها بمتابعة دراستها. وخلال فترة الخطوبة أفلح الاثنان في الالتقاء سراً فوجدا أنهما يحبان بعضهما بعضاً إلى حد كبير.

يشتغل زوج خديجة في تجارة التصدير، ومعظم اعماله مع السوق الايرانية، وحين كان يسافر إلى إيران، كان يأخذ زوجته وأولاده دائماً معه، وكانت فكرتهما عن التسلية الليلية هي الخروج إلى أحد حسينيات طهران ـ مراكز الدراسات الشيعية ـ ليستمعا إلى أحد الملالي الراديكاليين وهو يحاضر حول الثورة الإسلامية. كان الإثنان بالطبع يجلسان منفصلين ـ خديجة في حجابها الأسود الثقيل دائماً في الخلف مع النساء الأخريات حيث لايشتت حضورهن الرجال.

كنت أحياناً أمضي لأطلّ على خديجة في غرفتها بالفندق فأجد زوجها وحده هناك، يرعى الأطفال بينما تمضي هي يومها في المحاضرات في إحدى كليات النساء الإسلاميات، أرضية الغرفة بالفندق كانت دائماً تفرش بملاحف حديثة الغسل كي لا يلتقط الأولاد الذين يلعبون على الأرضية أي جراثيم من السجادة التي ربما مشى عليها الأجانب الذين لا يخلعون أحذيتهم عندما يدخلون الغرف.

حين قررت خديجة أن تعد مشروع التخرج في لندن، قام زوجها مباشرةً بترتيب أعماله ليتمكن من ملازمتها. و لم يظهر أي منهما ، في أي يوم من الأيام، أي ملاطفات جسدية في حضور الغرباء، لكن في النظرات التي كانا يتبادلانها نوع من الجاذبية الشديدة، وفي الكلمات التي كان يقولها أحدهما للآخر دفء جعل حميمية علاقتهما واضحة تماماً. حين سألت خديجة لماذا أعطى زواجهما ثماره في حين تبدو الكثير من العلاقات الزوجية الأخرى خاوية، ابتسمت، "زوجي مسلمٌ صحيحٌ يعرف ما يقوله الإسلام عن العلاقة بين الرجل والمرأة معرفة فعلية ويتصرف على هذا النحو. الأمر بهذه البساطة."

عدت إلى مصر فإذا بمساعدتي (سحر) قد خطبت.

بعد عدة أسابيع من ارتدائها الحجاب وصلت إلي العمل وهي تضج بالخبر، أشرقت وهي تريني صورة خطيبها، كان طبيباً حديث التخرج وهو ابن عمتها. أظهرت الصورة وجهاً فتياً، لطيفاً وحزيناً، عليه اللحية السوداء للمسلم الملتزم.

لسنوات ، كانت سحر تعرف قريبها، إذ كانت غالباً ما تراه في الاجتماعات العائلية لكنها لم تكن تنظر إليه بوصفه عريساً ممكناً. كان في الجامعة نشطاً بين المجموعات الإسلامية مخاطراً بالدخول إلى السجن بسبب آرائه أحياناً حين كانت الحكومة تشدد قبضتها على الأصوليين. "كنت على الدوام أعرف أنه لن يتزوج إلا من فتاة محجبة"، قالت سحر. لم يطلبها من والديها إلا حين رآها محجبة في جلسة عائلية.

ومثله مثل الكثيرين من الاختصاصيين المهنيين المصريين الشباب لم يجد خطيب سحر منصباً مجدياً على الصعيد المادي في مصر لذا وافق على العمل في السعودية. اضطر للعمل هناك عدة أشهر قبل أن يتمكن من تجهيز عروسه. قبل أن تخطب سحر قبل طلبها في جامعة "هارفارد". كان بإمكانها أن تستفيد من فرصة التأجيل في الحصول على مكان في المدرسة العليا التي منحتها إياه، بدلاً من ذلك قلبت الأمور رأساً على عقب،

أوضحت قائلةً أنه من غير المناسب وجود مسلمة ملتزمة لوحدها في مدرسة أمريكية. كانت خطتها الجديدة هي البحث في الدراسات الاسلامية في أحد مدارس النساء المفصولة في العربية السعودية.

وقبل أن يغادر خطيبها العربية السعودية أقامت أسرة سحر حفل خطوبة بهيج. جلست سحر على كرسي العروس المحاطة بالورود وتلقت هدايا المجوهرات التي ستكون جزءاً من المهر من زوجها القادم. قالت فيما بعد: "أرادت عمتي أن أنزع الحجاب من أجل الحفلة. قالت: "يجب أن تبدين جميلة في خطبتك". جلست سحر على الكرسي وشعرها ملفوف بشال من الساتان الأبيض.

لكن سرعان ما تبين أن مناديل سحر لن تكون كافية لإرضاء خطيبها. فبعد وصوله إلى الأجواء الدينية المتشددة في السعودية، كان على الهاتف مع سحر يقترح عليها أن تطول تنانيرها حتى الأرض وترتدي جوارب لكي تستر رؤوس أصابعها الخارجة من الصندل. "أخبرته أنني لست مهيأة لذلك بعد. قلت له بأنني أريد أن أخطو ببطء لأكون واثقة مما أفعله". قالت "لقد شاهدت أخريات ينتقلن مباشرة إلى القفازات وحجب الوجه ثم بعد بضعة أسابيع يكتشفن بأنهن لا يستطعن تحمل ذلك. وأنا لا أريد أن أرتدي شيئاً سأرغب يوماً ما في خلعه". وإذا مرت الشهور بدأت أتساءل عما إذا كان خطيبها ينزلق عميقاً في دنيا الأصولية بحيث لا يعود يعترف بذهن سحر الواسع الأفق بغض النظر عن الطريقة التي تتحجب بها.

في تلك الأثناء بدأ وزنها يزداد تحت ملابسها العديمة الشكل.

ومصعد البناية التي فيها شقتنا كان قديماً جداً حيث يبدو وكأنه من معروضات المتحف المصري، كان يتعطل قدر ما يعمل. بدأت سحر تجد في صعود درجات الطوابق الستة جهداً يتضاعف، كان تغوص في كرسيها وراء الطاولة وهي تتصبب عرقاً وترجوني أن أشغل مكيفات الهواء، حتى في الصباحات اللطيفة، لأن أرديتها جعلتها تشعر بالحرّ، لم تعد تستمتع أبدا

بالمشي معي حين كنا نخرج لكتابة تقرير. سرعان ما كان يتغير شكلها ولا تجتاز أكثر من بناية دون أن تلهث. بدت وكأنها تشيخ أمام ناظري.

كانت المكالمات من العربية السعودية تأتي بأخبار سيئة. فالمركز الطبي الذي وظف خطيبها لا يأتيه مرضى. اضطر أن ينتظر ليرى إن كانت الأمور تتحسن قبل أن يحدد موعد الزفاف. وحين لم يحصل ذلك بدأ يفتش عن عمل أفضل، لكن الشهور مضت دون ان يجده.

وهناك خيبات أخرى. فذات مرة قبل أن تتبنى الحجاب ببضعة أشهر كانت سحر قد أحضرت شريط فيديو عن قران أفضل أصدقائها لتريني إياها، كان تعبيراً عن البذخ النموذجي للطبقة المصرية العليا، فقد أقيم الحفل في هيلتون النيل، والراقصون يثبون الثريات فوق رؤوسهم، والطبالون والزمارون يوقعون الأنغام. وكل فرد قد بالغ في اللباس. أخبرتني سحر بأنها صرفت ستين جنيهاً استرلينياً ـ المرتب الشهري لخادمة مدنية ـ لقاء تصفيف شعرها. شاهدت الشريط وشفتاها ترتعشان وعيناها تتلألآن. ذكرتني تعابير وجهها بابنة أختي البالغة الخامسة من العمر حين كنت أقرأ لها قصص الجنيات. ما كنت لأصدق أن هذه المرأة الرزينة المرتبطة بجامعة "هارفارد" يمكن أن تعجب بهذا العرض المتبجح. لكنها فعلت. قالت "بإذن ا لله سأقيم حفل قران كهذا الحفل تماماً".

لكن يبدو أن ا لله، أو على الأقل خطيبها الورع، كانت لديه أفكارٌ أخرى. فقد قرر أن يكون عرسهما متقشفاً وعلى نطاق ضيق. قالت سحر وهي غير واثقة من نفسها: "أظنه على حق. ففي كل الأعراس الطنانة لا أحد يذكر العروس أو أهلها بالخير. فإن لم يكن العرس طناناً كما يجب يتقولون على بخلها وإن كان باذخاً جداً ينتقدون تبجُّحها". لقد قام عريسها حتى بمهمة شراء فستان العرس. قالت سحر وهي مفعمة بالأمل: "الفساتينُ في العربية السعودية أجمل وأنعم". قد يكن الأمر كذلك، لكنني لم أكفَّ عن التساؤل عن نوع الفستان الذي يمكن لأصوليّ أن يختاره لعروسه.

لا يبدو أن أيّاً من صديقاتي المصريات يمضي وقتاً مريحاً في ايجاد الشريك. أصبحت مباراة أن نرى من ستتزوج أولاً: سحر الأصولية التي رتبت زواجها إلى حد ما، أم صديقتي البعيدة كل البعد عن الأصولية التي رتبوا لها زواجاً. اسمها بالعربية كاسم زهرة جميلة لذا سأطلق عليها "وردة". لم تكن فتاة عادية حتى في معايير عالم الأغنياء النادرين من أبناء القاهرة المشبعين بالثقافة الغربية. وهي مثلها مثل معظم المصريات العازبات تعيش في البيت مع والديها، لكنها، بخلاف معظم الصبايا تقريباً، لديها عملٌ يتطلب منها أن ترتحل بعيداً لوحدها.

في واحدة من رحلاتها هذه وقعت في غرام رجل أمريكي اتخذ من باريس مقراً له. كانت حين التقيت بها غارقة في علاقتها العاطفية هذه. عرض عليها الزواج لكنها رفضت علماً أن الفرع السني للاسلام يتيح للرجال الزواج من الموحِّدات، كالمسيحيات واليهوديات لكنه لا يبيح الشيء نفسه للنساء. ذلك لأن الاسلام يعتمد على خط الأبوة والأطفال من أبٍ غير مسلم هم خسارةٌ للمسلمين. وعشيق وردة نفسه ينحدر من أسرة مسيحية أصولية وقد جادلها بأن اعتناقه للإسلام سوف يؤدي إلى هلاك أمه. وهي من جانبها تعتقد بأن الزواج من مسيحيٍ سيلطخ سمعة عائلتها تماماً. شرحت الأمر قائلة: "لو تزوجته لعشت حياة آثمة، وأنا بكل الأحوال أريد أن أتزوج من مسلم. أريد أن يسمى أبنائي عمرٌ وعبد الله، أريد أن أذهب إلى الشيخ وأقيم حفل عرسٍ راقص على أصوات الطبول. لا أريد أن ننخرط خلسة مع مجموعة من البيروقراطيين الفرنسيين في احتفال مدنيّ بسيط هزيل".

أخيراً أنهى التَزَمُت الدّيني هذه العلاقة. وعلاوة على انكسار القلب تعيش وردة قلق المرأة المصرية التي جاوزت الثلاثين وأشرفت على عالم العنوسة المحتوم. تقول: "مضيت إلى أبي وقلت: حسناً ها أنا أذعن لمشيئتك. كنت دائماً تريد أن ترتب أمر زواجي، فلنرَ ما الذي يمكنك فعله. هاتِ عرسانك.

ثرية، ذكية، جميلة، ذات عينين مثل عيون المها، التي تغزّل بها الشعراء العرب، هذه هي وردة. وباستخدام والديها لشبكة علاقاتهما العائلية الواسعة وصلاتهما التجارية سرعان ما جاؤوها بقائمة طويلة من الخطاب المقترحين. مرت وردة على هذه القائمة بنشاط طيار يتفقد طائرته قبل الإقلاع. أول لقاء لها كان مع طبيب شاب، جاء إلى بيتها مع أبيه وجلس مع وردة ومعظم أفراد العائلة لتناول الشاي. سألته إلى أين سافرت، فقال إلى الاسكندرية والاسماعيلية. الاسكندرية والاسماعيلية!!، وكيف يمكن للمرء أن يصل الثانية والثلاثين من عمره ولا يغادر مصر أبداً؟. أُسرته غنية وكَان بوسعه أن يذهب إلى أي مكان. لا يمكن إطلاقاً أن أُسعد مع شخص لا يحب المغامرة".

بعدً هذا اللقاء رفَضَتْ اللقاءات في البيت. "خلال الخمس دقائق الأولى استطعت أن أتبينَ أن الأمر لا طائل من ورائه، لكنني بقيت جالسة"، وبتهذيبي هذا أضعت فترة العصر كلها". ألحّت على أن تكون اللقاءات المستقبلية في مكاتب المتقدمين للخطبة. "الذين غالباً لم ينجحوا في الاختبار لمدة نصف ساعة". هذا ما نُقل عنها بعد بضعٍ مقابلاتٍ مخيبة. أفلح ابنُ تاجر ثري في اجتياز مقابلته الأولى معها وبدا واعداً، ذهبت وردة في إجازة لمدةً ثلاثة أسابيع بصحبة أهلها إلى لوس أنجلوس، قالت لدى عودتها: "أحببت أمريكا، لكن لم أحب العشاق هناك." كان علي أن أفعل كل شيء حينما يريدني أن أفعله. كان كارثة لو أني لم أحب الفلم الذي يشاهده ولم تعجبه حقيقة أني لا أشرب الكحول. حين عاد إلى البيت في نهاية النهار دعاني لنشرب البيرة. قلت: "أنا سأتناول الكولا وأنت تشرب البيرة ونتشاطر اللحظة معاً. قال: نعم، لكننا لا نتشاطر البيرة. كان الأمر مهزلةً".

في وزارة الخارجية المصرية كان دبلوماسي شاب، يمكن أن يكون عريساً، يعدّ العدة لاستلام منصبه الأول في الخارج. "كان يفترض أن يكون كاملاً" قالت وردة وهي تتنهد بكآبة بعد لقائهما القصير. "كان خفيف الظل ذا شخصية متفتحة، لكن أظافره كانت متسخة".

قلت غير مصدقة: "وردة أتقولين لي أنك حكمت عليه من خلال اتساخ أظافره؟، بحق الله! يمكنك أن تنظفيها دائماً. رفعت رأسها وحدّقت بي تحديقة حزن بعينيها الواسعتين السوداوتين. "أنت يا جيرالدين لا تَفهمين فقد تزوجتي عن حب. وما همٌّ من تتزوجٍ عن حب إن تكن أظافر الحبيب متسخة؟، أما لو كنت ستتزوجين شخصاً ما لا تحبينه فإن كل شيء. أؤكد كل شيء، يجب أن يكون على ما يرام".

أتساءل ما إذا كانت صديقتي الفلسطينية رحاب، تتوقع الكمال من الزواج الذي رتب لها. إن يكن الأمر كذلك فأنا لا أستطيع تخمينه إلاّ من خلال عمق خيبتها.

عاشت رحاب على رابيةٍ غربي مدينة القدس في قرية حجرية، بدت وكأنها سُمّرت بالأرض بواسطة مئذنة مسجدها، للوصول إليها على المرء أن يمرّ برافعات وبلدوزرات نصف دزينة من المستوطنات اليهودية. كان "الكيبوتز" بحقول خضرواته الحديثة التي تتداخل ضمن بساتين العرب القديمة مثل الأصابع أطبقت على رسغٍ، الأقرب في الوادي تماماً. كنت في كل مرة أصل فيها القرية أبحث عن رحاب ومحمد. كانت رحاب شابة بالغة الصغر كلبية المظهر مثل كلب صغير مدلّل، تعمل مصففة شعرٍ تنتقل من بيت إلى بيت مزيِّنَة نساء القرية في الأعراس والمناسبات. وهيَ تحفظ طرفاً من أسرار كل نساء البلدة، كان زوجها محمد صاحب محل متحمس قوي البنية مفتول الساعدين، مزيجٌ من الخصل السوداء الكثيفة والعينين البنيتين المبتسمتين، كان يحب أن يحاول التنكيت بانكليزيته المكسّرة الملونة. كنت غالباً أذهب إلى بيتهم، واصطحبت طوني معي مرتين. تناولنا الطعام معاً ولعبت مع ابنتهم البالغة الرابعة من عمرها. وامتدحت الزرائب التي بنوها "لدجاج منظمة التحرير" الذي سيحررهم من الاعتماد على المنتجات الاسرائيلية.

كنت أنا وطوني نحب التعاطي مع الفلسطينيين. فهم مرحون جهورون. يبدو أنهم يفتقدون الإحساس الطبقي لدى المصريين والتزمُّت الديني لدى عرب الخليج. لكن ما أذهلنا أكثر هو سهولة التعامل بين الرجال والنساء. فالنساء كن في المظاهرات ضد الاحتلال الاسرائيلي، في المستشفيات يعالجن الجرحى، في البيت على الطاولة يجادلنّ بالسياسة مع الأجانب بصوت قوي كصوت الرجال. كان بيت محمد ورحاب على الدوام مليئاً بالأصدقاء من الجنسين، وكنت أنا وطوني محل ترحيب على السواء.

ذات يوم جميل من أيام أواخر الصيف. وصلت القرية وحيدة والتقيت محمد في دكانه، في الشارع الرئيسي الصغير، بدا مستاء شارداً. قال أنه فقدَ صبرهُ منذ زيارتي الأخيرة، لأنه يريد أن يسألني عن أمر هام.

إنه بحاجة لزوجة جديدة. وهو لا يستطيع أن يبوح بخططه لأي فرد في القرية، لأن جيرانه، كمعظم الفلسطينيين هذه الأيام، يعتبرون تعدد الزوجات تخلفاً، بالإضافة إلى أن رحاب إن سمعت بنيَّته ستصاب بالهذيان. فهل أعرف أنا أي امرأة أجنبية تقبل الزواج منه سراً؟. هل يستطيع الحصول على تأشيرة للذهاب إلى الخارج والبحث عن واحدة؟.

قلت: لا. وقد أصابتني أسئلته بالذهول. لا، لا أعرف أية امرأة. والحصول على التأشيرة غاية في الصعوبة إن لم يكن للمرء أقارب في الخارج. بدا أن إجاباتي أغضبت محمد. قال مندهشاً وهو يثب ويجرني من ذراعي إلى وراء الطاولة: "أتحسبينني فقيراً؟، لا، لست كذلك". وبعد أن سحب عدة صناديق مليئة بالبضاعة، وصل إلى نقطة معتمة وخرج وقبضتاه مليئتان بالذهب. ميّزت المجوهرات. خلاخيل مبهرجة وعقود صنعها الجواهريون الهنود لدول الخليج خصوصاً من أجل العرائس. كانت كلها ذهب خالص 22 – 24 قيراط لأن هذا ما يصرّ عليه الشارون العرب. "سأعطي كل هذه المجوهرات لها، كل ما أبغيه هو الحصول على صبيٍ. زوجتي بعد أن أنجبت ابنتنا، ربطوا رحمها وليس بمقدورها أن تنجب طفلاً

آخر. وأنا لا شـيء في هـذه القرية إذا لم يكـن لي ابـن". تحشـرج صوتـه. "أرجوكِ لا بد لك أن تساعديني. هل تجدين لي واحدة".

"عسى أن يجعل الله رحمك يابساً"، هي أقسى اللعنات بالعربيـة، الـتي يمكن للمرء أن يتلفظ بها. رحاب إذاً ملعونة فعـلاً. وليـس ثمـة مـن وسـيلة تمكّن محمد من جمع أموالـه لشـراء كـنزه الذهـبي المخبـوء إلا بالتقتـير علـى عائلته. تصورت القصص الكاذبة التي كان يرويها وهو يحرم زوجته من أي قطعة ترفيه. أربع سنوات في الفاقة عقوبة لانجابها ابنة واحدة.

تذكرت حينئذ أنني لم أسمع رحـاب تُكنّـى أبـداً، النسـاء العربيـات لا يحملن أسماء أزواجهن حين يتزوجن، لكن الرجال والنساء على حـد سـواء يُكنون باسم ابنهم البكر، ويعرفون لدى أصدقائهم بعد ذلـك علـى الـدوام باسم "أم فارس" أو "أبو عزيز" مثـلاً. أمّـا رحـاب العقيـم الآن فلـن تُكنّـى أبداً، ومحمد قد ينال ذلك إن أنجب ابناً من زوجة أخرى.

أدهشني أن المسلمين الذين يُولُون عناية فائقـة لمحاكـات نبيّهـم، ليسـوا راغبين بمحاكاته في أمر أساسي وهو أبوةُ البنات. يعتقد أن محمـد كـان لـه ثلاثة أو أربعة ابناء. اثنان أو ثلاثة من خديجة، وواحد من مريم المصرية. لم يعش أي منهـم بعـد سـن الطفولـة. بالمقـابل ربـى النبي أربـع بنـات، رفـع إحداهن وهي فاطمة إلى مرتبة الكائن البشري الكامل. قال: "فاطمـة مـني، من آذاها آذاني، ومن آذاني آذى الله". وفاطمـة الوحيـدة مـن أبنائـه الـتي عاشت إلى ما بعد وفاته. في تلك الأثناء جاء القرآن برسالة مشوشة حـول الأطفال من الإناث. فهو يأمر بالتوقف عن وأد البنات، وإحدى أكثر آياته شاعرية تأتي على ذكر هذه الممارسة التي كانت شائعة في جزيـرة العـرب، "إذا الشـمس كـورت، وإذا النجـوم انكـدرت، وإذا الجبـال سُـيّرَت، وإذا العشار عُطّلت، وإذا البحارُ سُجّرت، وإذا النفوسُ زوجـت، وإذا المـوؤودة سئلت، بأي ذنب قتلـت، وإذا الصحُـفُ نُشـرت، وإذا السـماء كُشـطت، وإذا الجحيم سُعّرَت، وإذا الجنة أُزلفت، علمت نفس ما أحضرت".

لكن في موضع آخر، وخلال نقاشٍ مع عَبَدة الأصنام في مكة، يسخر القرآن من عبادة المكيين لآلهات ثلاث، يعرفن باسم "بنات الله" ويتساءلُ لماذا لله البنات، في حين أن للرجال السقماء أجمل الأولاد؟.

بدا محمدٌ وهو يدسّ قبضة الذهب في أنفي على حافة البكاء، ولكي أهدِّئ روعه قلت شيئاً عن تدبير تأشيرةٍ خروج له، فارتفعت معنوياته في الحال. قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة: "والآن، لدي شيء آخر سأطلعك عليه".

لقد شَيّد مخبأ خاصاً في أعلى دكانه، يستطيع منه أن يتجسس على دوريات القوات الاسرائيلية. صعدت السلم إلى مخبأه السري وأنا ممتنّة لعودتي إلى ما اعتبرته مكاناً ممتازاً لأخذ التقارير، وداريت اصراره على أن أتمدد على الحصير الرقيق بجوار كوة المراقبة لأتفحَّص منظر الشارع بوضوح. حين تمدد بجواري ليشير إلى علم فلسطيني، قفزت حالاً ونزلت إلى الدكان.

قال أن لديه خبراً آخر لمقالتي. فالإسرائيليون قد فرضوا تقنيناً للمياه، لكن القرية ضللتهم، وذلك باللجوء إلى أقنية قديمة في منطقة رومانية على أطراف البلدة وهو يريد أن يريني إياها. صعدنا إلى شاحنته الصدئة وخرجنا من القرية.

كانت الأقنية مخفية تماماً في قاعدة صفٍ من مدرجات الزيتون المهجورة. وإذا انزلقت إلى الأرض الصخرية، جاء محمد ليساعدني. أثبت يديه بإحكام على فخذي. اعتقدت أنه فعلها بالخطأ، وأنه لم يضع يديه قاصداً، حاولت دون أن أنبسٍ ببنت شفة أن أبعد أصابعه، لكنه دفع يدي بعيداً مشدّداً قبضته متحسساً جسدي بطريقة فظة غامضة. بعدئذٍ أمسك بذراعي أخذٍ بي فجأة في عناق كان أشبه بضمة مصارع. دفعني بضغط جسده للتعثر بجدار من الحجارة القديمة. وإذ أخذ يحس جسده بجسدي لم أعد قادرة على التنفس تحت ثقله، لم أستطع أن ألتقط أنفاسي لأصرخ وما من أحد في هذا الجوار يسمعني لو فعلت، وإذ حررت إحدى ذراعيّ بدأت

بضربه، لكنه بدا غافلاً عن ذلك. أمسك بطرف قميصي محاولاً أن يلمّه عن بطني، كانت يده الأخرى تحاول فكّ بنطلوني. "ينبغي أن تري ما فعلوه بزوجتي - هنا - هنا تماماً - فتحوا بطنها - منظرها غاية في القبح لا أستطيع أن أنظر إليه ولا أرغب بممارسة الجنس مع جسد كجسدها".

فجأةً، جعلت قرقعة الحجارة محمداً يرفع بصره إلى الأعلى، ليشاهد عيني نعجة شاغرتين تحدقان به. كان ثمة قطيع من الأغنام تختط طريقها ببطء عبر المدرج فوقنا. وخلفها، في مكان ما لا بد من وجود صبي قروي يرعاها. ومحمد لا يريده أن يكون شاهداً على ما يجري. وإذ تراخت قبضتاه، بدأت أستعيد توازني وأنا أقفز فوق الرابية المحجرة باتجاه الطريق. لم أره بعد ذلك قط.

لا أدري إن كان محمد قد وجد زوجته الثانية. لكن على بعد أميال، وفي مخيم للاجئين الفلسطينيين تعرفت على أسرة أخرى. سلك الرجل فيها الطريق ذاته وابتاع زوجة جديدة جاء بها إلى منزل زوجته الأولى.

التقيتهم لأول مرة في شتاء عام 1987 بعد اندلاع الانتفاضة الفلسطينية بأسابيع قليلة. كنت أقود سيارتي في طقس ماطر مثلج عصيب حين وقعت كتلة من الاسمنت أمام سيارتي وتشظّت على الواقية الأمامية. انزلقت السيارة مثل السمكة على الاسفلت المبلل بالمطر، وتوقفت على بعد بوصات قليلة من جذع شجرة سرو صخمة، شاهدت في المرآة ألواناً حمراء متدافقة. مجموعة من الفتيان لثموا وجوههم بكوفيات مخططة باللون الأحمر، واقفين على كومة الحجارة عند مدخل المخيم.

قفزت من السيارة وهرعت باتجاههم، حسبوني مستوطنة اسرائيلية مسلحة فتطايروا مثل عصافير مجفلة. ناديت بالعربية:" أرجوكم، أنا لا أحمل مسدساً. أنا صحفية أود التحدث إليكم".

عاد أحد الفتيان إلى أعلى كومة الحجارة. وصاح بانكليزية فصيحة:"ابتعدي من هنا، ثمة أناس في هذا المخيم قد يقتلونك" أصريت

موقفي وطلبت إجراء مقابلة معه. قال:" أنا مشغول الآن ثم نظر إلى لوحة شاحنة عابرة ليرى إن كانت باللون الأصفر لون اللوحات الإسرائيلية، أو بالأخضر، لون اللوحات الفلسطينية ثم تابع قائلاً:" إذا بدأت بهذا الموضوع فلن أتوقف". وإذ اقتربت سيارة (فيات) بلوحة صفراء انحنى كالرامي وقذفها بكتلة اسمنتية على زجاجها الأمامي. سقطت بالقرب من السيارة، قال:" يومي هذا لم يكن يوم سعد علي، لم أستطع أن ألحق الضرر بأي سيارة".

كان عويل صفارة الإنذار معلناً اقتراب الجيش مشيراً إلى أن اليوم قد ينقلب إلى الأسوأ. استدار الفتى، أعطى الأوامر لرفاقه الثلاثة ومضى هارباً إلى المخيم. كانت كوفيته ملفوفة باحكام على وجهه للحيلولة دون التعرف عليه من قبل مخبري المخيم. واستدرت أنا بدوري ومشيت ببطء نازلة الى الشارع الرئيسي في المخيم، تناهى إلى مسمعي صوت جلبة خلفي حين وقفت سيارة جيب اسرائيلية وانزلت الجنود عند مدخل المخيم. بعدما اخترت بضعة بنايات، لمحت ومضة لون أحمر في نافذة مبنى نصف مهدم. إنه الصبي. اصبعه على شفتيه يومئ إلي أن أتبعه.

اختطينا طريقنا متعثرين فوق كوم الحجارة في أحد الأزقة الخلفية إلى أن وصلنا باباً معدنياً ضخماً في جدار اسمنتي. طرق الصبي المعدن برفق ففتح الباب. سحبته أيدي امرأتين من ياقته إلى الداخل. نزعن عنه قميصه وسترته بخفة وغيرن ملابسه. أوضح قائلاً : "يخشين أن يراني أحد بهذه الملابس ثم أردف مقدِّماً صغرى المرأتين وهي تربت على شعره: "هذه رحمة، أمي" ثم التفت إلى المرأة الأخرى. "هذه فاتن، وهي أمي أيضاً. حسناً ليست أي.... معذرة لا أعرف الكلمة الإنكليزية.. لكنها... تزوجت أبي بعد أمي."

قلت: "ضرة". والكلمة العربية مشتقة من "ضرّ" .

قال نعم: "ضرة"

في الخامسة عشرة من عمره، كان الفتى رائد الأكبر بين 14 طفلاً. ولأن السلطات الاسرائيلية أغلقت المدارس، كانوا كلهم في البيت في ذلك اليوم المطير محشورين داخل العش المؤلف من أربع غرف. البرودة ترشح من الأرضيات الاسمنتية العارية ويدلف المطر من السطح المتشقق، وأنوف الصغار جميعاً مصابة بالزكام. خلال السنوات الست التالية كنت أزور العائلة من حين لآخر، أمضي الليل أحياناً بأكمله على حصير رقيقة فرشت على الاسمنت، محشورة بين رحمة وفاتن وأخوات رائد. في حين كان هو واخوته ينامون مع أبيهم، محمود، في غرفة أخرى.

ومن الجلي، نظراً لعدد الأطفال في البيت، فإن ترتيبات النوم لا تكون دائماً على هذا النحو. ولاستحالة إجراء حديث ذي خصوصية في ذلك البيت المزدحم، لم أثر موضوعاً حساساً كهذا مع رحمة أو فاتن، بل سألت صديقة حميمة ذات خلفية مماثلة كيف يمكن للناس في حالات كهذه أن يمارسوا الجنس. وما وصفته لي يستثير الشفقة. قالت: "إن كانت هنالك ثلاث غرف، فللنساء واحدة، وللصبيان واحدة. والزوج والزوجة التي يريد مضاجعتها ينامان في الغرفة الثالثة. لكن بعض البيوت في المخيم لا يوجد فيها ثلاث غرف، لذا يفعلانها بسرعة وبصمت كاتمين أنفاسهما في زاوية آملين أن لا يكون الأطفال مستيقظين. وبالطبع لا يمكن لأي منهما أن يتعرى أبداً".

في البداية زرت المخيم لأكتب عن الانتفاضة. لكن سرعان ما غرقت في قصة رحمة وفاتن. ثمة أغنية شعبية بربرية مؤثرة عن قدوم الزوجة الثانية كانت تخطر ببالي كلما زرتهم.

جاءت الغريبة: وفي البيت لها مكان.
وشمها لا يشبه وشمنا
لكنها فتية، حلوة، كما أرادها زوجي
لا تكفيهما الليالي للغزل
ومنذ جاءتنا لم يعد البيت كما كان

كأنما العتبات قطبت وعبست الجدران
لعلي الوحيدة التي ترى ما جرى
مثل بغل أمام معلفه الفارغ
علي أن أرضى بقسمتي
فزوجي سعيد مع زوجته الجديدة
وأنا بدوري، كنت ذات يوم جميلة، ولكن زمني قد ولّى.

العلاقة بين رحمة وفاتن تبدو للمراقب البعيد وكأنها لا تمت بصلة لهذه الأغنية الحزينة. فالمرأتان تبدوان أشبه بأختين متحابتين وليس ضرتين تتجرعان المرارة. إن طبخت فاتن، تخيط رحمة، وإن خبزت رحمة تعتني فاتن بالعيال. وحين ألقي القبض على رائد بعد أن رمى الجنود الاسرائيليين بقذيفة مولوتوف، كانت فاتن، وليس رحمة، أمه، هي التي ظهرت في المحكمة لتسانده. وحين أخذ محمود أيضاً إلى السجن في أحد الحملات الأمنية الروتينية، اعتمدت المرأتان كل منهما على الأخرى خلال الأشهر الستة الطوال حتى أطلق سراحه. وطوال الأوقات التي قضيتها في بيتهم لم أسمع كلمة نابية بينهما.

رائد هو من علمني أن أنظر بشكل أعمق. قضى رائد خمس سنوات في السجن لدوره في الانتفاضة. حين أطلق سراحه في شباط عام 1993 كان ابن الخامسة عشرة المندفع الذي قذف سيارتي بالحجارة قد أصبح رزيناً في الحادية والعشرين احتفل بحريته الجديدة بالنزهات الطويلة، الطويلة ذهاباً وإياباً على سفوح روابي الضفة الغربية المحجرة. خلال إحدى هذه النزهات توقفنا بضع دقائق نتجاذب أطراف الحديث مع امرأة له معرفة طفيفة بها قال حين ابتعدنا: "حياتها شقاء بشقاء". حكى لي ونحن نتمشى قصة زواجها الخائب، وطلاقها من زوجها في النهاية وعودتها إلى والديها وبقاء أولادها مع والدهم. أضاف على حين غرة: "إنها قصة أمي، باستثناء النهاية"

قصة رحمة بدأت في الأردن عام 1972. وصلت أم أبو رائد إلى هناك مع ابنتها، الموقوفة للزواج من قريب لها في عمان. في الأردن وقعت عين

الأم على رحمة، الشابة المتوردة الخدين التي جعلها صغر حجمها تبدو أصغر من عمرها الحقيقي وهو سبعة عشر عاماً أخذت الفتاة معها إلى البيت لتزوجها لابنها محمود وهو في الخامسة عشرة.

قال رائد: "ما الذي يدركه وهو في الخامسة عشرة؟ كانت بالنسبة له فتاة جيدة، لطيفة. لكن كيف يمكنه أن يحبها؟ لم يكن يعرفها."

خلال عام وُلد رائد. وجاء أخوه مراد بعد عام ونصف. وأختان خلال الأعوام الثلاثة التي تلت. كانت رحمة ما تزال حبلى بابنها الرابع حين اضطرت لمواجهة الحقيقة التي تدور على ألسنة أبناء المخيم كلهم وهي أن محمود واقع في حب فاتن الفتاة الساحرة التي انتقلت مع أقاربها إلى المخيم مؤخراً.

الفرق بين المرأتين صارخ إلى أبعد حد. ففي حين أن رحمة خجولة ورعة، فإن فاتن متفاصحة وسياسية. وحين تكون رحمة هادئة منطوية تكون فاتن ضاحكة مؤكدة حضورها. بدت شخصية فاتن الصبية الطويلة التي تفيض ثقة بنفسها طاغية على شخصية رحمة القصيرة القامة. أخيراً جاء محمود بالخبر اليقين الذي كانت رحمة تخشاه. لقد خطب فاتن وهي قبلته. قال أن رحمة يمكن أن تحصل على الطلاق.

كانت رحمة تعلم أن الطلاق يعني مغادرة الضفة الغربية والعودة إلى الأهل في الأردن. وهذا قد يكون مخرجاً بشكل من الأشكال. خلال ست سنوات تحول محمود الشاب إلى رجل شرس الطباع يجلدها بعنف من حين لآخر هي وابنها رائد الذي أظهر وهو ما يزال طفلاً، بوادر شجاعة عنيدة. كان العيش معه حتى كزوجة وحيدة فيه ما يكفي من القسوة، فكيف يمكنها تصور الصعوبات والخزي الأمرّ والأدهى والذي سيأتي من إهمالها بسبب امرأة يحبها فعلاً.

لكنها حين نظرت إلى محمود وأعطته ردها لم يكن الرد الذي توقع أن يسمعه. قالت بهدوء: "لا أريد أن أطلقك". في ظل الشريعة الإسلامية،

الطلاق يعني ترك أبنائها ليترعرعوا في كنف محمود وزوجته الجديدة. قالت: "أريد أن أربي أطفالي هل تسمح لي بذلك؟"

كان محمود سيء الطبع أنانياً، لكنه لم يكن قاسياً لدرجة أن يرغم رحمة على ترك أطفالها. إنها إن أرادت البقاء فإنه سيستمر في إعالتها. لكن عليها أن ترضى بأن تكون زوجته بالاسم فقط. ورغم أن القرآن ينص صراحة بأن على الرجل أن يعامل زوجاته على السواء، فإن محمود أعلن صراحة بأن فاتن، وفاتن وحدها، هي التي ينجذب إليها جنسياً. وباختيارها البقاء تكون رحمة ابنة الثالثة والعشرين، قد اختارت العزوبية في بيت مزدحم جنباً إلى جنب مع امرأة يشعر زوجها بانجذاب غريزي عميق نحوها، وقد أوضح محمود أنه سينحو باللائمة على رحمة إذا شابت العلاقة بين المرأتين شائبة غير الود والأمان.

غصت رحمة بدموعها ووافقت على شروط محمود. بعد بضعة أسابيع ارتدت فستانها المطرز ورقصت على ايقاع الطبول في عرس زوجها.

حين عدنا إلى البيت، لقيت نفسي فجأة أرى كل شيء على نحو مختلف. كانت رحمة في الزاوية تؤدي صلاة الظهر وفاتن تقهقه ضاحكة مع محمود. كانت فاتن حاملاً بابنها الحادي عشر تنعم باعتزاز محمود الجلي بها.

بدأ الاستياء يظهر على رائد. وبما أن أعمال أبيه في مواقع البناء لم تكن منتظمة، اضطر رائد لأن يعمل أربعة عشر ساعة يومياً في مصنع للأحذية ليسد رمق العائلة. قال ممتعضاً: "غباء. لا يستطيع أن يعيل الأطفال الذين عنده ومع ذلك ينجب المزيد"

كانت فاتن ترضع طفلاً حين قابلتها لأول مرة عام 1987، وبينما كنت أتحدث مع رائد عن الانتفاضة، كانت تجلس في أحد زوايا الغرفة والطفل على صدرها. تدخلت في الحديث مقاطعة مرة واحدة حين تلعثم رائد بكلمة "سلام" بالإنكليزية. كنت قد سألته عما إذا كان الفلسطينيون في المخيم مستعدين لقبول السلام مع اسرائيل. وحين تعثر بلفظ الكلمة

جربت استخدام الكلمة العربية فصاحت فاتن فجأة "لا سلام"، لا سلام إن أبناء هذا المخيم يريدون الحرب! حينها فكرت بأن فاتن خصم رهيب إذا استُفزت.

حالات الحمل العديدة انتزعت من فاتن زهوة صباها. أرتني الفجوات في فمها بسبب الأسنان التي تساقطت خلال حملها الأخير. مع ذلك بدت مستعدة لدفع هذا الثمن لتحافظ على رضى زوجها ولتؤكد اختلاف مكانتها عن مكانة رحمة.

قال رائد: "أمي لا تريد من الدنيا سوانا"، وما أن تنهي أخواتي دراستهن وأتمكن أنا من إعالتهن حتى لا تعود مضطرة للرضوخ لهذه الحالة أكثر".

مع ذلك تساءلت ما إذا كانت الروابط المعقدة في العائلة يمكن أن تتقطع بهذه السهولة. فرائد نفسه قال أنه لا يفرق بين أخوته وأشقائه. أحبهم جميعاً، وشعر بأنه مسؤول عن حمايتهم من والدهم الشهواني. وحتى مشاعره تجاه فاتن كانت مركبة. قال: "لا أستطيع القول بأني أكره هذه المرأة. أكرهها فقط لأنها السبب في معاناة أمي وليس لشخصها بالذات".

في لحظة خاصة نادرة، حين حاولت أن أسأل رحمة عن مشاعرها تكسرت على وجهها ابتسامة مبهمة. أمسكت يدي بيديها المتفلعتين وهمست ببساطة قائلة: "كما اراد ا لله". ثم ذهبت للوضوء وإقامة الصلاة غافلة عن الحياة الصاخبة لأهل البيت حولها. وبعد بضع دقائق، إثر الانتهاء من الصلاة، سجدت واضعة رأسها على الأرض.

دينها قبل كل شيء هو الاسلام ـ الخضوع. تهيأ لي أن شرائعه تتطلب منها الخضوع إلى حد كبير.

الفصل الرابع

نساء النبي

"يانساء النبي، لستن كأحد من النساء"

الاحزاب 33:32

كانت تلعب بأرجوحتها عندما نادتها أمها. وحين لاحظت وجهها المتسخ أخذت قليلاً من الماء ومسحت به السخام. تركتها الأرجوحة متقطعة الأنفاس، لذا وقفت الاثنتان بضع دقائق عند باب المنزل حتى استعادت حالتها الطبيعية.

في الداخل كان والدها وأصدقاؤه ينتظرون. وضعتها أمها في حضن أحدهم ثم نهض الجميع وغادروا الحجرة.

كانت عائشة في التاسعة من عمرها وفي ذلك اليوم تم تزويجها للنبي محمد الذي كان قد تجاوز الخمسين من عمره. بعد عشر سنوات أخرى مات بين ذراعيها.

إن تسأل المسلمين السُّنة هذه الأيام عن عائشة، سيخبرونك أنها كانت حب النبي الكبير في أواخر أيام حياته. فهي فقيهة الاسلام المتبحرة، بطلة المعركة. أما إن تسأل الشيعة فسيصفونها بالمتآمرة الغيور التي دمرت

السلام المنزلي للنبي، والتي حاكت المؤامرات ضد ابنتـه فاطمـة، وتجسست على بيت النبي وتسببت بإهراق الدماء المأساوي الذي ترك الأمة الاسلامية ممزقة إلى الأبد.

عائشة - تعني في العربية (الحياة) - هي واحدة من أكثر اسماء الفتيات شيوعاً في دنيا المسلمين السنة لكنه بين الشيعة مصطلح يدعو للسخط والظلم. حين تسيء فتاة شيعية التصرف فمن المرجح أن توبخها أمها صارخة بها "يا عائشة".

مضت عائشة لتعيش مع محمد عام 622 ميلادية - العام الأول للهجرة بالتقويم الاسلامي. بعد ألف وثلاثمائة وستة وستين عاماً من هذا التاريخ أوقف صحفي من برنامج "أهلاً صباح الخير" في إذاعة إيران الوطنية امرأة في شارع من شوارع طهران وسألها من برأيها أفضل نموذج للمرأة، أجابت: "أوشين بطلة المسرحية التلفزيونية اليابانية التي تغلبت على كافة المصاعب بالهزء من التقاليد اليابانية الرصينة" . سأل الصحفي المرأة لماذا لم تذكري واحدة من نساء النبي أو بناته بوصفها مثالها. أجابت المرأة أن هؤلاء النسوة ينتمين إلى حقبة بعيدة جداً ليست لها صلة بحياتنا المعاصرة. آية الله الخميني الذي كان يستمع إلى المذياع استشاط غيظاً وطالب بطرد مخرجي البرنامج لكنه تراجع عن قراره عندما أثبتت التحقيقات أن المنتجين لم يتصرفوا للنيل من مكانة أحد.

وفجأة ألفيت نفسي اتفق مع الخميني تقريباً. فمما لاشك فيه ان ثمة صلة وثيقة بين حياة نساء النبي وبناته وبين النساء المسلمات المعاصرات. ومعظم آيات القرآن حول النساء كانت تنزل على محمد مباشرة بعد أحداث تجري في بيته. ومثلهن مثل نساء المسلمين المعاصرات كان عليهن أن يتغلبن على الغيرة الناشئة من تعدد الزوجات، وجروح الحرب، وقساوة الفاقة، ومسائل الحجاب والانغلاق.

وبرأيي فإن وصف الحياة الحميم في الحديث النبوي في مقصورات حول مسجد محمد كانت أفضل من أي مسرحية تلفزيونية معاصرة. لم

أستطع الحصول على ما يكفي من قصص الخداع تلك والجدالات والبطولات. عائشة كانت دون شك هي النجمة، لكن النساء السبع أو الثمان الأخريات كن يحكن المؤامرات الثانوية.

حين ماتت زوجة محمد الأولى خديجة عام 619 ميلادية انفطر قلب النبي الذي كان حينها في التاسعة والأربعين من عمره، اعتقدت الجماعة الاسلامية وخصوصاً النساء اللواتي كن يطبخن ويعتنين بمحمد أن امرأة جديدة قد تخفف عنه حزنه. بعد موت خديجة ببضعة أشهر اقترحت خولة عمة النبي على ابن أخيها أن يتزوج ثانية.

سألها النبي:" وبمن سأتزوج يا خولة؟ أنتن النساء أدرى بهذه الأمور".

أجابته خولة أنه إن كان يريد عذراء فعليه بعائشة الابنة الجميلة لصديقه المفضل أبي بكر، وإن كان يريدها ثيباً فهناك الأرملة "سوداء"، امرأة أكبر سناً كانت من أوائل المهتدين إلى الاسلام والتابعين له بإحسان.

قال لها محمد:"هيا كلميهما كلتيهما".

تزوج سوداء وعائشة بفاصل قصير جداً. لكن بما أن عائشة كانت في السادسة من عمرها حينئذ فإنه لم يبن بها، بل ظلت مع أسرتها. مامن أحد أخبر الفتاة الصغيرة بتغير حالتها. لكن عندما بدأت أمها فجأة تحد من لعبها تذكرت عائشة فيما بعد قائلة: "أحسست أنني متزوجة".

حين ذهبت لتعيش مع محمد كان المسلمون قد فروا من الاضطهاد في مكة وأسسوا مجتمعاً في المنفى في المدينة. عاش محمد في المسجد الذي شيدوه هناك ـ وهو مبنى متواضع من اللبن الرمادي مسقوف بسعف النخيل ـ كان لكل من عائشة وسوداء حجرة، حين انتقلت عائشة إلى حجرتها جلبت معها ألعابها كان محمد يجدها أحياناً وهي تلعب بها. يسألها: "ماهذه"، فتجيبه:"خيول سليمان" أو "دماي" وحين كانت رفيقاتها يهربن خوفاً منه كان يناديهن ويشاركهن لعبهن أحياناً.

كان محمد ـ حسب الكثير من الأوصاف الجسدية المفصلة ـ رجلاً وسيماً، متوسط الطول، ذا شعر أسود متموج، له لحية كاملة، وعينان

سوداوان ذات رموش كثيفة وابتسامة متألقة تتكشف عن فجوة بين أسنانه الأمامية، كان شديد التدقيق والعناية بعرائسه، يعطر لحيته وينظف أسنانه خمس مرات في اليوم على الأقل، الملامح الوحيدة التي لم تكن جذابة فيه هي قابلية عينيه للاحتقان بالدم وعرق نافر في صدغه والذي يقال أنه كان يظهر بشكل جلي في حالات الغضب.

خلال سنة أو سنتين من دخوله بعائشة، تزوج محمد ثلاث نساء أخريات، كلهن أرامل حرب: حفصة، ابنة صديقه المقرب عمر البالغة من العمر عشرين عاماً، وامرأة أكبر هي زينب التي أكسبها سخاؤها اسم "أم الفقراء" والتي ماتت بعد ثمانية أشهر تماماً. وأم سلمة إحدى الجميلات الشهيرات التي سبب قدومها أول صدمة غيرة لعائشة، التي ظلت تؤرقها بقية حياتها، حين علمت عائشة بزواجه من أم سلمة قالت أنها حزنت حزناً شديداً بعد أن سمعت الكثير عن جمالها. استدعت الزوجة الجديدة فوجدتها أجمل وأرشق مما وصفت بمرتين.

حاول محمد أن يسير وفق تعاليم القرآن القاضية بأن على الرجل أن يعامل كل نسائه على قدم المساواة، وكان يرى كل واحدة منهن عصر كل يوم، في لقاء خاص مختصر، لكنه كان يتناول عشاءه ويقضي الليل مع واحدة منهن كل يوم في دورة صارمة. هذا التنظيم لم يعجب عائشة، سألته ذات يوم: "قل لي لو صادفت جملين أحدهما شبع من الكلأ والآخر لم يشبع فأيهما تطعم؟ ". أجاب محمد أنه بالطبع سيطعم ذاك الذي لم يأكل. ردت عائشة: "أنا لست كبقية نسائك وكلهن كن متزوجات سابقاً إلا أنا."

وحين كان محمد يريد أحياناً أن يمضي بعض الوقت مع زوجة خارج دورها كان يطلب إذناً من الزوجة التي دورها في ذاك "اليوم". وسرعان ما أدرك أن من الأفضل ألا يطلب من عائشة التخلي عن دورها، إذ إنها كانت ترفض ذلك دائماً، وكانت تصر على زيارتها المبرمجة. وبسبب إحساسها باحتياجات الفتاة الشابة وربما نزولاً عند رغبة النبي تخلت سوداء

المسنة نهائياً عن دورها لعائشة، لكن سرعان ما بدد وصول عدة زوجات أخريات تركيز النبي.

يناقش المسلمون أن زيجات محمد المتعددة في السنوات العشر الأخيرة هي انعكاس لانتشار الإسلام الواسع وحاجته لبناء التحالفات مع القبائل المختلفة . وفي أوقات أخرى يقولون إن خياراته كانت تعكس شفقةً على الأرامل المحتاجات. وما دامت النساء دائماً يفقن الرجال عدداً في المجتمعات المحاربة فهم يجادلون أنه من الأفضل بكل تأكيد على المرأة أن تشارك امرأة أخرى في الزوج من أن تبقى دون رجل طوال حياتها. وهم يقولون أن محمداً كان يضرب المثل بزواجه من الأرامل وعنايته بهن. أما غير المسلمين، خاصةً أولئك الذين يوجهون النقد العدائي للإسلام فلهم وجهة نظر مختلفة. يقولون إن محمداً كان شهوانياً، مكنته سلطته المتعاظمة وشخصيته المتألقة من أن ينغمس في شهواته بعد موت زوجه الأولى التي كانت ترعاه.

يبدو أن هؤلاء النقاد كانوا يتغاضون عن تقشف بيت النبي، فحجرات المسجد المبنية من الطوب لم تكن مكاناً مناسباً لشهواني، وحتى بعد أن أصبح المسلمون أثرياء بسبب غنائم انتصاراتهم العسكرية، استمر محمد يعيش عيش البساطة ويصر على أن تفعل نساؤه الشيء نفسه. إن الفاقة التي أرغم أهل بيته عليها أصبحت مصدراً للكثير من المشاحنات بين محمد وأزواجه.

لكن نظرة التقى، التي تقول إن محمداً تزوج بالأرامل المحتاجات، بوصفه مصلحاً اجتماعياً ليست مقنعة بوجه مطلق. فهناك حديث على الأقل يشير أن محمداً يعلم أن تعدد الزوجات مدمر للنساء. فحين فكر صهره علي باتخاذ زوجة ثانية عبّر محمد عن اهتمامه بمشاعر ابنته فاطمة "ما يؤذيها يؤذيني" هذا ما قاله لعلي الذي تخلى عن فكرة الزواج الثاني. (أما الشيعة الذين يجلّون علياً وفاطمة فلا يعتدون بهذا الحديث، وهم يجادلون أن محمداً لا يمكن أن ينتقد ممارسةً أعلن القرآن شرعيتها). ليست كل

أزواج محمد حالات تعاطف أو صفقات سياسية، فأم سلمة الجميلة لم تكن محتاجة بالتأكيد وقد أحبت زوجها الأول وكانت مصممة على عدم الزواج ثانية، كانت قد رفضت خطاباً أكفاء حين بدأ محمد يتعقبها، وردته على الأقل ثلاث مرات قائلةً: "أنا امرأة غيورة جداً وأنت يا رسول الله تسعى لمزيد من النساء". قالت ذلك في معرض اعتذارها لرفضها طلبه. رد محمد: "سأدعو الله أن يقتلع الغيرة من صدرك". ويبدو أنه بالرغم من محاولاته إظهار اهتماماته بالجمال، فإن المجتمع برمته قد أدرك أن عائشة هي زوجه المفضلة. فالمسلمون الذين أرادوا أن يرسلوا هدية من طعام كانوا يوقتون هداياهم للأيام التي يعرفون أنه يمضيها في حجرعائشة، ولأن محمداً كان يعيش حياة التواضع فإن هذه الهدايا كان تزود أهل بيته بالولائم المترفة. فأم سلمة مثلاً عبرت عن استيائها المرير بسبب تفضيله الواضح لعائشة: "أرى أننا نحن البقية مثل لا شيء". قالت ذلك حين دخلت سلة من أطايب الطعام في يوم عائشة. وحين استشاطت غيظاً هبت إلى فاطمة بنت محمد لتشكو إليها.

لا بد أن زواج محمد من طفلة تصغر فاطمة بعامين تماماً كان أمراً مريراً إثر وفاة أمها، وزواجها هي من علي ابن عم محمد قد رتب مباشرة بعد دخوله بعائشة. وسواء أكان للأمر جذور في مشاجرات الطفولة أم في التنافس ما بين علي زوج فاطمة وأبي بكر والد عائشة على خلافة محمد الرئيسة، فإن عداوة مريرة نشأت بين فاطمة وعائشة تم التعبير عنها في نهاية المطاف بالانقسام الشيعي ـ السني الذي مزق الإسلام.

فأمزجة الشابتين كانت مختلفة اختلافاً تاماً. كانت فاطمة خجولة متفانية أما عائشة فكانت جريئة فطنة. وقد عرفت أم سلمة أين تبحث عن حلفائها ضد عائشة، فقد وعدت فاطمة أم سلمة أن تكلم أباها في مسألة تحيزه، وكان رد محمد لاذعاً : "أي بنيتي، ألا تحبين من أحب؟ " أجابته: "بلى بالتأكيد" وحين تابعت طرح قضيتها قاطعها محمد وقال: "عائشة هي الأحب إلى قلب أبيك". واشترك علي في الجدال لائماً محمداً لاستخفافه

بابنته بقوله إنه يحب عائشة أكثر من سواها ولا بد أن مرارة الجدال بقيت قائمة لأن محمداً أمر بعد ذلك بفترة وجيزة بإحكام إغلاق الباب بين حجرات أزواجه بحجة علي وفاطمة. (ينكر الشيعة حدوث هذا التغيير في نصوصهم، فهم يقولون أن محمداً رفع فاطمة إلى مصاف "حورية بشرية" أو كائن مقدس تقريبا.)

حاولت عائشة أن تقلل من شكاوى منافساتها بهرج طفولي، لاحظت أحد الأيام أن محمداً أطال مكوثه أكثر من المعتاد في زيارة مسائية لإحدى منافساتها متلذذاً بشراب من العسل، شرابه المفضل، فقامت عائشة بجمع بعض الزوجات الأخريات، واخترعت مزحة عملية وحين توقف عند حجرة كل امرأة كانت كل منهن تتظاهر بالضيق من رائحته، مما سبب الضيق والاضطراب لمحمد الشديد العناية بشخصه فقال: "لم أتناول سوى العسل" فتمتمت النسوة قائلات أن النحل الذي صنع هذا العسل لابد أنه قد تغذى على رحيق نبات كريه الرائحة. بعد ذلك كان محمد يرفض العسل حين يقدم له إلى أن أفصحت سوداء الأكثر نضجاً بينهن لعائشة أن المزحة قد أدت ثمارها وأن النبي قد حرم نفسه من أحد ملذاته القليلة.

وذات مرة حالت عائشة والمتآمرات معها فعلياً بين محمد وإحدى محاولاته إضافة زوجة أخرى لحريمه المتزايدات العدد، فقد كانت عائشة شديدة الاضطراب حين وصلت أسماء، الابنة الجميلة لأحد الأمراء في موكب أنيق لتتزوج بمحمد. تظاهرت عائشة وحفصة بتقديم العون وتطوعتا لمساعدة الشابة في ارتداء ملابس زفافها، وإذ كن يدرن حولها بدأن يذعن أسراراً عما يحبه محمد ويكرهه، نصحتاها أنه سيهتم بها إن هي تظاهرت بالتمنع. وحين جاء موعد إتمام الزواج نصحتها بأن ترتد عن عناق النبي وتقول: "أعوذ با لله منك".

ارتعد النبي من فكرة أنه ابتلى بامرأة متمنعة وسرعان ما طلب من أسماء ألا تجزع وأنه سيطلب موكبها في الحال ويعيدها إلى بيتها آمنة. مضت أسماء مدمرة تشكو بمرارة أنها كانت ضحية خدعة.

كانت الزيجات المتعددات تغذي المنافسات الثانوية وتضاف إلى الضغينة بين علي وأبي بكر التي حددت مستقبل الإسلام السياسي. بل وبدأت أيضاً تصوغ أحكام الدين الجديد فقد بدت الأعداد المتزايدة من الآيات المقدسة حول المرأة متأثرة أكثر فأكثر بالحاجة إلى تحقيق الوئام في أهل بيته. أما عائشة من ناحيتها فلم تكن تخشى الإشارة إلى هذه التوافقية بين هذه الآيات وأزمات بيته، حيث قالت مرة بنبرة لاذعة: "يبدو لي أن ربك يسرع في تلبية رغباتك".

كان خير تعبير عن هذه التوافقية هو الآية التي تقضي أن الأبناء بالتبني لا يعتبرون أقارب دم. نزلت هذه الآية بعد أن رمق محمد زينب، زوجة زيد المعتوق والذي تبناه محمد واعتبره ابناً له، بنظرة خاطفة. صدم المجتمع لتطليق زيد لزينب ونية محمد الزواج منها، الأمر الذي جعل الناس يهزؤون من تحريم زواج الأب من زوجة ابنه. كان محمد مع عائشة عندما تلقى الآية التي تقول أن المسلمين يخطئون في اعتبارهم أن التبني يخلق نفس الروابط التي تخلقها قرابة الدم. وفي هذا الصدد يقول القرآن أن على المسلمين أن يعلنوا أبوتهم الحقيقية لأي أطفال يربونهم وتختتم الآية القول أن الله قد قضى بزواج محمد من زينب لكي يكشف للمسلمين خطأ اعتقاداتهم السابقة. وحين انتقلت زينب إلى المسجد كان بمقدورها أن تغيظ عائشة بادعائها أن زواجها من الرسول تم بأمر الله.

نزلت الآية التي تقضي بعزل نساء النبي ليلة عرس زينب. ولإحساسه بالمشاعر السلبية التي ولدتها الصفقة، دعى محمد الكثير من الضيوف إلى وليمة عرسه. ظل ثلاثة من هؤلاء الضيوف فترة طويلة بعد الوليمة، متشاغلين بالحديث ومتجاهلين عن عمد لهفة النبي للانفراد بعروسه الجديدة. وبينما كانت زينب تجلس ساكنة في إحدى الزوايا تنتظر رحيل

الضيوف، خرج محمد من الحجرة وطاف في فناء المسجد. عرج على عائشة التي سألته بلطف عن حال صاحبته الجديدة . أسر إليها محمد أن الفرصة لم تتح له بعد ليعاشرها، وتجول ليلقي نظرة على كل زوجة من زوجاته قبل أن يعود إلى حجرة وليمة العرس. ما أثار سخطه أن الضيوف كانوا ما يزالون هناك. عاد مغتاظاً إلى غرفة عائشة وجلس معها إلى أن جاء من يخبره أن الضيوف المضجرين قد رحلوا.

رافق أنس بن مالك، الصحابي الذي شهد الحادثة كاملةً، محمد في طريق عودته إلى الحجرة الزوجية. وما أن وضع محمد قدميه في الحجرة حتى أنزل ستارة بينه وبين أنس وبفعله ذلك بدأ يتلو بالصوت الذي اعتاد أن يتلو به الآيات القرآنية ﴿ يأأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي، إلا أن يؤذن لكم﴾[9]. هذه الكلمات مكتوبة حالياً في القرآن بوصفها كلمات الله ومن الجلي أن آية كهذه يقرؤها المسلمون المؤمنون وغير المسلمين بطريقة مختلفة جداً. فبالنسبة لغير المؤمنين يصعب عليهم أن يتصوروا الله وقد تكلف عناء تدبير أمور آداب المعاشرة بوصفها ضرباً من ضروب السلوك السماوي. أما بالنسبة للمسلمين فهم لا يرون شيئاً خارقاً في تدخل الله في موقف جعل نبيه في حالة غير مريحة وغير واثق مما يفعله في السنوات الأخيرة من عمر محمد.

ومع الاتساع السريع للمجتمع تطلب الأمر الكثير من القضايا الجديدة الصغيرة منها والكبيرة. لذا فالآيات المدينية هي في الغالب الأعم أقل شاعرية وأكثر تحديداً من التعبيرات البليغة للآيات المكية، وغالباً ما كانت تنزل كاستجابة مباشرة للمآزق الجديدة التي كانت تواجه المجتمع.

لكن المحير هو لماذا نزلت آيات العزل هنا وبهذا الوضوح مع تعليمات تنطبق فقط على النبي والتي أصبحت منذ ذلك الحين بمثابة قاعدة يفرض تطبيقها على نساء المسلمين كافة .

---

9 سورة الاحزاب 33:53.

كانت هذه القاعدة مقتصرة بالتأكيد على زوجات النبي أثناء حياته. وقد غيرت مجرى حياتهن تماماً، فقد أمر محمد عائشة أن تقوم بالوعظ الديني أثناء غيابه، طالباً من المسلمين "خذوا نصف دينكم من هذه المرأة"، لكن بعد آية العزل لم تعد تختلط بحرية مع زوار المسجد. وبعض الزوجات كسوداء التي ذاع صيتها بالأعمال الجلدية الجميلة، كانت تعمل لتسهم في ميزانية البيت. بل وكن يخرجن إلى المعارك جنباً إلى جنب مع محمد مشمرات جلابيبهن وهن يحملن الماء أو يعتنين بالجرحى. حتى فاطمة قد نزلت إلى ساح المعركة وضمدت ذات مرة جرحاً نازفاً برأس أبيها بوضع الرماد عليه، وهو علاج شعبي شهد على مهارتها في التمريض.

بعد العزل كان محمد يأخذ واحدة أو اثنتين من أزواجه في حملاته كشريكات جنس فقط. مقترعاً على إحداهن. حدث أن وجدت عائشة نفسها بعد إحدى هذه المعارك تواجه أكبر تهمة في حياتها الزوجية، فحين انتفض المخيم عند الفجر، مضت عائشة مبتعدة في الصحراء لتتغوط قبل النفير، ولدى عودتها إلى المخيم تبين أنها أسقطت عقداً من اليشب، وراحت تقتفي آثار خطاها بحثاً عنه، في تلك الأثناء اكتشفت أن الرجال قد قادوا الجمل الذي يحمل هودجها المستور معتقدين أنها في داخله. جلست على الرمل بفارغ الصبر بانتظار من ينقذها. بعد بضع ساعات أخرى وجدها جندي شاب يدعى صفوان وحيدةً وحملها على جمله عائداً بها إلى المدينة.

أثار وصولها مع هذا الشاب الوسيم فضيحةً، انتهز علي زوج فاطمة الفرصة لإذكاء شكوك محمد المتزايدة بأخلاق عائشة. وحين كبرت الفضيحة غادرت عائشة مقصورتها في المسجد وعادت إلى والديها، اللذين بديا مستعدين لاتهامها مثل الآخرين، مكللةً بالعار. ظلت الشائعة رائجة شهراً كاملاً.

أخيراً تلقى محمد آية تبرئها

صاح: "بشراك يا عائشة إن الله يبرئك"

حضها والداها قائلين: "اذهبي وامضي إلى محمد"

قالت الشابة ذات الشخصية القوية: "لن أذهب إليه ولن أشكره، ولن أشكركما كلاكما لإصغائكما للإفك وعدم إنكاره، سأنهض وأقدم الشكر لله وحده".

وما أصبح يعرف باسم "حادثة الإفك" وجدت طريقها إلى القرآن فالله يسأل المؤمنين، لماذا حين سمعوا الشائعات على عائشة "لماذا لم يشكل المؤمنون والمؤمنات رأياً خيراً في أذهانهم ويقولوا هذا كذب مبين؟ لماذا لم يحضروا أربعة شهود لإثبات الواقعة". ومنذ تلك الحادثة، أصبح الإسلام يتطلب أربعة شهود في تهمة الزنى: ﴿الزانية والزاني فاجلدواكل واحد منهما مائة جلدة﴾[10] ، و﴿الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلودهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾[11]

في العامين الذين تليا زواج محمد الإشكالي من زينب، كسب محمد خمس نساء جديدات، منهن يهوديتان ومسيحية وقبطية (هناك خلاف في الرأي حول ما إذا كان قد تزوج هؤلاء النسوة ثلاثتهن أو احتفظ بواحدة أو اثنتين منهن بوصفهن جواري). أصبحت مريم القبطية محور غيرة الحريم الحادة حين أنجبت لمحمد ابناً (مات الصبي في طفولته) خاصة عائشة التي لم تكن قادرة على الحمل والتي انفطر قلبها. إحدى المرات شكت للنبي أنها لا تُكنى "أي لا تلقب باسم ابن لها" أسوة بكل النسوة الأخريات اللائي يُكنين بأبنائهن الذين ولدوا لهن من أزواجهن السابقين. وعائشة مثلها مثل رحاب الفلسطينية في أيامنا هذه شعرت بفقدان التميز. طلب منها محمد أن تكني نفسها أم عبد الله تيمناً باسم ابن أختها التي كانت قريبةً جداً منها.

---

10 ـ سورة النور 24:2.

11 سورة النور 24:4.

لا بد أن عائشة قد أدركت أن مريم وابنها منافسان خطيران لجذب انتباه محمد وبالتأكيد كان اكتشاف معاشرة محمد لمريم في حجرة حفصة في يوم عائشة سبباً في إثارة القلاقل.

وذيول هذه المشكلة مقرونة بالنكد المتأتي من تذمر النساء من الفقر الطاحن مما دفع محمد الى الانسحاب من بين الحريم والإقامة منفرداً مدة شهر تقريباً. خشيت الجماعة أن يطلق كل أزواجه ضارباً كل تحالفاته التي صاغها بمنتهى الدقة.

أخيراً عاد من معتزله وعرض على كل من أزواجه إنذاراً أُوحي له به: يمكنهن أن يطلقنهن وينلن زينة الدنيا أو البقاء معه، على سنة الله، شرط ألا يتزوجن ثانية بعد موته ومقابل ذلك سيعرفن إلى الأبد بأمهات المؤمنين وينلن الجزاء العميم في الآخرة. وقد اخترن جميعا البقاء.

من الخطأ أن نصور حياة محمد البيتية بوصفها غيرةً ومكائد ليس إلا، فالحديث يسجل لنا لحظاتٍ من الحنان العظيم في الحجرات الصغيرة حول المسجد. ذات يومٍ بينما كان محمد وعائشة يجلسان معاً جلسة إلفةٍ، هي تغزل وهو يصلح خفاً، فجأةً انتبهت عائشة إلى أنه يحدق بها ووجهه عامر بتعابير المحبة. فجأة نهض وقبلها على جبينها وقال ما معناه: آهٍ يا عائشة، ليجزك الله خيراً. أنا لست مصدر بهجة لك مثلما أنت مصدر بهجة لي".

ويذكر حديث آخر حادثة جدال عدد من أزواج محمد معه حول ميزانية البيت. وبينما كان الجدال حامي الوطيس دخل الحجرة عمرٌ، صاحب محمد الصارم وأبو حفصة. صمتت النسوة فوراً خوفاً من غضب عمر العنيف، وابتعدن حالاً. صاح بهن عمر أن عليهن أن يخجلن من احترامهن له أكثر من احترامهن لرسول الله. ردت إحداهن من مسافة آمنة أن رسول الله أكثر لطفاً مع النساء من صديقه المتغطرس.

حين مرض محمد وكان يحتضر حافظ على عادة الانصاف بين أزواجه وكان ينقل فراش مرضه من غرفة لأخرى حسب الدور. لكنه بدأ ذات يوم يسأل إلى غرفة من سيمضي في اليوم التالي واليوم الذي يليه ثم الذي

يليه. فأدركت الزوجات أنه يحاول أن يحصي كم سيطول به الوقت حتى ينتقل إلى حجرة الحبيبة عائشة. فقررن جميعا التخلي عن أدوارهن ليتحن له قضاء أسابيعه الأخيرة معها. مات بين ذراعيها ودفن في حجرتها.

كانت في التاسعة عشرة من عمرها تماماً، امتد أمامها مستقبل العزلة فلا أطفال والزواج محظور. لم يبقَ لها سوى النفوذ. ولأنها أمضت وقتاً طويلاً بجانب محمد فقد أصبحت مرجعاً دينياً قيادياً وينسب إليها ألفان ومائتان وعشرة أحاديث، لكن فقهاء القرن التاسع عشر لم يتركوا لها برفضهم الأحاديث المتعلقة بالمرأة سوى مائة وأربعة وسبعين حديثاً.

بموت محمد أصبحت عائشة امرأة ثرية. لم ترث شيئاً من محمد الذي ترك كل ما يملك للإحسان. لكن المجتمع دفع لها مقابل استخدام جزء من حجرتها - التي استمرت بالعيش فيها - كقبر للنبي، المبلغ الذي دفع لها مائتا ألف درهم، كان مبلغاً ضخماً بحيث يحتاج إلى خمسة جمال كي تنقله. لعل هذه الدفعة كانت بمنتهى السخاء لأن خليفة محمد هو أبو بكر والد عائشة.

أثار موت محمد غليان الصراع الطويل على السلطة بين علي وأبي بكر. وفاطمة التي عاشت حياةً هادئة جداً مربيةً أربعة أطفال انفجرت فجأة ونزلت الحياة العامة لتطالب بحق علي بالخلافة. في تلك الأثناء ماتت كل أخواتها دون أطفال وتركوها هي وأبناءها وبناتها النسل الوحيد من صلب محمد. كانت تجادل بمنتهى القوة بأن علياً هو صفي محمد. وهي التي ادعت أن أمر أبيها في قيادة الاسلام سيستمر في أهل بيته. وتحالف شيعة علي لدعمها لكنها فشلت في إقناع أغلبية المجتمع. وبينما كان علي يعد العدة لإصلاح ذات البين بقبوله بقيادة ابي بكر، رفضت فاطمة الإذعان بعنادٍ جريء ما زال يميز شيعة العصر الحاضر. ولقناعتها بأن والدها قد استخف به فقد رفضت مبايعة أبي بكر. ولربما نتيجة ضغط خسارة هذا الصراع مرضت وماتت بعد أبيها بستة أشهر.

لم يحزن الجميع على رحيل نبي الإسلام، ففي إقليم حضرموت جنوب جزيرة العرب، زينت ست نساء أيديهن بالحناء كما يتزين للعرس ونزلن إلى الشوارع ينفخن الطنابير في احتفال صاخب بموت محمد، وسرعان ما انضمت إليهن عشرون امرأة أخرى، وحين وصل خبر هذا الإحتفال إلى أبي بكر أرسل الفرسان لتأديب "عاهرات حضرموت"، حين وصل محاربوه هب الرجال للدفاع عن نسائهم لكنهم هزموا، وكعقوبة قطعت أيدي النساء المطلية بالحناء والتي ضربت على الطنابير من الرسغ.

من يعرف ماالذي حفز النساء للقيام باحتفالهن الصاخب المهتاج؟ بالنسبة لهن لابد أن ديانة محمد الجديدة قد جعلت حياتهن مضجرة أكثر وأقل حرية والأسوأ قادم، فكبت النساء كان على وشك أن يسن في الدين الجديد على نطاق واسع من قبل خليفة أبي بكر عمر، كاره النساء العنيف.

وما كانت مساندة عائشة لقيادة عمر إلا إظهاراً لعمق كراهيتها لعلي زوج فاطمة، فهي لم تكن تقيّم عمر تقييماً عالياً ولأنها تعرف غلظته مع نساء بيته فقد ساعدت بذكاء على إحباط صفقة بينه وبين أختها. اتخذ عمر إجراءاتٍ صارمةً بحق النساء بطرائق يعرف أنها استخفت بأحاديث محمد فقد جعل الرجم عقوبةً رسمية للزانية وضغط لفرض الاعتزال على النساء من غير زوجات النبي. حاول أن يمنع النسوة من الصلاة في المسجد، وحين فشل، أمر بأئمة للصلاة منفصلين واحد للرجال وواحدة للنساء، منع النساء أيضاً من الحج. وهذا الحظر لم يرفع إلا في السنوات الأخيرة من حياته.

بموت عمر ساندت عائشة عثمان بوصفه خليفة للمسلمين. وحين اغتال أعضاء حزب المتمردين عثمان حظي علي الذي اضطر للإنتظار أربعة وعشرين عاماً بعد موت محمد بفرصته في القيادة. وحين أصبح علي خليفة المسلمين الرابع جعل المنشقون من عداوة عائشة المعروفة لعلي العصا التي يضربون بها. فقد خطبت بعنف ضد فشل علي في معاقبة قتلة عثمان

وإذ تصاعدت المعارضة لحكم علي قامت عائشة بحركة جريئة متهورة كان يمكن أن تغير إلى أبد الآبدين توازن القوى بين نساء المسلمين ورجالهم.

قادت المنشقين في معركة ضد علي تحت راية حمراء وضعت فوق جمل وركبت في مقدمة قواتها مشجعة إياهم أن يقاتلوا ببسالة وحين أدرك عليٌ تأثير ذلك على أخلاق رجاله أمر بقطع أرجل الجمل تحتها ثم أباد قواتها، قتل المئات من أنصارها من بينهم أعز أقاربها وأصدقائها.

كانت هزيمتها كارثيةً على نساء المسلمين واستطاع خصومها أن يجادلوا بأن أول معركة للمسلمين مع المسلمين ما كان يمكن أن تحصل لو أن عائشة بقيت بعيدةً عن الحياة العامة كما أمرها الله. بعد المعركة نقل أحد عبيد محمد المعوقين حديثا كان مدمراً للنساء المسلمات بشكل خاص. قال الرجل إنه نجا من الانضمام إلى جيش عائشة إذ تذكر تعليق النبي على نبأ تعيين الفرس أميرةً كحاكم عليهم، إذ قال: " ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأةً". وسواء كان ما تذكره العبد السابق صادقاً أم لا فقد استخدم ذلك الحديث ضد امرأة مسلمة حققت نفوذاً سياسياً، ففي الباكستان كان معارضو بنازير بوتو يرددون هذا الحديث من حين لآخر. وبعد الهزيمة النكراء سالمت عائشة علياً في نهاية المطاف، وانسحبت من السياسة لكنها ظلت مرجعاً دينياً رفيع المقام. وقد وصفت عائشة في أواخر أيامها بأنها امرأة حزينة منطوية على ذاتها، أمنيتها الوحيدة أن ينساها التاريخ!! ويقال أنها كانت تبكي كلما تلت الآية القرآنية ﴿يا نساء النبي.... قرن في بيوتكن﴾.

الفصل الخامس

المهنديات

"ولاتنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم"

البقرة 2: 221

عند شروق الشمس وقبل أن تهيمن حرارتها ويصبح الهواء مثقلاً بأبخرة الديزل تفوح في طهران رائحة الخبز الطازج وفي مخبز مجاور تنتظر النسوة في رتل، حيث تتدلى شواديرهن المنزلية الوردية اللون على خصورهن وتبدو وجوههن أقل إجهاداً مما ستغدو لاحقاً عندما يكافحن عبر المدينة المزدحمة مثقلات بالأكياس والأطفال ومخاوف المرأة الكثيرة في البلدان الفقيرة. أثناء هذه الوقفة القصيرة يتمتعن بمشاهدة شخص آخر يعمل، كنت أحياناً بعد أن يتعبني التحديق والتساؤل بوصفي المرأة الوحيدة المسجلة في فندق "لاليه"، كنت أتجه إلى الضواحي الشمالية لتمضية وقتي مع أسرة قامت بيني وبينها صداقة حميمة، تعيش في شارع ملتف من المساجد والحوانيت وكل أشكال البيوت من الفيلات إلى الأكواخ. وفي الصباحات كنت أختط طريقي إلى المخبز المحلي عن طريق الرائحة. كان الهواء يحمل حلاوة قشرات الخبز

المحروقة ونكهة دخان الحطب من التنانير الغائرة في أرضية المخبز. في الداخل كان الرجال الأربعة الذين يعملون على الخط غير واضحين في الضوء الواهن بين الأيدي الرشيقة والعجين والكعك المتطاير. هؤلاء الخبازون يعدون "اللافوش" ـ رقائق من الخبز المسطح الناعم كالمحارم ـ يعملون كالمحتالين: ولد يزن الخبز وآخر يرققه وثالث ينقله من عصا إلى عصا لكي يمطه ورابع يضع الرقائق في الفرن. وبمراقبتي للنساء الأخريات تعلمت كيف أصل إلى الخبز الساخن ويداي ملفوفتان في طية من طيات شادوري. كنت أحمله بتلك الطريقة إلى طاولة الإفطار في بيت "مامو جدّي". ومثله مثل أي بيت في العالم الاسلامي، لم يكن بيت "مامو جدي" مفتوحاً على الشارع إطلاقاً. كانت بوابته الحديدية الضخمة تفصله عن العالم فصلاً تاماً وتحافظ على خصوصيات العائلة داخله. وتنفتح هذه البوابة على فناء فيه حدائق، وورود، ودراجات أطفال، وشجرة توت ظليلة. كانت "جانيت مامودزاده" تعد منها المربى الذي يفرد بشكل لذيذ فوق اللافوش الساخن. خلعت حذائي فوق كومة الأحذية أمام الباب الخارجي وخطوت على البسط واللبابيد المنزلية الصنع الناعمة ، وفي الداخل رميت شادوري على رف عليه اثنان أو ثلاثة من المعاطف والمناديل التي كانت جانيت ترتديها للاستخدام العادي، أما الروب الأكثر احتشاماً والشبيه بثياب الممرضات فقد كانت ترتديه في عملها بوصفها مدرسة انكليزية في مدرسة ابنتها، وأبقت الشادور للمناسبات الدينية.

كان محمد زوج جانيت تاجراً في (بازار بزرك) ـ البازار الكبير ـ يتعامل بالسجاد الفارسي والعملات الأجنبية. التقته في الكلية في بتسبرغ كنساس حيث كان يدرس الهندسة وهي تتلقى علوم الحاسوب. أحبته، اعتنقت الاسلام وارتحلت معه إلى بيته في إيران.

تزوجت جانيت من محمد قبل الثورة حيث كان ممكناً لغير المسلمات أن يعشن في إيران مع أزواجهن المسلمين، أما في هذه الأيام فإن اعتناق الاسلام إلزامي من وجهة النظر الشيعية التي تقول أن الزواج الدائم

(كنقيض لزواج المتعة) لا يمكن أن يتم إلا بين مسلمين . والسنة النبوية في هذه المسألة لا تساعد إطلاقاً في شرح الآيات القرآنية.

كانت للرسول علاقات مع يهوديتين على الأقل ومسيحية واحدة لكن المصادر الاسلامية لا تتفق حول ما إذا كانت هؤلاء النسوة قد اعتنقن الاسلام أم بقين على أديانهن. أو حول ما إذا كن قد أصبحن زوجات كاملات الحقوق. فصفية زوجة قائد خيبر، الذي مات في معركته مع المسلمين، اعتنقت الاسلام، وتأتي كل المصادر على ذكرها على أنها زوجة كاملة الحقوق للنبي. لكن وضع المرأتين الأخريين ليس بهذا الوضوح، فبعض المصادر تقول أن اليهودية الأخرى، ريحانة، قررت أن تبقى كأمة بين الحريم، وبذلك تمكنت من المحافظة على دينها والبقاء خارج إسار العزل.

أما مريم القبطية التي لم تغير دينها أبداً فتوصف كجارية في كل المصادر ما عدا المصرية منها.

اعتنقت جانيت الاسلام لأن زوجها أراد أن يربي أولاده كمسلمين ولأنها آمنت بأن اعتناق دين واحد سيجعل بيتها أكثر انسجاماً وقد نظرت إلى اعتناقها الاسلام بطريقة واقعية:"فا لله الإسلامي والمسيحي هو نفسه أليس كذلك؟ إن تقرئين القرآن تجدين فيه ماري ويسوع — لايختلف الأمر إلا بأسمائهما مريم وعيسى".

كان اعتناق جانيت للاسلام مسألة بسيطة، ففي غرفتها في كنساس، وبحضور شاهدين أعلنت اسلامها، وهي ترديد شهادة :"لاإله إلا ا لله محمد رسول ا لله". ولأن زوجها شيعي فقد أضافت أيضاً الجملة الاختيارية :"علي صفي ا لله" وما أن قالت الصيغة البسيطة هذه حتى أصبحت مسلمة. وكي تكون مسلمة صالحة كان عليها أيضاً أن تعيش وفق أركان الاسلام الأربعة الأخرى، الصلاة خمس مرات في اليوم، صيام رمضان، إعطاء الزكاة للفقراء التي غالباً ما تكون اثنين ونصف بالمائة من كل ثروة

المرء وليس من مجرد دخله كل عام، والحج إلى مكة مـرة واحـدة في العمـر إن استطاعت ذلك.

أثار قرار جانيت اهتمـامي، ففـي صبيحـة أحـد أيـام شـتاء عـام 1984 قمت بأمر مماثل، ذهبت إلى غرفـة شـديدة الرطوبـة في ضاحيـة كليفلانـد، نزلت بجسدي في حوض من القرميد مليء بماء المطر، وأخرجته وأنـا ألفـظ الكلمات التالية:"اسمع، يا اسرائيل يا ربنـا، يـا إلهنـا، الـرب واحـد" لاحقـاً أقمت الشعائر مع حَبْري وعريسـي علـى حسـاء فطـير الـذرة والبطاطـا في كنيس يهودي مجاور.

كان ارتدادي الديني لـه صلـة بالتـاريخ أكـثر مـن صلتـه بـالدين، فلـو أردت أن أتزوج من يهودي فالأمر يبدو أنـي أرمـي بنصيبـي ضمـن مصـير شعبه المهدد دائماً. لم أكن حينهـا أعلـم أنـي سـأمضي الجـزء الأعظـم مـن العقد القادم في الشرق الأوسط، الأمر الذي جعلني وأنا إلى جانب زوجـي عدوة للكثيرين ممن عشت بينهم بشكل أوتوماتيكي.

وجانيت أيضاً أرادت أن تكون إلى جانب زوجها، لكن جنسـيتها في إيران أواخر السبعينات كانت عقبة لم يستطع دينها الجديد أن يتغلب عليها كلية. "لم يكن ذلك الوقت جميلاً لعروس من مدينة كنساس لكي تقيـم في بيت في طهران". تذكرت ذلك بتقطيبة مضطربة. ففي غضون شهرين مـن وصولها كانت المدينة تكتسحها المظاهرات والنيران والمعارك بالبنادق. وقد ابتهج زوجها حين عاد الخميني من منفاه عـام 1979، فقـد كـان مثـل كـل الشباب الإيراني المثقف يكره فساد النظام القديـم، وكـان معجبـاً بطريقـة الخميني في دخوله عالم القوى العظمى التي كانت تتنافس مع بعضها البعض من أجل ثروة وطنه.

اضطرت جانيت أن تجلس في الاجتماعات العائلية وتستمع إلى تشهير أقارب محمد ببلادها. وإذ تطورت لغتها الفارسية بـدأت تتحداهـم، كـانوا يقولون: "يا جانيت نحن نحب الشعب الأمريكي وما نكرهـه هـو الحكومـة فقط"، فكانت تقول: "حسناً الحكومة في بلادي هي الشعب".

حين احتل الطلبة الايرانيون السفارة الأمريكية في طهران عام 1979 طلبت الادارة الأمريكية من كافة مواطني الولايات المتحدة المقيمين في إيران بالمغادرة. وراقبت جانيت الأمر بوصفه هجرة أفرغت المدينة من آلاف المغتربين الأمريكيين الذين جنوا ثروات من هنا وبذلك لم يبقَ سوى حفنة من الأمريكيين معظمهم أزواج ايرانيين أيضاً، ملزمين اقتصادياً وأيديولوجياً بالمغادرة تجاه بلدهم. وأكدت الإدارة "بأننا إن بقينا هنا فعلى مسؤوليتنا وقد بقينا، فمن تحب زوجها تبقى".

وقد وجدت جانيت نفسها وبشكل تدريجي تحب الكثير من مظاهر الحياة الإيرانية. وجدت أن الايرانيين جادوا بحبهم للأمريكيين القلائل الذين بقوا بينهم. بل وبعض الايرانيين يحتفظون بذكريات طيبة لمدرسين وفنيين أمريكيين قدموا العون لبلادهم، في حين أن أولئك الذين نظروا إلى الأمريكيين بوصفهم مستغلين، كانوا يشعرون أن جانيت، ببقائها، قد انضمت إلى الصف الإيراني. وبدلاً من أن يحيوها بعدائية وجدت نفسها موضع ترحيب في كل مكان ـ كانت تعطى الدور الأول في أرتال مشتري المواد الغذائية، تعطى أفضل اللحوم وتقدم لها المساعدة بكل طريقة ممكنة. قالت "عاملوني هنا كأنني ملكة."

لكن إقناع أهلها في كنساس تطلب جهداً، خصوصاً بعد أن قامت "بتي محمودي" بنشر مذكراتها تحت عنوان "ليس بدون ابنتي". الكتاب قصة كابوس لزوجة أمريكية وافقت أن تزور أسرة زوجها في طهران لتجد نفسها وقد وقعت بالفخ هناك، فخ القوانين الإيرانية التي تحظر على النساء أن يغادرن البلاد دون إذن أزواجهن. والكتاب يقدم صورة سوداء عن الحياة في إيران، يصف ضرب الزوجة او البيوت القذرة والأغذية التي تلوثها الحشرات.

"كان والدي يتصل بالهاتف ويقول: "أعرف أن محمداً يضربك"، فكنت أجيب: "أبتاه لا يضربني إلا إذا كنت أنت تضربني"، حتى أنني التقطت صورة لثلاجتي لأريه كم من الطعام لدينا". حاولت أن تصف

مستوى الترف في فيلتها الواسعة، والفراغ الذي توفره لها الخادمة التي تنظفها بشكل منتظم، وسهولة مداخلها التي تتيح العناية بأطفالها الثلاثة. كانت حياة يحسدها الكثير من الأمريكيين عليها، لكن والديها لم يطمئنا. لذا وافقت أن تراني آملة أن والديها سيصدقان صحفية من خارج الأسرة. ودعت صديقة من كاليفورنيا متزوجة أيضاً من إيراني لتقابلني أيضاً.

فغرت جانيت فمها عندما فتحت الباب لصديقتها، فقد كان ذلك في أسبوع جنازة الخميني، طهران برمتها ترتدي السواد. فشارات الحداد السوداء تتناثر على المباني العامة والرجال يرتدون قمصاناً سوداء وقد تخلت النسوة عن مناديلهن الملونة إكراماً لأربعين الحداد الرسمي وارتدين شواديرهن السوداء. وسط كل هذا الجو الفجائعي وقفت صديقة جانيت مثل مهرج في دير. وقفت بطولها البالغ ستة أقدام وهي حبلى في الشهر السابع ترتدي قفطاناً قطنياً ضخماً منقطاً بالألوان الوردية والقرمزية ومنديلاحريرياً قرمزياً، لم يكن يكفي لتغطية شعرها المنسدل.

صاحت جانيت: "يا الله، آمل أن لا يكون الحاج يوسف قد رآك"، مشيرة إلى جارها المباشر، وهو عضو في اللجنة المحلية المسؤولة عن تنفيذ التعاليم الإسلامية. لم تفعل المرأة التي سأسميها مارغريت سوى أن هزت كتفيها وألقت نفسها على كنبة. قالت" وماهمني؟ لقد تعرضت للإهانة وأنا بطريقي إلى هنا، إذ تقدمت إلي النسوة في شوادرهن قائلات كيف ترتدين هذا اللباس؟ ألا تعرفين أن الإمام قد مات؟ قلت "ما علاقتي بالأمر؟ أنا أمريكية" قلت أنني أعلم أفضل منها بما يقوله القرآن عن رداء المرأة وأنه لا يقول في أي مكان بأن هذا الرداء ينبغي أن يكون خرقة سوداء ضخمة عتيقة".

كانت مارغريت تعرف ما قاله القرآن لأنها أمضت كل صباح وهي تجلس متربعة على الأرض قرب حماتها تدرسان الكتاب المقدس سطرا سطراً. لقد تزوجت مارغريت رجلاً من سليل أسرة من الأسر الأرستقراطية في الجمهورية الإيرانية، ابن خط طويل من آيات ا لله العظام.

عانت العائلة الكثير من اختيار ابنها الغريب للعروس لكنها امتازت بـأمرين اثنين لتنال موافقتهم، اعتنقت الإسلام وحملت بالسـرعة القصـوى. كـانت حماتها تؤمن ايماناً راسخاً بأن كسب معتنق للدين هو جواز مرور إلى الجنة ولأن أحداً من أبنائها لم يكن قد أنجب لها حفيـداً بعـد فقـد علقـت آمالها على مولود مارغريت.

كانت مـارغريت تتحـدث صراحـة عـن القـوة الجنسـية الـتي جعلتهـا تلتصق بزوجها والتي نشأت بينهما في ثقافة بلاجات التمتـع الكاليفورنيـة. لقد سعت إلى شريك جنسي لم تحلم به امرأة من قبل وهو فتى إيرانـي مـن بين رجال الدين. تبجحت قائلة:"كان يركض خلفي كـالكلب" تعتقـد أن هذا كله يحميها من الاصطدام بالتعاليم الحديديـة للمجتمـع الإيرانـي. كـل المباني الحكومية في طهران تحرسها إناث يفرضـن قواعـد الـرداء الإسـلامي بالقوة ومؤخراً طردت مارغريت من أمام باب مكتـب بريـد لأنهـا كـانت تضع أحمر الشفاه. "طلبت محارم فقالت، "هاهي محارمك" وصفعتـني علـى وجهي". شكت مارغريت لأسرتها التي قامت بدورها بطرد الحارسة.

بعد لقائنا ببضعة أسابيع في بيت جانيت دعـوت الاثنتـين لتشـاركاني الغداء في المدينة. اختارت مارغريت مكانها المفضل، الذي كـان ذات يـوم مطعماً فرنسياً فخماً، غطاء طاولته من النسيج الأحمر اللون. حيّاهـا عمـال المطعم وكأنها أختهم التي ضـاعت منـذ زمـن بعيـد، وهـم يلومونهـا علـى لباسها الملون. سألها أحدهم لماذا ترتدي صديقتها هذا الحجـاب الأسـود، فردت مارغريت بعبارة فارسية سريعة، نظر الخادم اليها فزعاً ثـم ضحـك، ترجمت لنا العبارة وهي تضحك، قائلةً: "قلت له إنهن يعانقن الحمير".

لكن حتى مارغريت كانت تعرف أن هناك حدوداً. ذات مرة تمـادت في قلـة احترامهـا، فقـد أثـار سـخطها مـراراً بعـض الايرانيـين المنـاهضين للأمريكيين ممن كانوا يخربشون شعارات على جدار في نهاية شارعها، وفي احد الليالي أخذت علبة دهان وغيرت الأحـرف بحيـث تحولـت إلى شـتيمة ضد الحكومة الإيرانية. في فجر اليوم التالي سبب تغيير الشعار صخباً وبحثـاً

عنِ الجاني. سرّت مارغريت بالأزمة التي خلقتها وأسـرت بذلـك لزوجهـا ظناً منها أنه سيسّر بالمزحة. "لم أره في حياتي كلها ساخطاً إلى هـذا الحـد، صرخ في وجهها متهماً إياها بالجنون، هل تريدين أن تقتلي؟ هناك أشياء لا أستطيع أن أنقذك منها". في نهاية الأمر لم يفلح أحد في تحديد الجاني.

بالنسبة لي أتاحت لي صداقة جانيت الفرصة للدخـول إلى عـالم النساء في إيران، فعائلـة محمـد الكبـيرة والمنتشـرة في ارجـاء ايـران، فيهـا فقراء وأثرياء، فيهـا القـانعون دينيـاً والدهريـون. وكلمـا كنـت في المدينـة، أشعر بوضوح أنني في غمرة أحداث الأسرة.

أما كوني يهودية فقد ظل أمراً مجرداً، حدد نوع العرس، و لم يعد يعني سوى وليمة عائلية في عيد الفصـح كـل عـام وصـوم يـوم كبـور، وبعـض الحرج في أعياد الميلاد ويافطـة غالبـاً لم تكـن ملائمـة تقضـي بـأن علـي أن أكتبها على طلبات التأشيرة حين أزور بلدان الشرق الأوسط. لكـن الديـن بالنسبة لجانيت شكل روتين حياتها اليومي.

مامن أحد في أسـرة "مـامودزاده" يعيـش حيـاة دهريـة، فوالـدة محمـد تنهض كل صباح قبل الفجر لتهيـئ نفسـها للصـلاة الأولى مـن الصلـوات الخمس التي تؤديها كل يوم.

لكن محمد وجانيت كانا أقل تدقيقاً في الأمـر، إلا أن جـانيت كـانت سعيدة عندما تنضم إلى حماتها في الصلاة. قـالت:" إنهـا مجـرد دقـائق مـن الطمأنينة في اليوم، فإذا ما ناداك الأطفال أو وصل أحدهـم إلى البـاب فمـا عليك إلا أن ترفعي صوتك لافظة اسم الله لتشيري إليه بأنك تصلـين ومـا من أحد يستطيع أن يقاطعك".

إن التهيؤ للصلاة يقضي بأن تغسـل جـانيت وحماتهـا بعنايـة، الوجـه، القدمـين، اليديـن وتمضمضـا الفـم وتمـررا الأيـدي المبللـة علـى الشـعر. لا تستطيع النسوة في إيران أن يضعن مساحيق الأظافر لأن الشرع يقضي بـأن تبقى اليدان نظيفتين للصلاة، وطلاء الأظافر يعد تلوينـاً للأيـدي. في المطـار

تُقدم للنسوة حتى الأجنبيات منهن خرق مبللة بالبنزين ليمسحن طلاء الأظافر، لكن العطر محبب أوقات الصلاة، لذا تقوم جانيت وحماتها برش أنفسهن بالروائح العطرة ويتلفعن بأجمل شوادرهن الوردية، ويفردن سجادة صلاة صغيرة ويبدأن سلسلة الركوع والسجود التي تترافق مع دعاء الصلاة الإسلامي المنغم: ﴿الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.﴾[12]. أما الرجال فعليهم أن يتلوا صلواتهم بشكل مسموع إلى الحد الذي يستطيع معه القريب منهم أن يميز الكلمات، لكن على النسوة ـ اللواتي تعد أصواتهن مثيرة جنسياً ـ أن يتلون صلواتهن همساً.

كان محمد يضع اسمه كل عام في قرعة من سيختارون للحج سنوياً. وشهر الحج يأتي بعد شهر رمضان. في تلك الأيام ينزل إلى مكة مليونا مسلم من جميع أنحاء العالم سنوياً. يرتدون رداءً طقسياً وهو رداءٍ أبيضٍ بسيط، ولأن وجهة النظر السياسية الايرانية للدين لا تلقى قبولاً حسنا لدى السعوديين فقد فرضت العربية السعودية إجراءات مشددة على الحجاج الايرانيين الذين تسمح بهم كل عام. أخيراً جاء دور محمد في عام 1993. خطط أن يأخذ أمه وجانيت في رحلة الشهر الطويلة، لكن جانيت بعد دراستها لفروض الحج قررت ألا تذهب. قالت :"في الحج أشياء كثيرة غير الطواف حول الكعبة والصلاة طلباً للغفران على جبل عرفات. إن مجرد التفكير بالجنس قد يدحر قيمة الحج". علاوةً على أن الكلمات البذيئة والأفكار السيئة محظورة تماماً. "أنا لا أظن نفسي مؤهلة روحياً بما فيه الكفاية للقيام بذلك على نحو مناسب". بدلاً من ذلك عرضت أن ترسل أخت محمد مكانها، التي بدأت بكل سرور دورةً خاصة بدراسة طقوس الحج لتعد نفسها.

---

12 ـ سورة الفاتحة 1: 2-7.

يحتوي كل أسبوع تقريباً من حياة آل ماموزاده بعض الطقوس الدينية المرتبطة بالشعائر المتعلقة بالولادات، الخطوبات، الزيجات، والجنازات. وخلال زيارة طالت أسبوعاً واحداً للأسرة تعلمت الكثير عن حياة الايرانيين من حادثتي وفاة مختلفتين.

فقد محمد عمة له عمرها تسعون عاماً، انطلقنا سويةً إلى (شاباّهافت) أي الليلة السابعة لوفاتها ـ أمسية حزن طقسي تجري بعد أسبوع من وفاة الميت ـ كان أبناء المرأة وأحفادها وأحفاد أحفادها كثيري العدد، وتبعثرت الرايات السوداء على كلا البيتين، وكان فناءاهما مليئين بالسجاد والطنافس وأسلاك المصابيح الكهربائية. أوقف محمد السيارة ونزلنا منها واتجه هو ورجال آخرون إلى بيت الجيران ـ فالجيران عادة ما يضعون بيتهم تحت تصرف الرجال لأن النسوة غالباً ما يأتين متثاقلات الخطى فيحدثن فوضى. فانضممت أنا وجانيت إلى النسوة والأطفال المحتشدين في غرفة استقبال بيت المتوفية.

بين الرجال في البيت المجاور كان الشيخ يقرأ القرآن وصوته يتناهى إلى تجمع النسوة من خلال مكبر الصوت. والملالي الذين يقومون بهذه القراءات يُختارون لعذوبة أصواتهم. بعد تلاوة القرآن بدأ ينشد أغنية حدادية بصوت منخفض ممجداً فضائل الأمهات. وفي أرجاء الغرفة المحتشدة بدأت النسوة ينشجن بهدوء ثم وبنهاية أنشودته تغير المزاج بشكلٍ مفاجئ، فرش الخدم على السجاد حصراً بلاستيكية كبيرة، وقدموا أطباقاً عليها لحم الضأن والدجاج والرز والخضار مكوماً كالجبال. إن هذه اللقاءات تجمع العائلات لكن هذا "الشاباهافت" (أسبوع المتوفي)، أظهر كيف أن عشر سنين من الحرب والثورة قد مزقت هذه الأسرة الايرانية، فصورة حفيد المتوفاة، "شهيد" في الحرب مع العراق، معلقة وسط جدار غرفة الاستقبال، تحت الصورة صورة أخت الشاب التي أطلق سراحها مؤخراً من سجن قضت فيه محكومية مدتها سبع سنوات لأنها هتفت "يسقط الخميني" ، وأخوها الشهيد هو الذي أخبر الحرس الثوري عنها.

قالت جانيت:" هذا ما يمكن أن نجد مثيلاً له في كل أسرة إيرانية من أسر الطبقة الوسطى تقريباً إذا ما جعلناهم يتحدثون عن الأمر فالثورة هنا قد فرقت الناس فعلاً - المؤمنون المتحمسون لإيمانهم وغير المؤمنين كلهم تحت سقف واحد". كنا نجلس إلى جانب عمته الشابة. هذه العمة قد فقدت ثلاثة من أبنائها - اثنين في الصراع دفاعاً عن السلطة والثالث في الصراع ضدها - وماتت إحدى بناتها أثناء التدريب على ميليشيا المتطوعات. فأثناء تدربها على مدى البندقية أفزعها انفجار الأسلحة الأوتوماتيكية فوقفت في خندقها وأصيبت بطلقة في رأسها. وأحد الأبناء مضى إلى الجبهة العراقية الإيرانية واعتبر مفقوداً في إحدى المعارك. لم أخبر الأم أنني كنت في خطوط الجبهة حيث كان يقاتل ابنها. ذهبت من الجانب العراقي لأن الايرانيين لا يسمحون بوجود مراسلات في الجبهة. وصلت عصر أحد الانتصارات العراقية الرئيسة والقتلى الايرانيون ينتشرون في خنادقهم مثل أكياس ممزقة من اللحم المتعفن. كان العراقيون قد شرعوا بتعزيز الأمتار الصحراوية القليلة التي كسبوها، والمعدات العسكرية العملاقة تتحرك فوق الجثث مخلفة الهواء مشبعاً برائحة معجون اللحم المسحوق ولن يستطيع أحد التعرف على هذه الجثث، فالمئات بل ربما آلاف الشباب سيظلون إلى الأبد مفقودين في هذه الرمال.

أما الميتة الأقسى فهي ميتة ابنها الثاني فقد أعدمته الجمهورية الاسلامية بسبب عضويته في مجموعة ميليشيا معارضة تسمى (مجاهدي خلق) قالت أنه شاب مضطرب اصطادته مجموعة حسنة التنظيم تعيش على المعونات العراقية وتمسح أدمغة أعضائها. أردت أن أسألها إن كانت تلقي اللائمة على الحكومة الايرانية لأنها لم تبدِ أية شفقة تجاه ابنها، لكن جانيت، التي كانت تترجم لي، هزت رأسها قليلاً ولم تطرح سؤالي. سألتها بدلاً من ذلك بلطف إن كانت قد شعرت أن تضحياتها كلها في مكانها. أومأت دون تردد، "قريتنا هي أول قرية تمزق تمثال الشاه ونحن لا نحيد عن السبيل القويم ولا يهمنا ما تفكرون أنتم الغربيون به". تكلمنا عن

عملها كمدرسة في مدرسة القرية قالت: بأنها بعد كل من فقدت، تحاول الآن أن تفكر بطلابها كأبناء لها.

قبل بضعة أيام من ذلك حضرت جانيت ومحمد "شاباهافت" آخر، خلافاً لموت العجوز ذات التسعين عاماً، والتي ذهبت الى ربها بهدوء . وفي الوقت المناسب، كان الموت الآخر هذا مفاجئاً وصادماً. كانت أناهيتا في الثالثة عشر من عمرها تماماً. وخلال الاسابيع الأخيرة من عمرها، تعرضت لضغط هائل من معلمة، نائبة المديرة في مدرستها. في البداية وبختها المعلمة بسبب الطريقة التي ترتدي فيها جلبابها قائلة لها بأن غطاء الرأس منسحب إلى الوراء كثيراً تاركاً شعرها ينسدل على نحو مثير. في يوم آخر علقت المعلمة على حذائها قائلة أنه مبهرج جداً لا يصلح لابنة مدرسة معتدلة. بعدئذ وجدت المدرسة مجموعة من الفتيات يتطلعن من نافذة خاصة في إحدى الصفوف تطل على منطقة يرتادها الشباب. أخبرت أناهيتا والديها فيما بعد أنها كانت تجلس بجوارهن ببراءة، تغزل ببراءة عندما انقضت المعلمة الغاضبة على الطالبات وصفعتهن للتأنيب، ومن بين سائر الطالبات أهانتها وأمرتها أن تقف خارج الصف، كان ذلك في رمضان وأناهيتا كانت صائمة لم تأخذ رشفة منذ الفجر. وقفت في الشمس الحارقة طوال ذلك اليوم المدرسي الطويل. في المساء أسرت تعاستها لأخ أكبر، طالب طب، قائلةً :"في كل يوم يضايقونني وإذا كانت الأمور ستمضي على هذا المنوال يومياً فأنا لا أنوي الاستمرار" لم تكن لدى أخيها أي فكرة عن جدية عما قالت.

في اليوم التالي وبخت نائبة المديرة أم أناهيتا على سلوك ابنتها قائلة إن أناهيتا كانت في طريقها إلى الطرد. وهي بكل الاحتمالات ستشب لتصبح عاهرة، ردت الأم بمرارة على اتهامات المعلمة قائلة أن أناهيتا لم تدرك بعد أن هناك جنساً آخر، قالت للمعلمة:"ما تزال فتاة صغيرة وأنا أحملها في حضني مثل طفل وأجبرها على تمشيط شعرها فهي ليست مهتمة بمظهرها". كان الجدل مايزال حامياً عندما أصيبت أناهيتا بالخبل وغادرت المدرسة، سارت إلى البيت، صعدت إلى سطح بيتها وألقت بنفسها منه.

بعد بضعة أيام أخرى انتحرت فتاة أخرى احتجاجاً على الضغوط المتعلقة بالجنس والحجاب بالطريقة نفسها. وجدوا في جيبها صورةً لأناهيتا أخذتها من إحدى الجرائد التي وصفت الانتحار السابق. دفعت هاتان الحادثتان إلى أسبوع من التحليلات العميقة في الإعلام الإيراني فقد كان العنوان الرئيس لمقالة عن حادثتي الانتحار في مجلة تسمى (المرأة اليوم) هو "نرسل أطفالنا إلى المدارس ونحن نحمل آلاف الآمال لمستقبلهم". تساءلت الصحيفة أين يكمن الخطأ؟ وككل المقالات من هذا النوع أنحت الصحيفة باللائمة على المعلمة المنضبطة ظاهرياً مطالبةً بمزيد من تدريب المعلمين وتوعيتهم لنفسية الأطفال. مامن أحد تساءل عن الضغط الإسلامي المفروض على كاهل الفتيات الصغيرات.

حين التقيت بليلى، ابنة جانيت، كانت في التاسعة من عمرها تماماً، السن الذي يفترض بالفتيات فيه أن يتحملن مسؤولياتهن الدينية كافة ، ففي إيران يُطلب من الفتاة التي بلغت التاسعة أن ترتدي الحجاب الكامل وأن تنهض لصلاة الفجر وأن تصوم أيام رمضان. أما الأولاد والذين يعدون أقل نضجاً فلا يطلب منهم أن يصوموا أو يصلوا حتى يبلغوا الخامسة عشرة. أطاح الخميني بقانون سنّه الشاه لحماية الأسرة في عام 1975 وكان يحظر زواج أو خطوبة الأطفال. أما في إيران اليوم فإن الفتاة في سن التاسعة تصبح شرعاً مهيأة للزواج.

لقد شبت ليلى في إيران لكنها تقضي عطلتها الصيفية كل عام مع جديها في "ميسوري". تمتعت في مدينة كنساس بالألعاب المنطلقة مع أقرانها الأمريكيين لكنها حين تعود إلى الوطن تضمها جدران البيت. حين افتتح محل لتصليح السيارات في الشارع، اضطرت للتخلي عن دراجتها. أوضحت جانيت "هناك دائما شبان يتحدثون عن سياراتهم فإذا ما ركبت دراجتها في الشارع مع أخوتها فإنهم سيحدقون بها".

لم يرق تحويل البيت إلى محل ميكانيكي لجانيت لكنها شعرت بالعجز عن مقاومة الأمر، فلأمر ما كان مالك البيت سجين حرب في العراق وقد

فتح محل عمله بالمساعدات الحكومية التي تمنح عوناً للمعاقين. تنهدت جانيت وقالت: "إن السلطات المحلية لن تتعاطف معي لو قلت لهم أن ابنتي تريد أن تلعب بحرية في الخارج. فهي من وجهة نظرهم تنتمي إلى الداخل سواء أكان في الشارع محل تصليح أم لم يكن".

حصلت ليلى على شادورها الأول مفصلاً على قياسها وحاشيته مطرزة بشريطة، كانت تحب أن ترتديه. قالت جانيت: "أظنها تشعر فيه أنها كبرت، أعتقد أنني محظوظة لأنها لم تتمرد عليه" كانت جانيت قلقة حول تأثير قرارها باعتناق الإسلام الدائم في ابنتها. وكانت تراقب بحذر شديد أي بوادر تمرد قد تجعل حياة ليلى خارج البيت صعبة جداً.

لكن حين شبت ليلى وأصبحت مراهقة حلوة أصبحت الديانة درسها المدرسي المفضل، وفي أوقات الصلاة كانت تستمتع بحث أخيها في الرابعة عشرة من عمره الذي لم يبدأ صلواته اليومية بعد.

كانت تصرخ بصوت عال ليسمعها أخوها المنشغل بالعروض التلفزيونية: "ماما، لماذا لا يصلي يوسف " فترد عليها جانيت متنهدة: "ليس ملزماً بذلك فهو لم يبلغ الخامسة عشرة" فترد: "لكن معلمتنا يا أماه تقول أن المرء إن كان يعرف الصلاة ويفهمها فعليه أن يصلي بغض النظر عن سنه وأنت تعلمين أن يوسف يعرف الصلاة ".

كفت جانيت عن القلق بشأن التمرد وبدأت تخاف أحادية الفانتازيا الضيقة التي ستثير التوترات ضمن العائلة. لجانيت صديقة أمريكية واحدة أصبحت ابنتها شديدة الورع لدرجة أنها رفضت أن ترافق أمها في زياراتها إلى الولايات المتحدة الأمريكية (الملوثة روحياً). يبدأ يوم ليلى المدرسي بالصلوات يتبعها "هتاف" طقسي: "مرك بر أمريكا /الموت لأمريكا/ !" كانت مدرستها، شهيد المعرفة، معهداً متقدماً بشكل معقول بالمنظور الإيراني و لم يكن يطلب من تلميذاته أن يرتدين الشادور. فارتداء الشادور بالنسبة لفتيات المدارس أصبح إشكالياً بعد حوادث سيارات عديدة حيث لم يكن السائقون قادرين في الغسق على رؤية الأشكال الصغيرة التي ترتدي الحجاب الأسود وتحاول عبور

الشوارع المزدحمة. بدلاً من ذلك كان الزي الرسمي لمدرسة ليلى عبارة عن تنورة رمادية لطيفة ترتدى فوق سروال وفوقها جلباب. كانت الفتيات يتركن قبعاتهن على رؤوسهن وهن يركضن ويضحكن في أرض الملعب حتى رغم أن المدرسة محظورة على كل الرجال ـ بمن فيهم آباء التلميذات ـ تمر التلميذات إلى ساحة عالية الأسوار عبر مدخل مستور يحرسه، بحماس، رجل أمن عجوز. في الداخل هناك فراغ للشعارات القائلة "الموت لأمريكا" بين الزخارف المدرسية للحيوانات المصطنعة ومجموعات الزخارف الطبيعية. لكن حماسة العداء الرسمية لأمريكا يكذبها التدافع لدخول صف جانيت من أجل اللغة الانكليزية. أصبح تدريس اللغة الانكليزية غير محبب في المدارس الحكومية خلال العقد الأول للثورة لكنه بدأ بعد موت الخميني يعود تدريجيا. في مدرسة ليلى معلمتان للغة الانكليزية لكن فصل جانيت هو الذي يتدافع الآباء بشكل دائم عليه، ضاغطين كي تتعلم بناتهم اللغة بلهجة الغرب الأوسط فيه.

"هذا قلم! هذا مقعد! أنا فتاة" هذا ما كانت تردده ثلاث وعشرون طفلة مشرقات الوجوه في السادسة من عمرهن بشكل جماعي متناغم. طلبت جانيت من الفتيات الواحدة تلو الأخرى أن يرددن **C,B,A** أو يكتبن الأبجدية اللاتينية غير المألوفة على اللوح المغطى عادةً بالكتابات الفارسية المنحنية. أما بالنسبة للواتي يُجدن عملهن تكون المكافأة قطعة حلوى وجولة تصفيق.

ما رأيت جانيت مرةً إلا وبدت لي وطيدة العزم في مجتمعها وقانعة بحياتها الخاصة. أفلحت ليلى حتى الآن في أن تكون ورعة دينياً دون أن تنزلق إلى الدوغمائية. ففي عالم إيران المتمحور حول الأسرة اكتشفت جانيت ومحمد بعضهما بعضاً أكثر وقسّما واجباتهما الأبوية بالتساوي أكثر من أي زوجين في الغرب، فعطلة يوم الجمعة بالنسبة لهما كانت دائما يوماً للعائلة يقضيانها بأخذ الأطفال إلى الجبال المجاورة، إلى حفلة كباب، أو زيارة الأقارب، أو يمكثان في البيت أمام أحدث أشرطة الفيديو.

قالت إحدى رفيقات جانيت الأمريكيات التي زارتها عصر أحد الأيام لتناول الشاي: "في البداية حين أحضرني زوجي إلى هنا كرهت الأمر،

كرهت كل خطوة أخطوها". غادرت هذه المرأة زوجها راجعةً إلى الولايات المتحدة. قالت: "هناك لم أكن أستطيع تصديق سباق الجرذان فعملي يتطلب كل ذرة من طاقتي ورحت أحن إلى إيقاع حياتي البطيء هنا حيث البيت والأسرة يأتيان في المقدمة وليس العمل سوى وسيط بشكل ما بينهما. ثم أصبت بالسرطان وأحسست بالوحدة هناك. بالطبع عندي أقارب لكنهم لا يستطيعون ترك كل شيء من أجلي، ورحت أفكر لو أنني في إيران فإن العائلة ستترك كل شيءٍ لأجلي. وما أن شفيت حتى عدت إلى هنا وإنها لحياة رائعة هنا حقاً".

لكن حكايا القناعة البيتية لاتخبرنا القصة كاملة أكثر مما تخبرنا بها كوابيس (بيتي محمودي) البيتية. لقد فقدت الصلة مع مارغريت صديقة جانيت وانقضى عامان على لقائنا الأول. لكننا ذات يوم تواصلنا ثانية، ودعتني إلى إحدى "روزيات" حماتها، وهي لقاءات للنساء الورعات، تتخلل فترة تقديم الشاي بعد العصر، وفصل للدراسات الدينية، وهذه اللقاءات هي الشكل الرئيسي للعلاقات الاجتماعية.

حين وصلت المنزل لم أكن أميز شكل الذي يرتدي الشادور الأسود والذي فتح لي الباب. حكت مارغريت وجهها الشاحب المكيج، ولفت شعرها الاشقر تحت النقاب. وحتى طولها الدرامي بدا منكمشاً بسبب انحناءتها المتعبة. وإذ مشينا سوية في فناء حماتها استحسنت نافورة جميلة من القرميد الأزرق، و قالت وهي تشير إلى حزمة من القش القصير:"حماتي تتوضأ هناك للصلاة، وعلي أن أفرك هذه البلاطات قرميدة قرميدة لأضمن طهارتها دينياً. وعلي أيضاً أن أكنس كل سجادة كل يوم بتلك المكنسة، عندي مكنسة فراغية لكن لا يسمح لي باستخدامها لأن حماتي ليست متيقنة بأنها تنظف السجاد ولأنني معتنقة للدين الجديد علي أن أفعل كل شيء بصورة أفضل مما يفعله المسلمون لأقنعهم بأنني لم أعد فاسقة قذرةً". بدت متعبة وكئيبة. بدت كل غطرسة الشجار وكأنها قد أزيلت تماماً مع اللطخات التي على القرميدات الزرق وذرات البخار على السجاد.

أدخلتني إلى صالة فارغة تماماً إلا من كرسي واحد مزخرف. والضيوف الآخرون وهن نحو اثنتي عشرة امرأة ـ جلسن إلى وسائد متراصة على الجدران، وعندما وصل الشيخ أسدلن أطراف شوادرهن على وجوههن. أخذ الملا مكانه دون أن يلقي التحية. وبدأ يلحن بصوت حزين منوم، في غضون دقائق بدأت معظم النسوة النشيج. أما حماة مارغريت فقد بدأت تولول بعنف، وكتفاها يهتزان تحت شادورها الأسود وبدأت النسوة يزحفن تحت حجبهن. بدأن يتزاحمن علىعلب المحارم المطروحة بينهن.

كان الملا يحكي قصة الحسين حفيد النبيٍ محمد الذي قاد جيشه ليهزم الخونة في بطاح كربلاء، منذ ثلاثة عشر قرناً خلت. وهي قصة يحفظها كل شيعي عن ظهر قلب. أدهشني أن إعادة روايتها تستدر كل هذه العواطف. همست مارغريت التي تجلس على الأرض بجانبي:"هم لا يبكون على الحسين فقط بل يندبون كل الأشياء المرعبة في حياتهم ـ الأطفال الذين أجهضوهم، الأولاد الذين قتلتهم الأمراض، الأخ الذي قتل في الحرب، الزوج الذي طلقهن. في بلد من بلدان العالم الثالث كهذا لدى النسوة الكثير مما يَنحن عليه".

تعاظم صوت انشاد الملاّ ثم توقف فجأة. ومثلما دخل بشكل فجائي نهض وغادر القاعة بشكل مفاجئ. وفي اللحظة التي أصبح فيها في الخارج رمت النسوة شوادرهن. كن يرتدين البدلات الحريرية الباهرة المبرقعة بصفوف اللؤلؤ والذهب وبدأت عشرات الأحاديث دفعة واحدة. هبت مارغريت مباشرة ومضت إلى المطبخ رائحة غادية ومعها صوانيٍ الفواكه والخيار الصغير والشاي والكعك. والضيفات متبرجات تبرجاً أنيقاً يمسحن الكحل المعمي بالمحارم ثم يضعن السكر في كؤوس الشاي الصغيرة.

بعد برهة نهضت لأتصل وأطلب تكسي، بعد بضع دقائق حين رن الهاتف، لكزتني مارغريت وأومأت باتجاه ابنة حماتها التي كانت تمسك سماعة الهاتف بعناية ويدها ملفوفة في شادورها. همست مارغريت "هذا هو الفسقٍ الذي كنت أحدثك عنه. فلأنك لست مسلمة لا يمكنها أن تمسك شيئاً

لمستيه أنت حتى تتاح لها فرصة مسحه تماماً ـ أو أمسحه أنا". في تلك الحالة أظن أن من حسن الحظ أن ابنة حماة مارغريت لم تكن تعلم أنني يهودية، الأمر الذي كان سيضطرها لرمي الهاتف كله. إن الخشية من التجسس اليهودي قوية جداً بين الإيرانيين لدرجة أن إحدى المرات قبل الثورة الإيرانية سنت الحكومة قانوناً يطلب إلى اليهود البقاء داخل منازلهم أثناء العواصف المطرية أو الثلجية لئلا يتدفق المطر الذي يلامس أجسادهم في الجداول التي قد يستخدمها المسلمون للوضوء.

بعد أن أنهت مارغريت تقديم كل شيء وهي تتلقى تعليماتها من حماتها، قامت بتكويم الوسائد في الزاوية وأشارت إلي أن آتي لنتبادل حديثاً قصيراً خاصاً في غرفتها. تبين أن الحجرة كانت عبارة عن فجوة ضيقة يفصلها عن الصالون الرئيسي ستارة واسعة وليس فيها سوى القليل من الخصوصية. لقد غادر زوجها في رحلة عمل طويلة إلى أمريكا وبدلاً من أن يأخذها معه لتزور والديها اختار أن يتركها لتقوم بالأعمال البيتية نيابة عن أمه وأخته. قالت: "أمي ليست مسرورة جداً فهي تتصل هاتفياً وتقول أما زلت تشرفين على أقاربه؟ فهي تعرف أنني أعمل حتى الموت وتريدني أن أعود إلى البيت". مشت مارغريت معي عبر الممر وراء المنزل وأنا أنتظر التكسي. كان مطبخ الجيران يحجب الممر بكامله والجو يعبق بروائح بهارات الطبخ الفارسي الشهي. وبينما كانت سيارة التكسي تخط طريقها ببطء نحونا سألتها لماذا لا تستجيب لنصيحة أمها وترحل إلى الوطن لفترة قصيرة على الأقل. قومت كتفيها المقوسين وأسندت ظهرها المجهد بقبضة مطبقة وقالت: "لاأستطيع فزوجي لا يريدني أن أفعل ذلك". إن أمر توقيع الأوراق التي تخولها مغادرة البلاد مرهونة به. وحين كانت تلوح لي تلويحة الوداع رأيت ابنة حماتها تظهر عند الباب. ارتدّت يدا مارغريت إلى رأسها مسوية منديلها فوق خصلات من الشعر الأشقر الشارد.

الفصل السادس

فرض الجهاد على المرأة، أيضاً

﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾

سورة المائدة:35

في البداية كانت لـ"حاضرة درويش" مشكلة مع الموقف المكشوف لمدى البندقية: "كنت دائماً أتساءل، هل بدلتي الرسمية تغطيني بشكل كافٍ؟ هل هناك رجل يطوف المنطقة ورائي؟ "

لكن بعد خمسة أشهر حين تخرجت من صفها في الأكاديمية العسكرية في الإمارات العربية المتحدة، تعلمت "حاضرة درويش" أن تفرغ ذهنها من كل شيء ما عدا الهدف. لقد تعلمت على بندقية الهجوم **M -16** والصواريخ الروسية المحمولة والبنادق الآلية المتعددة الأغراض وعلى المسدسات **9nn**. وهي تعلم كيف تتجنب تحويم طائرة هيلوكبتر وكيف تدير استطلاعاً ليلياً عبر مفازات الصحراء . أصبحت في عام 1992 المرأة الأولى في بلدان الخليج العربي التي تخضع لدورة تدريب في الأكاديمية العسكرية البريطانية "ساندهرست".

لم تبدُ الدهشة على أحد أكثر مما بدت على (حاضرة) نفسها فهي التي ولدت عام 1967 ضمن أسرة من أكثر أسر المجتمع الإسلامي محافظة. في تلك الأيام كانت معظم نساء الإمارات يعشن في عزل شديد. خارج الأسرة كن يرتدين العباءة الطويلة السوداء وحجاباً يغطي وجوههن بل وحتى في البيت كان الكثير من النسوة يرتدين البرقع ـ وهو من الكتان أو الجلد الأسود أو الذهبي . يخفي كل شيء ما عدا العينين. كان إرسال البنت إلى المدرسة يعد خطوة خطرة: فمنذ أقل من عقد مضى لم تكن العائلات المحافظة تسمح لأبنائها بالزواج من فتاة شوهدت مع أي شخص آخر، رجلاً أو امرأة، من خارج إطار العائلة.

كانت أسرة (حاضرة) متطورة بما يكفي لإرسالها إلى المدرسة والسماح لها بالعمل كاختصاصية في علاج الأطفال المعاقين وهذا عمل لا يعني التورط بأي صلة مع الرجال. كانت تذهب إلى عملها وتعود منه وهي ترتدي عباءة ونقاباً. قالت: "هذا أمر لم أناقشه أبداً فأنا، في الحقيقة، ما أزال أفضل أن أرتدي بهذه الطريقة كلما استطعت ولا يمنعني عنها سوى أنها غير ممكنة بالنسبة لجندية". وهي الآن ترتدي أثواباً مموهة للصحراء وفوقها سترة فصلت بشكل طويل وفضفاض كي تغطي ثنيات جسدها. تحت قبعة الجندية يغطي شعرها منديل ملفوف بإحكام.

أصبحت (حاضرة) جندية للسبب نفسه الذي يدفع معظم الناس ليصبحوا جنوداً. فهي تقول: "أنا أحب وطني، لا أريد ان أراه مدمراً" راقبت (حاضرة) برعب غزو العراق للكويت جارتها، وكيف أن القوات الكويتية الهزيلة التي يديرها في الغالب أجانب قد تداعت بسرعة فائقة. لقد فرّ اللاجئون الكويتيون إلى الإمارات حاملين معهم قصص الاغتصاب والدمار.

إن الامارات العربية المتحدة هي صورة عن الكويت: بلد صغير جداً، ثري جداً، مغرٍ للطغاة. في قصر الرئاسة الإماراتي، طلب الشيخ زايد، كرجل استراتيجي، من شعبه أن يفكر لإيجاد طرق لتعزيز جيشهم الصغير الذي قوامه خمسون ألف رجل. والإمارات، بعد كل حساب، لا

تضم سوى أقل من نصف مليون مواطن. كان الفضل لزوجة زايد، الشيخة فاطمة، التي جادلت بأن الدولة البالغة الصغر لا يمكن لها أن تهدر نصف سكانها. وكان حلها الراديكالي: تجنيد النساء.

لم تكن الشيخة فاطمة زوجة زايد الأولى ولا هي الوحيدة. فالشيخ، كزعيم قبلي، قبل توحد الإمارات وتشكيل دولة حديثة، غالباً ما كان يتزوج، مثله مثل النبي، تعزيزاً للاتفاقيات والتحالفات السياسية اللاحقة. وعادة ما كانت الزوجات يمكثن معه بضع سنوات قبل أن يطلقن ويعاد بهن إلى ذويهن بالتبجيل والثروة الوفيرة. لكن فاطمة أسرت لبه، ونالت احترامه وأصبحت السيدة الأولى رسمياً في الإمارات. تزوجت الشيخ كعروس وهي طفلة تحمل ثقافة بسيطة إلى جانب الدراسة الأساسية للقرآن. وقد استخدمت مراجع القصر لتتابع ثقافتها فدرست الانكليزية والأدب العربي الكلاسيكي. في عام 1973 أطلقت جمعية أبو ظبي بما سمي يقظة النساء. هادفة إلى إزالة الأمية وتدريب النسوة مهنياً.

وحتى التسعينيات كان وصول النسوة الإماراتيات إلى العمل حذراً. ولم تبدأ سوى حفنة منهن بالعمل الذي يجعلهن على احتكاك مع الرجال. إحداهن كانت صديقة الشيخة، رائدة تدعى حصة الخالدي، أول مهندسة مدنية إماراتية. وبموافقة زايد أوفدت الشيخة فاطمة حصة لتحل مشاكل تجنيد المجندات الإماراتيات الأول وحمل المؤسسة الدينية على الإقرار بوجودهن.

أخذت حصة استيداعاً من عملها في إدارة الأعمال العامة ومضت مباشرة إلى كتب التاريخ الديني. وكانت القضية الأساسية هي مسألة الجهاد، أي الكفاح المقدس لنشر الدين والذود عن الجماعة الإسلامية. فالجهاد فرض على كل المسلمين بيد أنه يتخذ أشكالاً عديدة. في الذهنية الغربية أصبح الجهاد رديفاً لأعمال الإرهاب التي تنفذها الجماعات الإسلامية المتطرفة. لكن تعليم الدين أو نشر الكلمة عن طريق الحياة النموذجية هما شكلان من أشكال الجهاد أيضاً.

كان دور المرأة في الجهاد قضية، حتى في زمن النبي. ففي السنوات الاولى من الدعوة، كان على الجماعة الإسلامية أن تكافح لتوحد نفسها في وجه عداوة الجماعات الدينية القائمة. طالبت بعض النسوة بالمساهمة. كان الجنود المنتصرون مباركين عند ا لله، وكانوا يثرون من خلال حصتهم في غنائم العدو المدحور. ويسجل لنا الحديث المحاورة التالية بين النبي وإحدى أتباعه: "أنا موفدة النساء إليك. لقد جعل هذا الجهاد فرضاً على الرجال. فإذا ما كسبوا فلهم الجزاء الدنيوي وإذا ما قتلوا فهم أحياء عند ربهم يرزقون. لكننا نحن النساء المسلمات نخدمهم، ما الذي ينالنا من ذلك؟"

رد محمد: "أبلغ النساء اللائي تلتقينهن أن طاعتهن لرجالهن واعترافهن بفضلهم عليهن هو كالجهاد".

استشهدت المراجع الإسلامية الإماراتية بهذا الحديث في جدالها ضد تجنيد النسوة. لكن حصة الخالدي ردت بالشاهد التاريخي الذي يبين أن النساء قد قاتلن بالفعل إلى جانب محمد وشرفهن بذلك.

ولعل نسيبة بنت كعب هي أكثر النساء المحاربات إجلالاً لأنها ساهمت في إنقاذ محمد في معركة أحد. فحين هربت فلول جيش المسلمين إثر المناورة التي قام بها الاعداء، كانت هي بين عشر مقاتلين أفلحوا في الثبات مشكلين درعاً حول جسد الرسول بأجسادهم. تلقت ثلاثة عشر طعنة أثناء وقفتها الصامدة. إحدى هذه الجروح من سيف باتر بجانب عنقها استغرق شفاؤه عاماً كاملاً وهي مستلقية شبه ميتة منذ المعركة، سمعت محمداً ينادي طالباً متطوعين لملاحقة العدو وحاولت أن تنهض وتلبي النداء لكنها أصيبت بالإغماء نتيجة فقد الدم وفي معركة لاحقة خسرت إحدى يديها وقد كرم محمد نسيبة تكريماً جلياً إذ كان غالباً ما يزور بيتها ويأخذ العشاء معه. وبعض أكثر معارضي المسلمين عداوةً كانوا من النسوة أيضاً، فهند ابنة عتبة الشهيرة زوجة القائد المكي أبو سفيان كان لها حضور مخيف في معركة أحد وهي تنشد الشعر الحماسي تشجيعاً للمقاتلين من

جانبها وحطاً من قدر العدو، فأحد أناشيدها المناهضة للإسلام قد بقيت، وتترجم بصورة أولية كما يلي:

الخارج عنا نرفضه

وإلهه نجحده

ودينه نبغضه

فرد عليها عمر صاحب الرسول الرد البسيط المعبر التالي:

لعن ا لله هنداً

من بين الهنود

هي ونسلها الطويل

يلعنها وزوجها معها كذلك

كانت هند لا تخشى شيئاً وحين هزم المكيون المسلمين مسببين لهم خسائر فادحة بحثت هند بين قتلى المسلمين عن الرجل الذي قتل أباها في معركة سابقة، حمزة عم النبي، وحين وجدت الجثة، انتزعت كبده وأذنيه، وشكتهما بالعقود التي كانت ترتديها وهي واقفة على صخرةٍ تدندن أشعار النصر بينما كانت زوجات محمد ونساء المسلمين الأخريات يكافحن لسحب الأجساد من ساحة المعركة قبل أن تُدنس حرماتها. وقد كثرت القصص حول شجاعة المسلمات في ساحة المعركة ، فصفية، عمة محمد هي أول مسلمة تقتل عدواً في معركة، وأسماء بنت يزيد قتلت تسعة رجال من القوى المعادية في معركة اليرموك. وحملت خولة بنت الأزور على العدو وإزارها مشدود على وجهها وحين هجمت عليهم تساءل المراقبون عمن يعرف اسم ذلك الفارس المقدام قرب الرسول.

بعد موت محمد تابعت النساء لعب دورهن في الحملات فحين هاجم المسلمون ميناءً فارسياً حولت عصبة من النساء تقودهن أسدة بنت الحارث إزاراتهن إلى راياتٍ وتقدمن في جماعة نحو العدو فظنوهن تعزيزات وصلت لتوها.

وبسبب تسلحها بهذه الأمثلة استطاعت حصة أن تهزم تدريجياً المعارضين للأكاديمية العسكرية النسوية. "سألتهم إن لم يكن الأمر محرماً آنئذ فعلام نحرمه الآن؟" فلم يستطع المحافظون منهم أن يجادلوا ضد المثل الذي ضربه النبي، لكن سؤالاً واحداً ظل يطرح نفسه: من سيدرب هؤلاء النسوة؟ فالمدربون الإماراتيون المؤهلون ليسوا إلا من الرجال، وهذا أمر لا يمكن التفكير فيه، فالضابط الذكر لا يمكن أن يشرف على تدريب اللياقة الجسدية للنساء غير المحجبات أو أن يلمس امرأةً ليسوي حمل البندقية لها. كان الجواب جلياً لكل من راقب القوات الأمريكية وهي ترابط في العربية السعودية المجاورة، فنساء الجيش الأمريكي هناك كن من بين القوات المنقولة جواً، يقمن بصيانة بطاريات الصواريخ وينقلن الذخائر إلى خطوط الجبهة، طلبت الإمارات من الجيش الأمريكي إمكانية فرز بضعة نساء للقيام بدورة تدريبية أساسية. فاختارت "فورت براغ" عشرة اختصاصيات كان متوسط خدمتهن في الجيش أربعة عشر عاماً وكانت قائدتهن الرائد "جانيس كربنسكي" تخدم في العربية السعودية أيضاً.

قبل بدء العمل رتبت حصّة لكل مجندة أمريكية أسرة إماراتية تمضي عندها يومين كي تأخذ فكرة عن الخلفية الثقافية للمجندات. حين وصلت "تريسي بورون" النقيب في الشرطة العسكرية من "ناشغيل ــ تينيسي"، إلى بيت ضخم لضابط في الجيش الإماراتي أحست بالقلق. "خفت أن ينظروا إلي بوصفي غريبة تقتحم منزلهم وتطلع على أساليب معيشتهم". بخلاف ذلك وجدت نفسها ضيفة مكرمة. وأكلت معهم لحم الجمل ("حلو وذو شحم نوعاً ما")، جربت أن تضع البرقع :"شعور عجيب ــ مثل من يحاول أن يختبيء عن شخص ما". وشاهدت النساء يعطرن أنفسهن بوضع صواني البخور المحروق بين سيقانهن تحت الثياب: "كنت على يقين أنهن جالسات على النار".

كانت حصة، خلال تلك الفترة ، تدرّس الطالبات اللواتي أتين من ألف ومئتي امرأة استجبن للإعلانات التي طلبت متطوعات. اختارت أربعا

وسبعين امرأة تتراوح أعمارهن بين السابعة عشر والواحد والثلاثين وتعليمهن بين الصف السادس وخريجات الكليات، قالت: "في البداية حاولت أن أستبعد النسوة ذوات الأطفال الصغار لكن ذلك كان مستحيلاً." فالنساء في الإمارات ما زلن يتزوجن وهن صغيرات تماماً ويبدأن تكوين عائلاتهن بأسرع ما يمكن، لذا كان لمعظم النسوة في مجموعة السن المناسبة أطفال صغار. لكن بما أن معظمهن يعشن في أسر واسعة فهناك الكثير من الأمهات والعمات في معظم البيوت اللائي يقدمن العناية للأطفال طبعاً. تبين لحصة أن الكثيرات ممن تقدمن بطلبهن يتحدرن من أسر فيها الأب أو الأخ في الجيش. وقد تضمنت المجموعة المنتمية حوالي سبع مجموعات من الأخوات. كانت الخطة في البداية ـ حين قامت المدربات الأمريكيات بتقسيم المجندات إلى ثلاثة فصائل ـ ان يتم فصل الأخوات عن بعضهن لكنهن تراجعن عن قرارهن هذا حين وجدن أن النسوة يكون أداؤهن أفضل بوجود الأخوة. لم تكن أي منهن نشيطة جسدياً فمعظمهن لم يقضين ليلة واحدة بعيداً عن البيت، وما تزال "تريسي بورون" تتذكر خجلهن البالغ، هؤلاء اللواتي ربين منذ طفولتهن على الأمر القرآني القاضي بأن ﴿يغضضن من أبصارهن......﴾، ألفت هؤلاء النسوة أنفسهن والمدربة تصيح بهن أن يترادفن أو يسوين أكتافهن ويحدقن بأعين ضباطهن. تتذكر (تريسي) أنها اضطرت في البداية إلى المرور عليهن ورفع ذقونهن كي ينظرن إليها.

كان على الأمريكان أن يعدلوا بعض جوانب برنامجهم التدريبي "فضباط التدريب حين كانوا يصرخون عليهن لإعطاء الإيعازات أو للدخول إلى المعسكر كانوا يرعبون هؤلاء النسوة المسكينات حتى حدود الموت"، هذا ما تتذكره جانيس كربنسكي. "المجندات الأمريكيات كن يتوقعن ذلك ـ فهن قد شاهدن كل الأفلام السينمائية". تعلم ضباط التدريب أن السخاء في مدح المجندات اللائي قمن بعملهن بشكل جيد كان مجدياً أكثر من توبيخ أولئك اللواتي ارتكبن اخطاءً، فقد تربت هؤلاء

النسوة على الدلال"، هدا ما اكتشفته "تريسي بورون": "لذا حاولنا أن ندخل السرور إلى أنفسهن". أما التعديلات الأخرى فقد تضمنت ترتيب برنامج التدريب ليتضمن أوقات الصلاة وإعادة جدولة التدريب الجسدي المتعب في أوقات الليل خلال شهر رمضان بعد أن تكون النسوة قد تناولن إفطارهن بعد صوم طويل. كانت "جانيس كربنسكي" وبعض المدربات الأخريات يصمن النهار بطوله مع مجنداتهن. "أردت أن أظهر التضامن معهن لكنني أردت أيضاً أن أعرف بالضبط ما هي حالتهن الجسدية. فلو أن إحداهن قالت لا أستطيع أن أجري مسافة أربعة أميال كنت أقول: لا بل تستطيعين لأننا نحن نستطيع ونحن صائمات أيضاً."

وباستثناء رمضان كان يومهن يبدأ بالآذان للصلاة حوالي الساعة الخامسة وثلاثين دقيقة كل صباح. بعد الصلاة تصطف المجندات في بدلاتهن السوداء الحلوة من أجل التدريب الجسدي. قالت تريسي: "كنا نقوم بالرياضة قبل أن يظهر أي من الإداريين الذكور." بهذه الطريقة أمكن للمجندات أن يعملن ورؤوسهن مكشوفة مع احتفاظن بمناديلهن مربوطةً على خصورهن بشكل دائم.

لم تتخرج من الدورة سوى خمس عشرة امرأة فقط، وبعضهن لم يستطعن التغلب على وجود قلة من الإداريين الذكور في المدرسة العسكرية، و لم يتمكن البعض من الابتعاد ، شوقاً ، الى أسرته أو لخدمه. واللائي بقين نجحن نجاحاً باهراً. في البداية خفض المدربون الأمريكيون متطلبات اللياقة كي يتمكنوا من استيعاب النسوة اللائي لم تضطر إحداهن لأن تمشي إلى مخزن البقال من قبل فكيف يستكملن مسيرة إجبارية. لكن خلال أسبوع واحد، اضيفت بنود اخرى لبرنامج التدريب، فقد أجادت النسوة القيام بمائة قفزة في اليوم بسهولة، إحدى المتدربات أنزلت وزنها أربعة وأربعين رطلاً خلال خمسة أشهر من التدريب. حين أوشكت الدورة على نهايتها في أيار 1991، تقول "جانيس كربنسكي" : "في الثلاثين يوم الأخيرة لم أشاهد امرأة أبداً إلا وكتفها مستوٍ ورأسها مرفوع

عالياً"، بعد أن أخذت حاضرة درويش إذناً لزيارة أسرتها صُدموا بالتغيرات التي طرأت عليها. "أخبروني أن أشياء كثيرة جداً قد تغيرت بي، من طريقتي في المشي إلى تصرفاتي معهن وقد أحبوا أشياء وكرهوا أشياء". وجدت (حاضرة) صعوبة في إقناع صديقاتها الجالسات في صالونها المذهب، كن يهززن أكتافهن لدى سماعهن قصصها عن حفر جحور الثعالب والحراسة طوال الليل في مخيمات الصحراء.

"كن يقلن لي: "عليك أن تعودي، لقد كان خيارك خاطئاً"، لكنني أعلم أن خياري كان صحيحاً".

في تلك الأثناء وجد بعض الضباط القادة في جيش الإمارات صعوبة في الإقرار بالنتائج الطيبة التي حققتها المجندات من النساء، فالعقيد الركن محمد ناصر آمر الأكاديمية قد اعترف منذ البداية أنه أحس بفتور تجاه فكرة المحاربات النساء برمتها. قال: "لو كان لدينا عدد أكبر من السكان لرأيت أن من الأفضل للنسوة أن يبقين في البيت." لكنه تدريجياً أعاد النظر بوجهة نظره حول امكانياتهن. في البداية رفض أن يصدق أن النساء يسطتعن إصابة الهدف. قال: "حين رأيت النتائج الثمانية والثلاثين من أربعين أصبت بالذهول.". النساء في نهاية المطاف قد ترعرعن في جو لم تلعب فيه البنات إطلاقاً حتى بالتسديد ببندقية لعبة. وتساءل العقيد الركن فيما إذا كانت النتائج العالية انعكاساً لعيبٍ في مدى الرمي المستحدث في أكاديمية النساء. ولكي يتأكد من الامر، أمر أن تتم الرماية ضمن مدى رمي أكاديمية الرجال وطلب من النسوة أن يعدن الإختبار وهناك راقب بدهشة متزايدة كيف تضرب الرصاصات الواحدة تلو الأخرى الهدف في منتصف الدريئة تماماً.

قبل أن أمضي إلى الشرق الأوسط كنت أجد نفسي دائماً في الجانب اللين في كل جدال. بالرغم من الدليل الساطع على العكس (غولدمائير، مارغريت تاتشر) كنت أعتقد أن عالماً يزداد عدد النساء فيه في مراكز القوة سيكون مكاناً أكثر أمناً. لذا بدا غريباً ومحزناً قليلاً أن من بين كل

الحقوق التي تطمح المرأة لنيلها فإن الحق الذي نالته (حاضرة) وزميلاتها هو الحق في أن تقتل أو تقتل. ومع ذلك كان من المستحيل ألا نعتز بالقوة التي اكتشفتها الإماراتيات في أنفسهن، والمهارات التي أجدنها والثقة التي بدت مشرقةً على كل وجه التقيته في القاعدة.

لقد تلمست هذه المفارقة مرة من قبل، في أريتريا وأنا أجول في فندق محفور تحت قمة جبل إفريقي، على بعد بضعة أمتار كان الجنود الأثيوبيون يحدقون بالمناظير بانتظار أن يأتي أي منا بحركة، كان بين الجنود الأريتيريين المئة على خط المواجهة حوالي خمس عشرة امرأة منهن الضابط القائد. هؤلاء الأريتيريات المشتركات في حرب العصابات قد شهدن أسوأ ما يمكن للحرب أن تقدمه. رأت إحداهن صديقتها وقد أصيبت بقذيفة كلاشينكوف في وجهها فاصلةً فكيها. وأخرى كانت تحمل يد زميلتها بدلاً من ساقها التي مزقها لغم وبترت دون تخدير . كانت المرأة تتحدث عن هذه الأمور ببراغماتية حزينة، فمعظمهن كنٍ قد ولدن بعد أن احتدم الصراع مع أثيوبيا في عام 1962 و لم يعرفن شيئاً عن بلادهن إلا وهي في حالة حرب وكما هو الحال في الإمارات انضمت النساء الأريتيريات إلى ميليشيات لأنهن شعرن بضرورة ذلك فلم يكن هناك رجال بما فيه الكفاية لمواجهة تحدي غطرسة أكبر جيش إفريقي . وكان مجتمعهن أكثر مقاومة لفكرة إشراك النساء في الحرب من مجتمع الإمارات. في عام 1960 كان وضع نساء القرى الأريتيرية متدنياً جداً لدرجة أن المرأة لا يفترض بها أن تكلم زوجها إلا لأمر غاية في الضرورة، فالدورة الشهرية حسب الرأي القرآني هي "مرض" ينبغي للمرأة خلالها أن تمتنع عن الجنس والصلاة بل إن الأريتيريين طوروا ذلك ، بإرغام الحائض على مغادرة بيتها لمدة أسبوع كل شهر وعزل نفسها ليلاً نهاراً في حفرة معدة "للنجسات".

حين اندلعت الحرب مع أثيوبيا أصرت بضع نساء على القتال. "في البداية كانوا بحاجة إليهن لذا لم يجرِ رفضهن" هذا ما تقوله "تشيتشو تسفماريام" التي أصبحت هي نفسها مقاتلة في السابعة عشر من عمرها

لقد حققت بسالة المقاتلات احتراماً جديداً للنساء بوجه عام وأدت إلى تحطيم الكثير من المحظورات. الأريتيريون فقراء حتى حدود اليأس، لديهم قلة من المصانع، لكن كإشارة إلى إراحة مقاتلاتهم استثمروا بعض مصادرهم النادرة في منشأة لإنتاج المحارم الصحية. ظروف الحياة في خط المواجهة قاسية حتى حدود اليأس والجنود الهزيلون والسيئو التغذية منذ أن أدت سنين القحط إلى تقليص مخصصاتهم، يعيشون على عصيدة العدس الممزوجة بالخبز الاسفنجي، ومجموعات خنادقهم التي من طراز خنادق الحرب العالمية الأولى محفورة أميالاً عبر سلاسل الجبال العالية. والمؤن ينبغي أن تحمل باليد ويصعد بها في وجه الصخور التي تكاد تكون شاقولية، وهذا العمل شاطرت المرأة فيه الرجل على قدم المساواة، والجميع ينامون على الثرى.

ينحدر المحاربون من خلفيات اجتماعية متنوعة تنوعاً واسعاً. فبعضهم كالمثاليين المتخرجين من الجامعات والذين عادوا من المنفى لكي تدرج أسماؤهم بين المقاتلين، رأوا من الطبيعي أن تقاتل المرأة والرجل جنباً إلى جنب، بينما وجد آخرون كالفلاحين البسطاء صعوبة في تقبل الفكرة.

فاسماعيل إدريس راعي الماعز البالغ من العمر الثالثة والعشرين والمسلم الورع، لم يكن قد كلم في حياته كلها امرأة من خارج أسرته، حين وجد نفسه فجأة يتلقى الأوامر من امرأة. "النساء المقاتلات سمعت بهن في البداية بل ورأيتهن عندما كنت أتجول مع غنمي"، قال اسماعيل ذلك وهو يتشمس على جرف صخري أثناء استراحة نادرة وقت القتال. "لكنني لم أصدق أبداً أن امرأة يمكن أن تعطي الأوامر لرجل". كانت آمرة مجموعة اسماعيلٍ امرأة قصيرة قوية صموتة في مثل سنه تدعى "حويت موغيس" ، متمرسة لمدة ثلاثة عشر عاماً بالقتال على خطوط الجبهة وتتحدر من وسط مسيحي "الآن وقد جربت الأمر عملياً، فقد بدأت بقبوله". قال ذلك بصوت ما زال يبدو عليه التردد في قبول هذه الفكرة، "حين يكون التسلح عسيراً تجري صاعدةً الجبل وحين تدور رحى المعركة تكون في

مقدمة الجنود، وحين يُجرح أحدهم فهي التي تحمله خارج ساح القتال". فرد راحة يده وهز كتفيه هزة مريضة. "ما الذي يمكنني قوله بعد أن رأيت كل هذه الأمور؟" بعد بضعة ليال توقفت الحرب وقفة نادرة من أجل العرس. فالمقاتلون يتزوجون جماعاتٍ ضخمة لأن زوجاً واحداً لا يستطيع أن يقدم الوليمة التقليدية من لحم الماعز. راقصة شابة ترتدي زياً مصنوعاً من أكياس القمح كُتب عليها: "هدية من جمهورية ألمانيا الفيدرالية" قفزت وفتلت على الرمل، لحقها مائة وعشرون عريساً وعروسةً، كلهم فرحون بملابس الخاكي الرخيصة نفسها التي كانوا يرتدونها في المعركة قبل وقت قصير، القرائن ازدوجوا وأمسك كل بيد قرينته بانتظار آمر فرقتهم لكي يقرأ أسماءهم ويعلنهم زوجاً وزوجة. وكل زوجين يتلقيان وثيقة زواج كُتبت في ديوان المقاتلين تحت الأرض تحمل الشاهد المأخوذ من قانون الزواج لعام 1977 ينص أن الاقتران كان "بإرادة حرة قائمة على الحب بين الشريكين."

جلست على الرمل استمع لقائمة الأسماء الطويلة. نورا حسيني تتزوج حيلة كبرنيشيل، عبدا لله داوود تزف له عبابة مريام، مسلمون ومسيحيون يتزوجون بعضهم بعضاً بالعشرات. قالت تشيتشو وهي تجلس على الرمل بجواري: "من الممكن أن هؤلاء الناس ينحدرون من آباء علموهم أن يموتوا جوعاً قبل أن يتشاطروا الطعام من طبق أناس من غير ملتهم". لكن في خنادق هذه الحرب الطويلة تشاطر هؤلاء الشبان والشابات الكثير من الخوف والانتصارات والإيمان بصدق. في الظلام استطعت أن أتبين وحه تشيتشو الجانبي فهناك نصف ابتسامة حزينة تطفو عبر وجهها، همست قائلة: "ليس كل ما تجلبه الحرب سيئاً".

ولسوء الحظ ليس كل ما يأتي زمن السلم خيراً ففي عام 1994 عدت إلى أريتيريا التي استقلت منذ أكثر من عام، لقد سقطت العاصمة (أسمرة) في أيدي الثوار دون قتال. دون أن تتأثر بالقتال الذي أحال معظم البلاد إلى دمار: كانت مبانيها الإيطالية الطراز تتلألأ تحت أضواء شتوية لطيفة،

وجدرانها الطينية تتلألأ بألوان قرمزية. الشوارع نظيفة والمشي فيها آمن حتى في أواخر الليل. ففي أيام الحرب كان الناس حتى أساتذة المدارس يحملون رشاش (AK 47) أما الآن فلا أحد يحمل السلاح لا في المطارات ولا في مداخل الأبنية الحكومية/ أحد أكثر شعوب العالم عسكرة قد وضع السلاح الآن، لأن حركة المقاومة وصلت إلى السلطة و لم تتلوث بها بعد. ما يزال قادة الحركة يرتدون الصندل البلاستيكي الرخيص الذي حاربوا به ولا أحد بينهم بمن فيهم الرئيس يأخذ مرتباً، فهم كالمقاتلين الآخرين يتبرعون بجهدهم لمسعى إعادة البناء.

لكن السلام بالنسبة للمقاتلات، قد أثمر خيبات لم تكن في الحسبان. منحت الحكومة الجديدة النسوة حق المشاركة السياسية وحقوقاً تشريعية أخرى كحق الملكية وتوارث الأرض، وحرمت أيضاً الختان الجنسي في المستشفيات. وأشرفت على سلسلة إذاعية ينص فيها المفتي الإسلامي والبطريرك المسيحي أن هذه الممارسات ليست ملزمة دينياً.

ومع ذلك تغلبت تقاليد المجتمع المريض على الثقافة التي نشأت على خط المواجهة. فجأة عاد المقاتلون إلى بيوت أسرهم الذين قضوا الحرب تحت نير قوى الاحتلال الأثيوبي. وغالباً ما كانت تبدو أخلاقيات المقاتلين التقدمية غريبة على القيم المحافظة العميقة الجذور لآبائهم. تقول روزا كيغلي مارين، البالغة الثالثة والثلاثين من عمرها والتي قضت ثمان سنوات في الجبهة: "معظمهم يحترموننا ـ وهم يدركون أننا عشنا بطريقة مختلفة، لكن الآخرين يقولون لنا، ذلك كان ـ ونحن الآن، عليكم أن تعيشوا وفق طريقتنا".

في عام 1989 تزوجت روزا من مقاتل زميل لها ، في أحد احتفالات الزفاف التي كانت تجري في الجبهة. كان القرينان يخدمان في قطاعين مختلفين إذ لم يمضيا معاً شهراً واحداً قبل أن يحل السلام. وتحاول الآن هي وزوجها أن يتعرف كلٌّ على الآخر وسط ضغوط عائلية هائلة. فحماة روزا لم توافق على خروج زوجة ابنها للعمل وطلبت منها أن تتخلى عن

عملها كموظفة تمويل في اتحاد النساء الأريتيريات. "كلما شاهدتني تبدأ بالقول: لماذا لا تنجبين أطفالاً ؟ لماذا لا تمكثين في البيت".

وجدت الأسر، وخاصة في القرى، صعوبة في قبول الشابات العنيدات اللائي اعتدن على المساواة المطلقة بل وحتى على المناصب القيادية في الوحدات العسكرية. في هذه الحالات كانت الأسر تلح على الطلاق مقدمين لأبنائهم بنات قرويات ساذجات كزوجات بديلات مستعدات لغسيل أيديهم وأرجلهم. إن هذه التوترات تصبح بالغة الخطورة حين تكون الزوجة والزوج من خلفيات دينية مختلفة.

أما بالنسبة لشابة مقاتلة غير متزوجة فالمستقبل إشكالي. فهي من ناحية بطلة لكن هذا لا يجعلها موضع ترحيب كزوجة في القرى التي ما تزال تعطي أهمية كبرى للعذرية. لقد بدأ صراع جديد بالنسبة لروزا ولنساء أخريات "علينا أن نكافح الآن لنجعلهم يفهمون أن لكل فرد الحق في أن يعيش بحرية، وهذه حرب أخرى على ما أعتقد".

الفصل السابع

الملكة

"إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كـل شيء ولها عرش عظيم"

سورة النمل - 27: 23

لقد أصبحت طرق القوافل القديمـة في المملكـة السـعودية طرقـاً دوليـة الآن. وقافلة الجمال الراغية التي قادها محمد لخديجة من الميناء السـاحلي إلى الحصن الداخلي قد زالت أيضاً. بدلاً منهـا تـأتي الشـاحنات العملاقـة مـن العقبة إلى مكة عبر سحب الديزل والغبار. لم يبـقَ مـن الواحـة هـذه الأيـام سوى محطة للشاحنات لاتوجد فيها نخلة واحدة .

في ربيـع عـام 1989 ذهبـت لأغطـي أحـداث الشـغب في أحــد هــذه الأماكن ـ بلدة صغيرة تدعى معان في وسط الصحراء الأردنية. رفع رئيس وزراء الأردن أسعار الغـاز فتدفـق سـائقو شـاحنات "معـان" إلى الشـوارع للتظاهر. وامتد الشغب هنــاك إلى كافـة أرجـاء الأردن، مهدديـن استقرار الملك حسين صاحب الملكية الأطول عمراً في تاريخ الشرق الأوسط. تلـك قصة كتبتها أكثر من ست مـرات، بلـد فقـير يحتـاج الى المسـاعدة، ولكـي

تتدفق الرساميل الاجنبية والمساعدات الدولية، فان الامر يحتاج إلى إصلاحات اقتصادية، و الأوضاع قاسية جداً، والشعب يتمرد.

لكنني هذه المرة، وأنا أجلس على ما تبقى من كرسي في بنك معان المدمر، اتخذت القصة مجرىً مختلفاً عما كنت أتوقع أن أسمع. كان يجلس قبالتي على جوارير أحد خزائن الأضابير المقلوبة، بدوي معمر في عباءة قاتمة يلعب بأهداب كوفيته. كان مع الغوغاء التي طافت المدينة منذ أسبوع مضى. "طالب المتظاهرون بتخفيض الأسعار، نعم. إنهم فقراء، والزيادة ستأخذ اللقمة من أفواه أطفالهم. لكنهم ما كانوا يهتفون من أجل ذلك فقط". نظر حوله ليتأكد من أن أحداً لا يسمعه، "كانوا يصرخون مطالبين الملك بتطليق الملكة."

ومثلي كمعظم المراسلين الصحفيين في الشرق الأوسط لدي معرفة طفيفة بأن الملك حسين قد تزوج أمريكية. لكنني كنت أفكر بها كفتاة غلاف للصفحات الاجتماعية، لا كواحدة يُرجح أن تزج كشعار في شغب حول الأسعار .

" لدى الناس هنا أسئلة كثيرة عن الملكة ". قال البدوي ذلك تاركاً يده تنزلق عن كوفيته إلى جيوبه، بحثاً عن مسبحة. وإذ راحت حبات المسبحة تطقطق بين أصابعه الملطخة بالشحم. عدد الأسئلة واحداً تلو الآخر،" هل كانت عذراء حين تزوجها الملك ؟ هل هي مسلمة حقاً؟ إن كانت كذلك فلماذا لاتغطي شعرها؟ هل صحيح أنها تساند المسيحيين؟. أهلها من حلب (المدينة السورية التي ولد فيها جدها قبل أن تنتقل العائلة إلى لبنان) في حلب الكثير من اليهود فكيف لنا أن نعرف أنها لا تحمل دماءً يهودية؟ لقد سمعنا أنها أرسلت من قبل الـ **CIA** لتسمم الملك.

كان البدوي برماً من البعبع المألوف في الشرق الأوسط: أمريكا بوجه عام والـ **CIA** بوجه خاص، واليهود أو إذا لم يكن اليهود فمن المسيحيين، وشهوانية النساء ــ الخوف من ماضٍ والذعر من الانعتاق الحالي الذي يشير إليه غياب الحجاب. كان من الصعب أخذ صخبه مأخذاً جدياً، لكن

زوجات الحكام، في إيران ومصر، قد استخدمن كمانعات صواعق للمعارضة، أو على الأقل كان نقدهن مؤشراً على اقتراب القلاقل. ففرح زوجة الشاه، وجيهان زوجة السادات كن عصريات بشكل مبالغ فيه، نساء من علية القوم ناضلن من أجل الإصلاح فما الذي كانت تفعله الملكة نور لتستحق كل هذا الازدراء؟

في الرابعة والخمسين من عمره، كان زوجها الملك حسين من عظماء الشرق الأوسط. في الثالثة عشرة من عمره نجا بأعجوبة من القتل برشقات رصاص قاتلٍ جده. في عام 1951، أي في الخامسة عشرة من عمره ورث عرشاً متقلقلاً، ظل قائماً بعد خسارة الضفة الغربية ـ نصف مملكته ـ باحتلالها من قبل اسرائيل عام 1967، أخمد انتفاضة فلسطينية مسلحة عام 1970، وفي عام 1989 كان قد حكم لمدة ثمانية وثلاثين عاماً. "لقد حضر مراسم دفن كل أولئك الذين قالوا أنه لن يستمر أسبوعاً" هذا ما يقوله له (دان شفتون) محلل اسرائيلي للشؤون الأردنية. وفي أيام الشغب فعل الملك ما يجب فعله. أقال رئيس الوزراء زيد الرفاعي، ووعد رعاياه الغاضبين بأول انتخابات عامة بعد عامين. وإني لأتساءل إن كان زواجه من نورا زوجته الرابعة والأطول إقامة معه، لا بد له من التخلص منها كي يبقى على قيد الحياة.

عندما اندلعت أعمال الشغب كان الملك والملكة في واشنطن يتناولان طعام العشاء في البيت الأبيض، وأظهرت الصور الملكة نور متألقة في البدلة البحرية الزرقاء ويقال أن أختها حضرت حفل العشاء وهي تتأبط ذراع المخرج (جورج لوكاش). دفعتني تلك الأحاديث الغاضبة عن قيمها وتطرفها الأمريكيين للتقدم بطلب إلى القصر من أجلٍ مقابلة مع الملك، ومع أنني لم أكن أتوقع رداً فقد أرسلت تلكساً طالبة فيه أن أرى الملكة أيضاً لأتحدث معها عن الطريقة التي جعلتها هدفاً لمثيري الشغب. ويا

للمفاجأة فقد تلقيت جواباً فورياً تقريباً ، بموافقة جلالتهما على مقابلتي، وأبلغت بأن سيارة من القصر ستنقلني من الفندق.

كنت دائماً أرتحل ومعي بالإضافة إلى شادوري ماكنت أسميه "بدلتي الملكية" - ثوب ايطالي محتشم موشى بالحرير يقبع دائماً في زاوية حقيبتي وتبين أنه محترم بعد مقابلة صحفية سريعة في قاعة استقبال أحد الفنادق. ارتديت البدلة مع حذاء عالي الكعب لم ألبسه منذ يوم عرسي ونزلت لأواجه جندياً يحمل مسدساً وراء مقود مرسيدس فضية.

يقع القصر الملكي على تلةٍ قرب مركز عمان القديمة، المدينة التي كان اسمها الروماني "فيلادلفيا" أي مدينة المحبة الأخوية. يحيط بالبلاط الملكي بوابات حديدية عالية صممت لحماية من في الداخل من الكره الأخوي. دخلت إلى مجمع القصر مرة من قبل ، لكنني لم أتجاوز مكاتب الملك، الديوان، حيث الجنود الشراكسة بقبعات الفروة العالية يقفون حرساً، وينتظر موظفو البلاط الخانعون طلبات الملك. توقعت أن يجري لقاؤنا في مكتب الملك المرصوف بالكتب لكن السيارة تخطت درج الديوان الفخم، وأنزلتني تحت المراوح الدائرة لهليكوبتر سوداء من طراز (هوك). وكان الملك في مقعد الطيار، صاح بي: "اربطي حزام الأمان" مقدراً أنني في المقعد خلفه.

دفع الملك عصا القيادة إلى الأمام وأقلعنا عن الأرض محلقين تحليقاً منخفضاً فوق القصر، وفوق بيوت عمان ذات السقوف المسطحة التي تشبه خلية النحل. وفي غضون ثوانٍ خلفنا المدينة وراءنا، تصفحنا أيكات شجر النخيل العتيق، وأضلع الصخورٍ البيضاء. في عمان محلات الأطعمة السريعة التي تسمى "بيتزا نيويورك" والمحلات التجارية العملاقة التي تضع المواد في جمادات عميقة تمنح الأردن طابعاً غربياً مألوفاً. لكن القشرة العصرية رقيقة كقشرة طبقة الرمل، حيث تقبع تحتها المشاهد القبلية القديمة المسكونة برجال القبائل الذين يعيشون من وراء الماعز وأشجار الزيتون وتحالفات الدم كما كانوا منذ الأزل. درج ونستون تشرشل أن يتبجح بأنه ابتدع الأردن بشطبة قلم عصر يوم أحد. ففي لقاء في القاهرة في عام 1921 كان تشرشل

ولورانس العرب يتسليان بدولة شرق الأردن التي لها شكل الآميبيات على خريطة الجزيرة العربية لتأمين عرش لحليفهم عبد ا لله الذي ساعد لورانس في قتاله ضد الأتراك في الحرب العالمية الأولى. وكان الشريف حسين ـ والد الامير عبد ا لله من الجيل الخامس والثلاثين المتحدر مباشرة من نسل النبي محمد ـ حاكماً لإقليم الحجاز، إلى ان انطلق آل سعود من صحراء نجد إلى الشمال وأطاح بمملكته.

قتل الفلسطينيون الملك عبدا لله عام 1951 ، وكان ابنه طلال مريضاً عقلياً فاستقال بعد عامين، فورث حسين المراهق عرش دولةٍ كان عدد اللاجئين الفلسطينيين فيها قد بدأ يفوق عدد عرب الصحراء من أمثاله. كان هؤلاء يتدفقون عبر الحدود بعد كل حربٍ مع اسرائيل، والأردن وحدها من بين الدول العربية قد منحت الجنسية للاجئين الفلسطينيين من الضفة الغربية. لكن في "أيلول الأسود" عام 1970 أحس الملك أن الفلسطينيين يحاولون الهيمنة على مملكته فسحقهم موقعاً بهم خسائر فادحة.

حدقت بخوذة الملك التي كتب على قفاها: "حسين الأول". كان من السهل في الغرب أن ننظر إلى الملك ببساطة كمحدث لبق ساحر، ودبلوماسي مثقف، لكنه هنا كان امرءاً أوسع سلطة بكثير، كان تجسيداً لسلفه النبي محمد، إماماً للمصلين وسيداً في الحرب وأباً للقبائل. كان يجب أن يراه شعبه قائداً من هذا النوع ـ وليس مجرد شخص على شاشة التلفاز، يتحدث لغة الدبلوماسية الجافة مع الأجانب. لقد فقد الحسين المنهمك بالسياسة الخارجية الاحتكاك بشعبه، وكان في طريقه لرأب هذا الصدع.

لم يبدُ على الولايات المتحدة أبداً أن فقدت قابليتها للدهشة حين يُطاح بأحد القادة الأجانب الموالين لها. أظن أن ذلك يعود جزئياً إلى أننا نرى هؤلاء الرجال كما يظهرون في تعاملهم مع الغرب، وليس لدينا أي إحساس بالكيفية التي يظهرون فيها أمام شعوبهم: ذلك الجمهور العملاق الذي لابد من أخذه بالحسبان في العلاقة مع أعظم الأباطرة.

حين وجه الحسين الهيلوكبتر إلى ضواحي مدينة صحراوية. خنقت هتافات الجمهور المحتشد أصوات المراوح : "بالروح، بالدم نفديك يا حسين". عبر الغبار المدوم، كانت الوجوه المشدودة نحو الملك مجهدة بل وحتى متألمة، والأجساد منحنية إلى الأمام يصدها جنود الحراسة الذين كانوا يضربون على الجماجم والأكتاف كما لو كانوا يتعاملون مع ألد أعداء الأمة. أما الملك ذو الهيئة الرمادية الحزينة عادةً فقد رمى خوذته وألقى على رأسه كوفية بيضاء وحمراء تغطي رأسه الأقرع، ثم غاص بين الحشد.

نزلت من الهيلوكبتر أتبعه وسرعان ما فصلت عنه وعن حرسه الشخصي، كان الحشد يتحرك ككينونة واحدة مخبولة، احتشدوا خلف الملك وحملوه مندفعين إلى الأمام. أحسست أنني أُجر بالاتجاه الآخر، سمعت صوت صرير تمزيق الحرير حين علقت سترة بدلتي الملكية بحزام خنجر بدوي، وإذ كنت أهرول بحذائي غير العادي والعالي الكعبين، كنت أحاول أن أُبقي نفسي منتصبة، وقع بصر أحد الجنود من حراس الملك الشخصيين علي، فراح يلعن ويشق طريقاً عبر الأجساد المتلاصقة، أخذ بيدي وراح وهو يتابع ضرب أي فرد حولنا يعيدني إلى الوراء باتجاه العين الهادئة نسبيا للعاصفة، التي حافظ عليها زملاؤه حول الملك.

كانت الموجة تحملنا نحو مجموعة خيم. حين اقتربنا ارتفعت أنة صاخبة فوق الهتافات، فقد كان أمام الملك مباشرة جمل يتمايل على ركبتيه ثم ينتفض مثل دمية تسرب منها الهواء وأخذت تتلاشى تدريجيا، يتشنج تشنجات ضئيلة في بركة دمه الوردية، وعبر الخناءة عنق الجمل الطويل خطت مدية الجزار الطقسية ما يشبه ابتسامة. وكما تقضي التقاليد خطا الملك عبر دم الأضحية الترحيبية، ودفعني حرسه الشخصي خلفه. بعد أيام عندما نظرت إلى حذائي تخيلت أنني ما أزال أستطيع رؤية العلامة الصدئة التي وصلت إلى منتصف الكعب.

وحين وصلنا إلى ظلال خيمة من شعر الماعز، قام قبلي بثوب أبيض ويدين مرتجفتين بصب القهوة من دلة طويلة مزخرفة في فنجان صغير ليس له

مقبض. رفع الفنجان إلى فمه وهو يرتجف بشدة، وازدرد ما فيه ليثبت أنه ليس مسمماً، ثم صب وهو ما يزال يرتجف فنجاناً ثانياً لمليكه.

مرّ ذلك اليوم الطويل المحرق بكامله وكأنه لوحة حية من ألف ليلة وليلة، فقد كان هناك شاعر حافٍ يردد أشعاره مدحاً للملك، وبدوية عجوز في لباس أسود ووشم أزرق على الوجه، قدمت التماساً إلى يد الملك. كان الملك على الغداء يغرس يده في المنسف الساخن الذي وضعت فيه رؤوس الحملان فوق كومة الرز. كان رجال القبيلة الكبار في سن والده يقبلون كتفيه وأنفه. وكانوا يخاطبونه بطريقتهم الصحراوية بكنيته: "أبو عبد الله".

نسيت عدد المواقع التي زرناها ونحن ننتقل بينها بسرعة. كان منظر الملك الحزين يفقد الكثير من رماديته عند انقضاء النهار. وقبيل الغروب كنت مندهشة تقريباً لأن الهيلوكبتر كانت تنزل مرةً أخرى في عمان، وصوت الملك الناعم يطلب مني أن أنضم إليه في الندوة في قصره الحجري القرمزي. قال: "نور بانتظارنا".

وسط العتبة العملاقة أشار باتجاه حمام ثم غاب فوق السجاجيد الفارسية ماراً على خزائن عرض السيوف والبنادق القديمة، صاعداً الدرج، كل درجتين دفعة واحدة كصبي.

رشقت وجهي بالماء الساخن الذي تدفق من صنابير ذهبية وانصب على شعري المغبر المنفوش والذي مشطته بمشط مذهب موضوع على لوح الرخام المتلألىء. وإذ ظهرت كانت الملكة تنزل الدرج في ثوبٍ من الطراز الفلسطيني موشى بالحرير والذهب. كان شعرها الذهبي الأشقر ينسدل خصلاً سائبة على ظهرها، كانت رشيقة وطويلة جداً ـ أطول من زوجها بخمسة إنشات على الأقل. في الصور الرسمية كانت دائماً تتخذ وضعية تظهرها أقصر منه وتساءلت عما إذا كان هو يعتلي صندوقاً أثناء التصوير أم أنها تنزل في حفرة.

ابتسمت ومدت يدها لتصافحني بطريقة أمريكية واثقة. قالت: "سألت جلالته عن حالك فقال: "حسن إنها مغبرة قليلاً"، لكنك لا تبدين هكذا

لي، فلنتحدث في الحديقة، إنها أفضل مكان في البيت" ، عام 1970 اضطروا لوضع زجاج مقاوم للرصاص على كل نوافذ الطابق الثاني. أظن أن ذلك يجعل الداخل يشعر برهبة الاعتقال".

انطلقت عبر الأبواب الفرنسية إلى مطلّ يُفضي إلى الإيوانات وأصص الأزهار. كانت أضواء العصر تنسكب مذهبة. مضينا إلى كرسيين قرب عريشة ياسمين. وضعت دفتر ملاحظاتي على ركبتي. "تحتاجين طاولة" وحين لاحظت طاولة حديدية من طاولات الحديقة عبر الإيوان ذهبت وأحضرتها بنفسها مبعدة الخادمة الخائبة المنظر التي اندفعت لمساعدتها. فقد كانت دائماً رياضية قائدة وعضواً في فريق الهوكي في الصف الأول في برينستن عام 1969. ومتزلجة نهمة خلال الفصل الأول الذي قضته في التدرب كنادلة في آسبن. والآن تركب الخيل وتلعب التنس مرتين أو ثلاث أسبوعياً.

أحضر لي النادل عصير البرتقال الطازج في كأس مذهبة الحافة، أخذت الملكة رشفة من منقوع عشبي وصوبت عينيها الخضراويين مباشرة إلي وأفصحت لي ببساطة وصراحة عن آرائها بأحداث الشغب ومعناها ونتائجها. قالت: "كنا في طريقنا الى واشنطن حين وقعت الأحداث وحالما وصلت إلى البيت جلست بجواري إحدى الصديقات وأخبرتني بما كان يجري ـ وكل الهراء الذي كان يثار حولي". كانت تلك الصديقة ليلى شرف، الأنثى الوحيدة في مجلس النواب وإحدى الموثوقات من الملكة." بعضها كان منافٍ للعقل ولا بد للمرء أن يواجهه بالسخرية وإلا حطمه. أقصد أن أيا كان في موقعي ستكون دائماً موضوع حديث الناس مهما فعلت."

ليس سراً أن الطبقة الغنية في عمان كانت تتمنى أن يتزوج الملك إحدى بناتها بدلاً من أن يتزوج أجنبية. فزوجته الأولى دينا عبد الحميد، مثقفة جامعية لها جذور مصرية، كانت تكبره بسبع سنوات. بعد ثمانية عشر شهراً وولادة طفلة، حدث طلاق مفاجىء. كانت دينا تقضي العطلة في مصر عندما تلقت أخبار الطلاق، قيل أنه سمح لها لاحقاً أن ترى ابنتها مرة

واحدة خلال السنوات الست التالية. كان خيار الملك الثاني هي (توني كاردينر) البالغة التاسعة عشرة من عمرها وهي ابنة ضابط عسكري بريطاني. التقى بها الملك في رقصة، وتجاهل كل التحذيرات حول احتمال رفضها للصفقة. غير اسمها إلى (منى الحسين)، أنجبا ولدين وابنتين توأمين، لكن حين تغيرت أهواؤه عام 1972 طلقها ليتزوج أردنية فلسطينية الأصل تدعى (علياء طوقان).

كانت علياء الزوجة الأولى التي منحها الملك لقب ملكة فقد كانت الاختيار الصحيح الذي يشفي جروح أيلول الأسود ويوحد المملكة بالطريقة القبلية المبجلة وابنها الأمير علي الذي ولد عام 1975 فضل على أبناء الحسين الأكبر سناً الذين أنجبتهم منى ومُنح المكان الثاني بعد أخ الحسين، حسن، ولي العهد. ولعلياء أيضاً ابنة وقد ربت طفلاً قتلت أمه في تحطم طائرة. وقد عانت عليا من شائعات الاحتقار وهي على قيد الحياة. لكن موتها المفاجىء في تحطم هيلوكبتر في شباط عام 1977 جعلها تذكر باعتبارها أغلى حب على قلب الملك وملكة البلاد الكاملة.

وهكذا سارت (ليزا الحلبي) البالغة السادسة والعشرين من عمرها في الطريق الصعب حين تزوجها الملك بعد ستة عشر شهراً فقط. لم تكن خلفيتها تهيؤها لذلك. لقد ترعرعت في أسرة واشنطينية ثرية وذات نفوذ. أمها ابنة أحد المهاجرين من السويد، تزوجت وطلقت نجيب الحلبي ابن أحد المهاجرين السوريين، ونجيب هذا مثال رائع على بوتقة الصهر الأمريكية، فقد ترعرع يتكلم الانكليزية فقط، ووصل إلى القمة في الأعمال والوظائف الحكومية. فقد أصبح المدير التنفيذي لشركة (بان أميركان) ومديراً لدائرة الطيران الفيدرالية في ظل رئاسة كندي وجونسون. كان اهتمامه منصباً على السياسة الداخلية لا على الخارجية، ويندر أن تتذكر ابنته نقاشاً في قضايا الشرق الأوسط جرى في البيت. ومع ذلك فهي تدعي بإصرار ارتباطها بموروثها العربي. قالت: "تركز الاهتمام في الخمسينات على الهوية الأحادية وأظنني تمردت ضد ذلك، حين أراد الجميع أن يكونوا متشابهين تمسكت أنا

بالأشياء التي تجعلني مختلفة." ولفترة من الزمن حاولت أن تقنع رفاقها الطلاب في مدرسة كاتدرائية واشنطن أن ينادوها ليزا الحلبي لأن ذلك هو الترجمة الحرفية للقبها بالعربية.

أكملت البكالوريوس في العمارة والتخطيط المدني في برينستون، خلال السنوات الأربعة التي تلت تخرجها اختطت طريقها عبر العالم كواضعة تصاميم تخطيطية للمدن في طهران والمشاريع العمرانية في سدني. أوكل إليها في الأردن العمل كمصممة في شركة الطيران الوطنية، وفي أحد حفلات الاستقبال التي أقيمت بمناسبة تسلم شركة الطيران الأردنية أول طائرة جامبو نفاثة، قدم نجيب الحلبي ابنته إلى الملك حسين. دعاها الملك إلى الغداء في القصر وتسلى وإياها لمدة خمس ساعات أراها خلالها القصر وقدمها لأولاده. خلال الأسابيع الستة التي تلت ذلك كانا يتعشيان معاً كل ليلة تقريباً، بعدئذٍ كانا يصخبان حول تلال عمان على الدراجة النارية للملك والحرس الشخصي يراقبهما عن كثب.

حافظت ليزا التي تعمل في شركة الطيران وتعيش في الفندق الدولي على السر، عرفتها (ربيكا سولتي) وهي أمريكية متزوجة من أردني معرفة جيدة. وما زالت تذكر أنها ركضت خلفها إلى خارج الفندق في ذلك اليوم من أيام الصيف. "كان الطقس حاراً جداً وجلسنا نحن الاثنتين على الرصيف وثرثرنا في هذا الموضوع وذاك وإذ أتذكر الأمر أخمن أنها بدأت لي شاردة قليلاً " في أواخر ذلك النهار أعلن القصر الملكي رسمياً خطوبة الملك حسين لامرأة سيصبح اسمها من الآن فصاعداً (نور الحسين)، أي الضوء بالنسبة للحسين، والإعلان الرسمي قال أن نور قد اعتنقت الديانة الإسلامية.

قالت نور: "حين خطبني فكرت طويلاً وترددت في القبول، ليس لأنني غير متأكدة من مشاعري تجاهه فقد كان حبي له قوياً لدرجة أنني كنت أفكر به ربما أكثر مما أفكر بنفسي. كنت على دراية تامة أنني لست الزوجة التقليدية النموذجية، ولم أكن أريد أن أكون مصدر جدل حوله."

أما الآن فهي مصدر جدل وليس من الصعب أن نحدد الخطأ. في البداية كان الشعب الأردني حاراً. "لم أكن أتوقع كل هذا الود" قالت ذلك وهي تستعيد الأيام الخوالي لبداية زواجها. والآخرون في الأردن يتذكرون ذلك أيضاً. "حاولت أن تلقي خطاباً بالعربية لكنها في منتصفه تلعثمت قليلاً وبدت وكأنها ستجهش بالبكاء." هذا ما يتذكره متري طوال، رجل أعمال من عمان. "كان المستمعون يساندونها والناس يصرخون: لا تقلقي نحن نحبك وما تفعلينه رائع." إن إنجاب أربعة أطفال في ست سنوات أبهج الناس المأخوذين بكبر العائلة".

ذلك كان في سني ازدهار النفط، حين كان بمقدور الأردنيين المتميزين أن يحصّلوا ثروات من عملهم في الخليج. كانوا يبنون حين يعودون إلى الوطن الفيلات المطلية بالأبيض حيث السجاد السميك تغوص فيه أقدام الخادمات الفيلبينيات والصوت الوحيد الذي يسمع فيها هو سقسقة النوافير المزخرفة.

في منطقة الاستهلاك الباذخ تلك، برزت نور في البداية متميزةً قليلاً نوعاً ما عن النخبة بين رعاياها، فقد كان عرسها في حزيران 1978 بسيطاً بالمعايير الملكية، وقد أقيم الحفل في حدائق قصر أم الملك. وصور العرس والخطوبة تُظهر عروساً لا تبدو عليها مظاهر عروس ملك، بوجهها المطلي بالمساحيق وشعرها المسترسل، لكن مظهر التلميذة غير المدروس هذا سرعان ما تلاشى. فمع حاجة وسائل الإعلام إلى (غريس كيلي) جديدة قامٍ المصورون العالميون من أمثال (نورمان باركنسون) بالاتجاه إلى الأردن آخذا معه فنان التجميل الشهير (أنتوني كلافيت)، المتخصص بابتكار (منظورات) مميزة للشخصيات المحتفل بها أمثال: (ديفيد بووي) و (صوفيا لورين)، الذي منح نور سماراً ملكياً ناعماً تضفي عليه المجوهرات الجميلة والملابس الفرنسية نكهة خاصة. أصبح الملك وزوجته الجميلة متلازمين ضمن الدوائر الملكية ودائرة كبار الموظفين وكان من الممكن أيضاً أن نجدهما على عنوانهما في لندن، مقابل قصر كنسنجتون أو في استراحتهما فوق تلة قرب فيينا.

لكن الأيام قست على الأردن منذ ذلك الوقت. وبدأت الطفرة النفطية بالتراجع، والشباب الأردنيون الذين كانوا سابقاً قادرين على تحصيل ثروة في الخليج قابعون في بيوتهم عاطلين عن العمل. وقسوة الزمان تسبب الإحباط، والإحباط ولّد الأصولية، وقد ألهب دعم الأمريكان لاسرائيل أثناء الانتفاضة العنيفة مشاعر العداء الحالية لأمريكا.

وبدا كل فرد في عمان، بعد أحداث الشغب، مستعداً لمهاجمة الملكة انطلاقاً من أن همها الوحيد هو الملابس الباذخة. قال أحد رجال الأعمال الشبان مزدرياً: "لقد أصبحت ميلدا ماركوس الأردن". وحتى الموظفون الحكوميون اشتركوا في الهجوم عليها. "يتذكر الناس الفتاة الشابة التي جاءت إلى هنا ترتدي الجينز الأزرق وهم يتوقعونها فقيرة لا مثقلة بالمجوهرات ومنطلقة إلى أوروبا" هذا ما يقوله أحد السياسيين الكبار.

قال : كانت المدينة في حالة غليان في الاضطرابات الأخيرة، فبينما كان الملك في الكويت يلتمس المساعدة لترقيع الاقتصاد الأردني الممزق، ذهبت الملكة للتسوق. يقول: "اشترت قطعة مجوهرات بسعر 750000 دولاراً، ووقع الشيك في يد صحيفة كويتية فطبعته تحت العنوان العريض: (الملك يشحد والملكة تبذر). سألته إن كان بمقدوره أن يعيرني نسخته من المقال فرد: "حسن، أنا لم أره بعيني، لكن صديقي رآه".

في الأيام القليلة التالية لاحقت هذا المقال من عمان وأرشدني الصديق إلى جار دلني بدوره على صاحب محل أقسم أن ابنه يمكن أن يطلعني على نسخة. لكنه لم يستطع. جربت كل مؤسسات المعلومات العربية والتدقيق مع من لهم صلات بالصحافة في السفارات الأجنبية. فلم أحصل على شيء. أخيراً أمسكت بدليل الهاتف الكويتي واتصلت بكل صحف الإمارة واحدة تلو الأخرى وكان الجواب نفسه من الجميع: لم تكتب مقالة من هذا القبيل إطلاقاً، لكنه كان في أذهان الأردنيين حقيقة كما لو أنهم أمسكوا الكلب من أذنيه بأيديهم.

انضم إلينا الملك في الحديقة، أقحم نفسه هذه المرة إقحاماً بصوته العميق الرخيم. "من الطبيعي أن يصبح شخص مقرب إلي مستهدفاً." إن الروابط القديمة بين البدو وقادتهم خصوصاً أولئك المتحدرين من نسل النبي، ينشأ عنها تابوات (محظورات) صارمة، تمنع النقد المباشر. أما النساء فهن أهداف سهلة. وفي أي وقت تسير الأمور على غير ما يرام في الشرق الأوسط فالنساء أول من يعاني. فالثورة الأصولية لا يمكنها بشكل فوري ترسيخ اقتصاد وطني، لكنها تستطيع أن تأمر النساء بالحجاب. وإذا كان الأردنيون غير سعداء فليس بإمكانهم معاقبة الملك، بل يمكنهم أن يجعلوا حياة زوجته جحيماً.

كان الملك حسين حاكماً يمكن الوصول إليه باستمرار، يفهم الصحافة الغربية ونادراً ما يخجل من طرح وجهة نظره في مسائل الشرق الأوسط. ولكن في أواخر الثمانينات بدأت الأمور تتغير. فحين أصبحت مراسلة في الشرق الأوسط في أواخر 1987 أصبح من الصعب الوصول إليه. وقد أحاط نفسه بسور دفاعي من مستشاري القصر الذين لا يمكن اختراقهم. كلهم رجال من متوسطي الأعمار، من نفس الطراز: أذكياء منتخبون، لكنهم يختلفون من ناحية الزحف أمام الملك. فزيد الرفاعي رئيس الوزراء المتحمس كان دبلوماسياً شجاعاً داهية في تحليل تقلب مزاج جيران الأردن الخطيرين ــ العراق، سوريا ــ اسرائيل والعربية السعودية. لكن سياسته الداخلية كانت كارثية، فقد قادته فترة سلطته القصيرة إلى عدم الثقة بالشعب الأردني العادي، وعدم اعتبار الرأي الشعبي، ووفق توجيهاته كان التحكم بالصحافة والتلفزيون كلياً، وبدأ همس المعارضة، خصوصاً من المواطنين ذوي الخلفية الفلسطينية، يقود تدريجياً إلى زنازين السجون. كانت مفارقة بالنسبة لي أن يكون بإمكاني في عام 1987 و 1988 حين كانت اسرائيل تخوض حرباً مدنية فعلية مع الفلسطينيين أن أمضي إلى أي مخيم للاجئين في أي مكان من الضفة الغربية أو غزة، وأتكلم مع من أشاء. لكن عبر نهر الأردن تتطلب الرحلة إلى المخيمات الفلسطينية إذناً ومواكبة من البوليس السري الذي يمنع وجود أي

إمكانية لمناقشة صريحة. كانت أحداث الشغب ردة فعل على كم الأفواه من قبل الرفاعي، فقام الملك مباشرة بتخفيف وطأة هذه الأحكام في خطاب مفتوح.

نظر الملك إلى زوجته وكأنه يعتذر عما تحملته بسببه. "الأمر محزن وصعب بالنسبة لنور التي فعلت الكثير هنا وفي الخارج من أجل الأردن."

أدركت نور أن بعض النقد لا بد من الرد عليه وكانت بصدد التمييز بين السلوك التي هي على أهبة الاستعداد لتغييره والسلوك الذي لا يمكنها التضحية به، قررت أخيراً أنها ستغير موضتها لا جوهرها. بعد أحداث الشغب، انتقلت إلى ملابس كانت كلها تقريباً من صنع أردني، بدءاً من قمصان النوم إلى الجينز الأزرق وخبأت المجوهرات الضخمة في خزانة في مكان ما، واستبدلتها بقطع صغيرة كعقد فاتن منقط بالتزيينات التي اختارها أولادها.

دعتني بعد لقائنا مباشرة لزيارة جرش، لتشرف على الاستعدادات لمهرجان جرش الفني السنوي، ارتدت تنورة من الخاكي أما تنورتي أنا فكانت إلى الركبتين فقط. في اليوم التالي أدهشني أن أجد نفسي في الصحف وأنا في الصورة واقفة خلف الملكة وقد وضعت على الصورة لمسات جعلتها توحي أنني أرتدي بنطلوناً محتشماً. كانت الحساسيات بالغة، لدرجة أن من تكون مع الملكة ينبغي أن تكون محجبة.

لكن الملكة لم تكن لتذعن إلى المطالب التي تقضي أن ترتدي المناديل الإسلامية. قالت: "أنا لا ألعب لصالح هذا الطرف او ذاك، ولا انوي القيام بذلك الآن ، وأنا أستطيع أن أوازن بين الاحترام لما هو تقليدي في المجتمع مع ما هو عملي لأداء الدور الذي علي أن أؤديه."

وسيستمر ذلك الدور ـ مشاريعها ـ كاملاً، علماً أن: "بعض الأمور سيستغرق فهمها سنيناً". حين تزوجت الملك سألته ما الذي يجب عليها أن تفعله، فأجابها: "أنا واثق أن ما تقررين القيام به سيكون صحيحاً". هذا ما تتذكره نور. لكن زياراتها الأولى للموظفين الحكوميين الكبار لم تكن

مشجعة وقد نصحها أحد الوزراء مشدداً بأن تحصر دورها العام في قص الشريط الاحتفالي في مناسبة ما.

تقول رانيا قدري، خريجة حقوق أردنية: "على الجميع أن يفهم قضية واحدة، إن تجلسي في البيت ولديك أطفال فهذا رائع بالنسبة لهم، وفي أي لحظة تحاولين القيام بشيء مختلف بوصفك امرأة في المجتمع فإنك تعرضين نفسك للشائعات والنقد."

لكن نور لا تستطيع ان تتخيل حياتها دون القيام بشيء ما يشبه العمل. تقول: "لقد عملت دائماً". في البداية حشرت نفسها بمشاريع لها صلة بسيرة حياتها السابقة: التخطيط المدني، قوانين البناء، والمسائل البيئية. وحين ولد أبناؤها، تزايد تدريجياً اهتمامها بمسائل الأمومة وصحة الأطفال والتربية، ثم تدريب النساء وتوظيفهن، والرياضة والثقافة. وترأست مؤسسة ضخمة من أحد المكاتب في قصر يعود للملك عبد الله، عام 1985. ثم اتجهت بمشاريعها للتركيز على النساء، خصوصاً نساء المناطق الريفية المعزولة، والكثير من القبائل البدوية كفت عن الترحال حسب المواسم واستقرت على مدار العام في مستوطنات مؤقتة تفتقر إلى المواصلات والماء والنظافة والعناية الصحية، ألقت ليزا الحلبي المهندسة المدنية نظرةً على هذه الأماكن وتصورتها على نحو مختلف. حثت نور، ملكة الأردن، السياسيين على جعلها هكذا. لم يكن الرجال الذين يديرون الأردن معتادين على تلقي الأوامر من امرأة. ولم يكن الرجال الذين تساعد الملكة زوجاتهم يحبون تأثير مساعدتها عليهن، ففي مشروع لنسج السجاد على تلة عرتها الرياح تدعى (جبل بني حميدة) نجح نجاحاً مدوياً. لأن النسوة استطعن أن يؤدين أعمالهن في البيت على أنوال تقليدية بسيطة مصنوعة من العصي والحجارة. ساعدت الملكة في التصميم والتنظيم ثم اشترت السجاد كهدايا لزوار الأردن الرسميين. زارت النساء أيضاً وطافت بجوارهن بين الغبار واستمعت إلى مشاكلهن، وثمن السجاد كان يذهب مباشرة إلى النسوة مانحاً إياهن قسطاً من الاستقلالية لأول مرة

في حياتهن. إحداهن دفعت نقـود سـجادتها الأولى أجـرة البـاص إلى المدينـة لكي تقوم بإجراءات الطلاق.

لنور اهتمامات أخرى لم تلقَ ترحيباً من المتطرفين الدينيين وكانت هناك تهديدات بتخريب المهرجان الفني في جرشٍ لكونها راعيته الأولى. فقد كـان المهرجان يكـبر تدريجيـاً كـل عـام جاذبـاً الفنـانين التقليديـين أمثـال الشـعراء العرب، لكنه كان أيضاً يجذب وعلى نحو متزايد الفنانين الأوربيين مثلٍ فـرق الباليه الأجنبية التي اعتبر الأصوليون عروضهـا فاسـقةً. عـارضوا أيضـاً إنشـاء مدرسة المنح التعليمية الداخليـة الـتي أشـرفت عليهـا الملكـة. كـانت المدرسـة مختلطة ـ وهذا ما يتعارض مع الخط الإسلامي المتشـدد. و"الأفكـار المسيحية "الـتي أقلقـت بـدو معـان والـتي استلزمت التعـامل مـع طوائـف الأقليـات كالأنكليكان والروم الكاثوليك الذين يتلقون برنامج إغاثة خاص في الأردن.

وكلما تكلمت نـور حـول اعتنـاق الإسـلام كـانت تركـز علـى تنـاغم الإسلام مع التقاليد اليهوديـة المسيحية الـتي ربيـت عليهـا، وعـن الحاجـة إلى "تعميق الصورة الدقيقة" لإنسـانية الإسـلام وشـخصيته العالميـة وقـد انتقـدت المتشددين لأنهم قالوا أن ما تقوله يتعارض مع الصورة الصحيحة للإيمان.

كانت الايام التي تلـت عودتهـا المفاجئـة مـن واشـنطن في عـز أحـداث الشغب غير مخططة وخاوية وكان عليهـا أن تقـرر كيـف تمـلأ هـذه الأيـام: لكي تتجنب النقد أو تخرج لمواجهته. تابعت قائلة: "ربما كان من الأسهل أن أتراجع قليلاً أو أنسحب" قالت ذلك وهي تحدق في حزمة من ضوء الشمس نزلت على سرير عليـه أزهـار قرمزيـة ناعمـة. "لـدي المزيـد مـن الوقـت مـع الأولاد" ـــ كان أولادها آنئذ في التاسعة والثامنة والسادسة والثالثة من العمر. "يمكنني أن أتمرن أكثر بل وحتى يمكنني أن أقرأ كتاباً، لكنني أشـعر بمسـؤولية على عاتقي تجاه أولئك الشباب الذين يؤمنون بنفس المثل التي أؤمن بها. لكنٍ ليست لديهم القدرة على تنفيذها. فإذا ما انسحبت فإنني أخذلهم ـــ وخاصـة النساء". مرَّ ظهورها الأول مروراً حسناً. "ارتحـت تمامـاً لأنـني اكتشـفت أن الهراء لم يكن له تأثير على الجو العام، والحمد لله. كنـت قلقـة حـول مـا إذا

كانت الشائعات قد أثرت على علاقة الناس بي، يبدو أنه على المرء ألا ينسى أبداً أن الناس قد يشعرون بنفس الطريقة".

لاحقاً، حين تعرفت عليها بشكل أفضل أسرت إلي بأنها تفكر بالرد على النقد: كانت قد أنجبت طفلاً آخر. "اعتقدت أن ذلك أمر قد أفعله ويسر الجميع" لكنها في النهاية قررت خلاف ذلك، "أتمنى أن أنجب طفلاً آخر لكنني أريد أن أكون أيضاً نموذجاً رائعاً لتحديد النسل" ضحكت وقلت أن أطفال الملك الأحد عشر يفيدون عكس ذلك. أوضحت أن معدل الإنجاب في الأردن هو واحد من أعلى المعدلات في العالم فيما لو أحصينا الإنجاب بالنسبة لكل امرأة وليس بالنسبة إلى الرجل. "فبالمعايير الأردنية تعتبر الأسرة المؤلفة من أربعة أطفال صغيرة جداً فلو كان عندي خمسة أطفال فهذه تعتبر عائلة صغيرة".

في ذلك المساء وفي الحديقة ألمحت إلى أن أحداث الشغب لم تكن هي مأساتها الأساسية التي ظننتها أنا. سألت الملك إن كانت أحداث الشغب انفجاراً انفعالياً مؤقتاً أم أن القلاقل قد تحدث ثانية، قال: "أعتقد أنها واحدة انتهت" هزت الملكة رأسها: "لا أظن أننا نستطيع افتراض ذلك يا سيدي" سيدي وتعني القائد، كانت المصطلح الذي يناديه به أقرب نوابه، وتساءلت إن كانت هي الوحيدة بينهم التي تمتلك الشجاعة للاختلاف معه في الرأي. تابعت قائلة: "إن الكثير يتوقف على تصديق الناس بمصداقية التغييرات الموعودة". تكلمت بمرارة عن قرار الملك بالدعوة إلى الانتخابات وإفساح المجال للنقد في الصحف المحلية. قبل ذلك ببضعة أيام دعيت صحفية فلسطينية، صودر جواز سفرها وأنهيت حياتها المهنية على يد حكومة زيد الرفاعي، إلى القصر من أجل لقاء مصالحة. قالت نور: "كنت مرتاحة جداً، هناك أشياء كنت أضغط باتجاهها وكان جلالة الملك دائماً يريدها للأردن. لكن بعض المحيطين به كانوا يحاولون جهدهم لمنع حدوثها."

وبين الأسطر كان كل ما حدث واضحاً. فقد كانت القيم الغربية التي لدى الملكة نور في حالة حرب مع سلفية زيد الرفاعي وقد أثبتت أحداث

الشعب أن الملكة على حق وأن الرفاعي مخطيء وانتهى الرفاعي وبقيت الملكة.

في أواخر ذلك العام أثمرت الأولوية الديمقراطية للملك عن انتخاب أسفر عن هيمنة المتشددين الإسلاميين على البرلمان. قبل الاقتراع جاء وفد من الأردنيين الليبراليين إلى القصر ليطلعوا الملك بإيجاز على وضعية البرلمانية توجان فيصل التي باتت هدفاً لتهديدات المتطرفين ومضايقاتهم نظراً لحملتها المستمرة من أجل المزيد من الحقوق للمرأة. في ليلة ما قبل الاقتراع ظهر الحسين على شاشة التلفزيون وحذر من التطرف الإسلامي، ثم أنذر أنه لن يحتمل ما دام حياً تقسيم بلاده بين التيارات الدينية. بدا أن المتطرفين قد تلقوا الرسالة وكفوا عن ممارسة العنف ضد توجان أو مؤيديها.

حتى آب عام 1990 عاش الأردنيون فصلاً من الاقتراحات للبرلمانيين الأصوليين من مثلٍ تحريم ذهاب النساء إلى مصففي الشعر الرجال. ولاقت الفكرة قبولاً حسناً لدى بقية المجتمع ثم راحت القضية تتداعى كما هي العادة دائماً. حرية الكلام أفسحت المجال للأصولية بتنشق الهواء الصحي، لكن معظم الناس كما يبدو لم يكونوا مستعدين للتعاون مع برنامجهم. إحدى الأولويات التي جاءت على حساب مصداقيتهم حتى مع الأردنيين الشديدي التدين، كان اقتراحهم لتحريم حضور الآباء الأيام الرياضية لمدارس بناتهم. "هل يريدون أن يقولوا أنني قذر لدرجة أنني لا يمكن أن يوثق بي وأنا أشاهد ابنتي تلعب كرة السلة؟" هذا ما قاله ممتعضاً ومحتداً أحد الآباء المتدينين الذي كان سابقاً يتعاطف مع الجهة الإسلامية.

حينئذٍ غزا صدام حسين الكويت، أرسلت الولايات المتحدة قواتها العسكرية للعربية السعودية وانتفضت الأردن دعماً للعراق. ذهبت لاستمع إلى إحدى الخطب في أحد أضخم مساجد عمان، فسمعت الخطيب يحرض الجماهير المحتشدة على تسعير العداء لأمريكا. محذراً حكومة الولايات المتحدة قائلاً: "لن يعود خنازيركم إليكم إلا في الأكفان بإذن ا لله."

تلك كانت لحظة الملكة، فجأة استطاعت أن تحترم بلادها الجديدة بطريقة لم يستطع الوصول إليها أي إنسان عربي المولد، فعندما أهملت واشنطن الملك، أرسلت وزير خارجيتها جيمس بيكر ورسميين آخرين إلى كافة بلدان المنطقة باستثناء الأردن، ركبت الطائرة وانطلقت إلى بلدتها القديمة مؤلبةً أعضاء الكونغرس ومجلس الشيوخ طالبةً منهم أن يفهموا مساعي الملك باتجاه تسوية بالحوار. ومن المهم أن نقارن التغطية الصحفية التي حظيت بها في هذه الرحلات مع المقالات التي ظهرت لدى زيارتها الأولى إلى واشنطن بعد زواجهما: "يسرني أنني أنجبت له ابنه الأول" هذا هو العنوان الرئيسي عام 1978 في مقالة لمجلة الشعب مليئة بأفكارها عن الرياضة والتسوق لكنها هذه المرة تكلمت في معهد بروكنز وظهرت في مجلة (النايت لاين) ولم تسأل عن تصفيف الشعر ولا عن تربية الأطفال بل تطالب بالتعمق في فهم سياسة الأردن الخارجية. قامت بالأمر على أكمل وجه وبوضوح تام.

ولدى عودتها إلى عمان شجعت الملك على التخفيف من حركة المراسلين الذاهبين والقادمين من بغداد عبر الأردن، البوابة الوحيدة التي تركتها الأمم المتحدة مفتوحة أمام العراق. أقامت حفلة عشاء بسيطة في أحد الصالونات في مكتبها لاثني عشر مراسل في أوقات مختلفة ليقابلوا الملك ويسمعوا رأيه بالأحداث.

فهمت الكثير عنها حين كنت اتنقل بين العربية السعودية وبغداد. أحياناً كانت تدعوني إلى القصر لتناول العشاء، لقد كانت مصلحة للخلل وكانت تؤدي دورها الذي أثمر، على أكمل وجه. كان من المستحيل الجلوس بينهما لساعات دون أن يؤدي ذلك إلى فهم أفضل لدور الملك التوازني الحساس بين العراق والموقف المتشدد للرفض الأمريكي.

كان في تلك الزيارات بهجة مشوبة بشعور الإثم . كانت غرفتي في الفندق في الأردن مليئة بعبوات الطعام المجفف، وصفائح البنزين وعبوات الماء وهذا هو المتاع الذي كنت أحتاجه في رحلاتي إلى الجبهة في العربية

السعودية أو إلى الخرائب في العراق. وفي الخزانة علقت سراويلي الخاكية الملطخة من إقامتي الأخيرة مع بحرية الولايات المتحدة حين نزلنا إلى الرمال وأكلنا فضلات الطعام في أطباق من الكرتون المقوى.

اعتدت الذهاب إلى قصر الندوة (ندوى) أثناء سفراتي خلال الحرب، حيث كانت تذهب نور إلى العشاء كان يتبعها دائماً طاقم من الخدم الذين يحملون نوعين من الحساء، ثلاثة ألوان من الطعام وأربعة أطباق رئيسية ـــ تشتمل دائماً على الأشياء الصحية الخفيفة التي كانت تحبها مثل حساء الطحلب البحري والسمك المشوي أو العدس المنكه باللبن المصفى. نادراً ما كان الملك يأكل أياً مما كان يصفه مازحاً بطعام نور الصحي. كان كل مساء يتناول في نفس الوجبة سفوداً من الضأن المشوي عل طبق من الرز. وحالما تتيح له الرسميات كان يتخلى عن الصحن ويشعل سيجارة، كانت نور القلقة على صحته تقطب حاجبيها إذا أشعل أكثر من واحدة. قالت: "حين يسألني الناس هل لديك مانع في أن ندخن كنت دائماً أجيب: أخاف على صحتكم، أكره التفكير بالناس وهم يفعلون ذلك بأجسادهم." كان ابنها الأكبر حمزة البالغ العاشرة من عمره حليفاً لأمه، يعنف أباه بلغة عربية رقيقة.

كان العشاء، حتى الأقل رسمية والذي يقام حول الطاولة المخروطية الدائرية في غرفة العائلة، دائما يضاء بقناديل صغيرة في لمبات زجاجية مؤطرة بزخرفات الريش، وكان الحديث في هذه الاماكن حلماً لأية صحفية وكوابيس أسوأ. فهنا مصدر أكيد للاخبار التي لايجب تسريبها الى الخارج مما يمنح المرء الإحساس بامتلاك الحقيقة في حين أن يكون فعلياً مغذياً وهمه.

يعرف الملك كل رؤساء الولايات المتحدة منذ ترومان وهو صديق لمعظمهم. يمكن أن يكون ظريفاً وأحياناً يقسو بالنقد على القادة العرب. لكنه لم يهيمن على النقاش، فقد بدا بعكس الكثيرين من الأزواج مهتماً فعلاً بما تقوله نور، بل وحتى حمزة لم يكن مستبعداً من النقاش. على الرغم من أن

إلمام الصبي بالانكليزية كان تاماً فقد كان يفضل التَكلم بالعربيـة ويرغـم أبـاه على أن يقوم بالترجمة.

ذات يوم سافرنا بالطائرة مع الملكة إلى المخيمات الحدودية حيث طوفان المصريين والسيرلنكيين والبنغلاديشيين والسودانيين يتدفق من العراق تـاركين أعمالهم وجنى شقاء السنين، كان مشهداً مؤثراً: صفـوف مـن الخيـام المليئـة باليائسين. كانت نور تطوف على مشفى الخيام تحدث كل من يتكلم العربية أو الانكليزية ساحبة منديلاً من جيبها لتواسـي سـيريلنكية باكيـة، متحسسـة جبين طفل لتعرف إن كـان مصابـاً بـالحمى. كـانت تتنـاقش مـع المسـؤولين حول تطوير هـذه المخيمـات، متصـورة مخططـات أفضـل للخدمـات كالمـاء ونقـاط توزيـع الأغذيـة. وحـين تعـود إلى مكتبهـا في القصـر كـانت تشـغل الهواتف تتصل بـ "ريتشارد برانس" مسؤول الخطوط الجوية الفرجينية تطلـب منه طائرات ضخمة لنقـل هـؤلاء النـاس إلى أوطـانهم ثـم تطلـب مـن بعـض الأثرياء الذين لها صلات معهم ليساعدوا في دفـع ثمـن جبـل مـن البطانيـات. فجأة لمع نجمها على الصعيد الوطني.

كانت تصل البيت متأخرة ثم تذوب منهكة القوى عـل أرائـك القصـر المغطاة بالشراشف القطنيـة. اثنـا عشـر عامـاً مـن جهدهـا المتواصـل جعلـت الأردن يحيا برخاء باعتباره نقطة العبور للتجارة مع العراق، لكن الحظر الـذي فرضته الأمم المتحدة على العراق قد عطل الموانيء وتـرك السـائقين عـاطلين عن العمل أيضاً. "أصبحنا نرى ارتفاعاً في نسبة التسلل من المدارس خصوصاً لدى الفتيات لأن مداخيل عوائلهن كانت تهبط وبالتالي فإن تدريس البنـات هو أول شيء يجب إلغاؤه للتوفير". تنهدت. أول امارات سوء التغذية كانت تظهر في مراكز العناية بصحـة الأطفـال. "بـدأ النـاس يقطعـون الـبروتين مـن وجباتهم وبدأ ذلك يؤثر علـى نمـو الأطفـال". وغالبـاً مـا كـان يـرن هـاتف القصر، حيث كـان يتصـل بهـا أصدقاؤهـا مـن عمـال الإغاثـة ليطلبـوا منهـا المساعدة بقص شريط أحمر.

أحياناً كنا نشاهد أخبار الحرب على قناة الـ **CNN** ونحن نرشف حساء الكائنات البحرية من الأكواب. إذا كان حمزة ما يزال مستيقظاً كان يجلس بجوارنا على الأريكة حانياً على لعبته مصارعاً أعداء خياليين في حين كانت الـ **CNN** تعرض خطوات الاستعدادات لحرب حقيقية على الحدود. كان الملك أحياناً يستعير اللعبة لكي يريح أعصابه. كانت هناك كومة من أشرطة الفيديو فوق التلفزيون ــ (كلينت استود وسترن) للملك ومسرحيات رومانسية للملكة. وهناك شريط فيديو نسخاه بنفسيهما إبان الأزمة، يتضمن ظهوراً (لروس بيرو) مع (لاري كينغ)، والذي فيه يحاول "بيرو" رجل الأعمال التكساني المغمور أن ينتقد سياسة بوش الخليجية.

شغل الحسين شريط بيرو من أجلي، وضحك ضحكاً عالياً لوصف التكساسي للعمل الغامض للدبلوماسية العربية. فمعظم ما كان يقوله بيرو لم يكن مريحاً. كان يتشدق بلهجته الشعبية قائلاً لـ لاريكنغ بأن العرب لو تركوا لوحدهم سيدخلون إلى خيمة ما يعيدون ترتيب الرمل ثم يخرجون باتفاق لن يفهمه الأمريكان أبداً. كان مشهداً غريباً: فالملك أستاذ الدبلوماسية يواجه تحدي المفاوضات بشخصه، كان يضحك ويهز رأسه وبيرو يحول قضية حياته وموته إلى نكت ومهازل.

بعد بضعة أيام تلقى الملك كلمة عن أول عملية قصف في مكالمة هاتفية قبيل الفجر. أحست نور المضطجعة جواره أن جسده تصلب حين رفع السماعة وسمع الأخبار السيئة. نهض، ارتدى ملابسه ومضى لزيارة قواته. ومنذ ذلك الصباح بدا الملك مسترخياً كما لو أنه قد حاول كل ما بوسعه ليمنع الحرب وقد تركها الآن في كف القدر . زرت القصر بعد ليلتين من ذهابه إلى التلفزيون الأردني وإلقائه خطبة أثارت سخط البيت الأبيض للسيد بوش. اتهم الحسين الولايات المتحدة وحلفاءها بمحاولة "تدمير العراق". وأثنى على شجاعة الشعب العراقي في وجه المجزرة. في تلك الليلة في القصر علم الملك وهو يراقب الـ **CNN** أن الولايات المتحدة كانت تدرس قطع المعونة عن الأردن والتي تبلغ خمسين مليون دولار. انتفض ورمى جهاز

التحكم عن بعد . قال : "إنهم مصرون. لكني لست مستعداً لإخضاع كل كلمة أقولها لرقابة أو نقد من أي كان". في الحقيقة كان يعرف أن ذلك ليس مطلوباً منه: بل ما يطلبه الأمريكان من الملك هو المحافظة على استقرار الأردن لذا وعلى الرغم من الكلمات القاسية في "الكابيتول هيل" ظلت المساعدات تتدفق عليه.

في الطابق الأرضي في غرفة الجلوس الرسمية، كنت أجيل النظر في طاولة جانبية مليئة بالصور الفضية الأطر لقادة العالم، كانت تلك الصور، ومنذ بدء أزمة الخليج، في حالة انتقال مستمرة فقد انزلقت صورة صدام من الصفوف الأولى بعد غزوه للكويت، واختفت صورة الرئيس المصري جملة وتفصيلا. بينما دفعت صورة جورج بوش إلى ما وراء مصباح. وحين عادت صورة جورج بوش للظهور مرة أخرى بوضعية الخد على الفك مع صدام حسين كما لو أنهم يريدون الإيحاء أن الأردن في نهاية طرف حيادي في الصراع. في المقدمة كانت هناك صورة، لم أرها في حياتي من قبل. إنها صورة البابا جون بول الثاني الذي نادى للتو بوضع حد فوري للحرب.

في الطابق الثاني كانت نور بجينزها الأزرق على الهاتف تكلم أصدقاءها في الولايات المتحدة عارضة أن ترسل لهم نسخة بالفاكس من خطاب الملك كي يتسنى لهم قراءة ما قاله. في سياقه كانت جهودها تنال المديح في الشارع الأردني في الصالونات وفي المساجد. وحتى الأصوليون اعتقدوا أنها تقوم بمساع حميدة بطرحها للوضع الأردني إلى عالم خارجي معاد. تلك كانت أول مرة أسمع فيها الحشود في المسجد يمتدحون أي امرأة لقيامها بدور فعال.

ولولا حرب الخليج لكان من المستحيل معرفة ما إذا كانت قادرة على تجاوز الشائعات والنقد. لكن الحرب قد منحتها درجة من الشعبية لم تكن قابلة للتصور منذ عام مضى. أحد سائقي التكسي الذين ركبت معهم ألصق صورتها على الواقية الشمسية لسيارته. كانت ترتدي الزي العسكري كما

لو أنها على وشك أن تخوض معركتها مع الأمريكان فعلاً. سألته "هل تعرف أنها أمريكية؟" أجاب بحماس إنها عربية وهي واحدة منا".

لكن بعد عام واحد من الحرب كانت طاحون الشائعات قد سرب اشاعة قرب طلاقها من الملك. وفي هذه المرة تمنى كل الأردنيين ألا يكون الخبر صحيحاً. قالت الشائعات بأن الملك قد وقع في حب صحفية أردنية ــ فلسطينية ــ في الخامسة والعشرين من عمرها وقد وعد بالزواج منها. كانت الشابة لدى الـ CNN في الحرب. وقد صورت مؤخراً باعتبارها سكرتيرة الملك الصحفية كجزء من جهد لتطعيم العاملين في البلاط الملكي بأطقم شابة. "إن وضع أناس شباب في القصر وبعضهم نساء، واحدة منهن جميلة جداً، لا بد أن تسمع شائعات من هذا القبيل." هذا ما قاله صحفي عماني.

لأحد رجال الأعمال الساخرين وجهة نظر مختلفة، قال: "كل زيجات الملك كانت زيجات سياسية فحين أراد أن يكون قريباً من ناصر تزوج مصرية، وحين أراد أن يتقرب من الانكليز تزوج وردة انكليزية. وحين احتاج لإصلاح ذات البين اختار امرأة من الضفة الغربية. أما الثمانينات فكانت العقد الأمريكي، لذلك كان الزواج في عقد الثمانينات من أمريكية". في التسعينات قال رجل الأعمال قد يشتمّ الملك رائحة حليف آخر. لكن بدا أن معظم الأردنيين لم يأخذوا القصة على محمل الجد وقد ناقشوا الأمر بأن الملك حتى لو كان مغرماً بفتاة شابة فالطلاق في مثل سنه سيبدو أمراً غير مقبول. فما هو مقبول بل ما هو متوقع من رجل في عشرينياته لا يبدو مرجحاً بالنسبة لرجل في السابعة والخمسين حتى لو كان ملكاً. وبعضهم اعتبر أن حديث الطلاق من وضع منافسين مهنيين يضعون وظيفة السكرتير الصحفي نصب أعينهم، والشائعات هي تقليدياً طريقة سهلة للتخلص من امرأة غير مناسبة.

كانت نور آنئذ في الواحدة والأربعين من عمرها وقد مضى على زواجها من الملك خمسة عشر عاماً وأصبحت مفهومة ومقدرة بشكل أفضل في الأردن بسبب دورها أثناء الحرب. وقد شوهد أبناؤها على التلفزيون في المناسبات

الدينية وهم يقرؤون القرآن بالعربية الفصحى ودون أخطاء. وبعض الأردنيين بدؤوا يتساءلون عن ولاية العهد قائلين أن الملك لن يعش طويلاً بما فيه الكفاية لتربية هؤلاء الفتية وإيصالهم إلى سن البلوغ فما من سبب يحول دون وصول أحدهم إلى العرش. وخلال خمسة عشر عاماً بالقرب من الحاكم الأطول فترة في الشرق الأوسط، فقد تعلمت نور أمراً أو اثنين لتأمين وضعها.

لكن الشائعة طالت بشكل غير عادي، وعندما كتبت الصحافة حول ما نشرته الصحف الأمريكية والبريطانية عن الطلاق المرتقب، قامت السفارات البريطانية بالخطوة التي لا سابقة لها وهي إعلان الاستنكار. أما في واشنطن، فقد قال صديق رأى الملكة نور في حفل الاستقبال الصغير الذي أقيم على شرفها بأنها كانت عصبية منهارة، وقد تخلت عنها فتنتها ورباطة جأشها بشكل كامل.

بعد بضعة أسابيع ظهر تفسير آخر لعصبيتها فقد هرع الملك للدخول إلى مشفى في الولايات المتحدة الأمريكية للعلاج ضد السرطان. تركز المرض في جهازه البولي ورغم ما قيل أن العملية كانت ناجحة، فقد كانت حالته تستدعي المراقبة المنتظمة.

كانت الحالة في الأردن غير مؤكدة والوضع كئيب. حين عاد الملك بعد عمليته الجراحية، كان الحشد الذي اصطف على جانبي الطريق إلى القصر هو الأكبر من نوعه في تاريخ البلاد وكانت صرخاتهم "يعيش الحسين" فيها حدة يائسة. من الصعب أن نتصور بلداً آخر في الشرق الأوسط يكون فيه الدعم لقائد ما صادقاً وتلقائياً بهذا الشكل.

لم تعد هناك شائعات فلا أحد الآن ولا حتى الأصوليون يغامر بهمسة نقد واحدة ضد الملك حتى لو كانت غير مباشرة أي بالهجوم على الملكة. ولطالما عاش الملك فإن نور واثقة من أنها آمنة على عرشها.

ولو كان هناك شقاق زوجي فإنه لم يكن جلياً حين جاء القرينان إلى الولايات المتحدة في عام 1994 بعد إجراءات الفحوصات في مركز (مايو) الطبي الذي حصل منه الملك على تأكيد بسلامة وضعه، شوهد القرينان في

واشنطن يتسوقان في محلات "هارلي دافيدسون" و"دراجات B.M.W "
واشتروا سوية ثلاث دراجات جديدة وطلبوا شحنها الى الأردن وصرفوا
ألفي دولار على شراء ملابس لركوب الدراجات. وهذا الأمر سيساعدهما
على استعادة غزلهما أثناء ركوب الدراجات حول تلال عمان.

لكن شفاء الملك من مرض عضال بدا وكأنه قد عزز روح المغامرة
لديه. ولعله أحس أن الحياة قصيرة. ففي عام 1993 ومباشرة بعد أن وقعت
اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية الاتفاقية المفاجئة والجدالية بينهما في
واشنطن سمح الحسين للانتخابات الأردنية المبرمجة أن تسير وفق الخطة. وكان
الدبلوماسيون الأجانب ومعظم وزرائه الحكوميين يحذرونه من ذلك خوفاً
من أن تصبح الحملة السياسية جبهة اهتياج للمتطرفين الإسلاميين
والفلسطينيين المتشددين الذين لم يكونوا راغبين بالسلام مع اسرائيل، بل
وقالوا بأن الأردن نفسه قد يفقد استقلاله.

على العكس من ذلك مرت الانتخابات دون أن يتحرك ساكن. أنا
واثقة من أن الملكة وعملها الهادىء كان له تأثير على قرار الملك، وقد
أصبحت وجهة نظره للعالم وعلى نحو تدريجي متطابقة مع وجهة نظرها. لم
يطل الوقت بعد الانتخابات في شتاء عام 1994 افتتح في عمان مهرجان
نقدي ساخر يهجو تبجح القادة العرب مما أثار سخط بعض جيران الأردن
وحاولوا إغلاق المهرجان. لكن الملك صمد أمام الضغط بأن العروض يجب
أن تستمر بما فيها الاسكتشات التي تنتقد أسلوبه البلاغي المتبجح.

كانت الأردن أحد أول البلدان التي زرتها حين انتقلت إلى الشرق
الأوسط في عام 1987. وفي غضون ست سنوات فقط شاهدتها تتحول من
دولة بوليسية متشددة إلى أكثر مهاد الحرية السياسية في المنطقة. ظل الأصوليون
موجودين، لكن بقي أيضاً المدافعون عن الأنوثة. لم يضحِ بحقوق أي جماعة
لصالح جماعة أخرى. واستمر الصراع لكنه استمر في العلن وباتت الكلمات
هي الأسلحة لا القنابل ولا طلقات المدافع ولا اعتقال الجماهير.

بالنسبة لي كان جلياً أن الفضل الأكبر في هذا التحول يعود لامرأة.

الفصل الثامن

نبل الحكمة

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾.

سورة العلق : 1 -5

في العربية السعودية يمتد الطريق شمال الرياض كشريط لا اعوجاج فيه، يتسع لست مركبات، منطلقاً عبر كثبان رملية شكلتها الرياح. كل بضعة أميال وعبر سراب الحرارة المتقدة يمكن للمرء أن يلحظ خرائب أبراج المراقبة الطينية الصفراء التي مزقتها طلقات البنادق. إنها تنتصب مثل قلاع رملية من عبث الأطفال.

رفع صديقي السعودي يده عن المقود، وضعها في حجرة التبريد في سيارته الفارهة الرباعية الدفع، وقدم لي علبة صودا مجمدة، ثم رمى واحدة للأمريكي القابع في المقعد الخلفي، وهو زميل رُتبت الأمور على أن يلعب هذا اليوم دور الزوج بالنسبة لي.

أراد صديقي السعودي، الحضري، ذو التعليم الغربي ، أن التقي مع عمه، وهو شيخ يعيش بين كثبان الرمال قرب البلدة التي نشأ فيها محمد عبد

الوهاب الفقيه الديني الذي قدم صيغة للإسلام بمنتهى التشدد لدرجة أنها تحرم حتى الصَفير.

كان العم وهابياً حقيقياً، صارماً ومتشدداً، ولم يكن مؤكداً أنه سيوافق على التكلم مع امرأة ـ "لم يتكلم إلى امرأة في حياته أبداً من خارج أسرته على الإطلاق" هذا ما قاله صديقي، لكنه يعتقد أن الأمر يستحق المحاولة لأتمكن من معرفة القوى التي تقف في وجه التغيير لصالح المرأة في السعودية. و"الزوج" في المقعد الخلفي كان ضرورياً. "عائلتي اعتادت الكثير من الأمور الغربية التي تصدر عني، لكن أن أظهر وحيداً في سيارتي مع امرأة أجنبية فذلك معناه أنني أشط كثيراً"

يعيش العم محمد الغزي في بيت ذي سقف مسطح قرب أيكة من شجر النخيل، تحيط بمزرعته الصغيرة المهلهلة كثبان رملية عالية برتقالية اللون. حين فتحت باب الجيب المكيفة صفعتني لفحة من الهواء الساخن اشبه بتلك المندلعة من أفران إحراق الموتى. شعرت أن محجري عيني قد تصلبا مثل حبة فاصولياء مجففة.

لقد وصف ت إ. لورانس حرارة هذه الرمال العربية قائلاً: "تسطع الشمس مثل سيف مسلط وتلسعنا لسعاً أخرساً." وهو الذي لم يكن يرتدي عباءة سوداء ولا ملابس قاتمة في ذلك الحين. نظرت نظرة حسد إلى صديقي وعمه وهما يتعانقان بثوبهما الأبيضين، خطرت ببالي فكرة فاجرة: لو أن الله يحب النساء لأنزل القرآن على تاجر فرو لا على قائد قافلة جمال عربي.

أشار لي محمد الغزي وهو ينادي زوجته بأن ألحق بها إلى جناح الحريم. وضع صديقي يده على ذراع عمه وشرح له بأنه يريدني أن أجلس معهم في غرفة استقبال الرجال، لنتحدث في التاريخ المحلي. وقفت بعيدة قليلاً عنهم، وعباءتي تلوح في الريح الساخنة، حين كان يدور حوار سريع ناري باللغة العربية. أخيراً ارتجف العم استياءاً وأمرني دون أن ينظر إلي بالدخول إلى الحجرة.

إن مجلس الرجال أو غرفة الاستقبال، تمتد بامتداد المنزل بكامله. محمد الغزي رجل مهم جداً في قريته البالغة الصغر. فهو يؤم المصلين خمس مرات في المسجد المحلي، وهو كإمام المرشد الروحي للقرويين. وللقيام بذلك يتلقى راتباً من الحكومة. قبل أن تتيح الثروة النفطية للحكومة تقديم هذه الأعطيات كان محمد يعتاش من نخلاته. يستيقظ قبل الفجر كل صباحٍ ليسقي الأشجار الثمينة القليلة بيديه، لدرجة أنه أعطى لكل واحدة منها اسماً. كان في الخامسة عشرة من عمره قبل أن يتاح له الوقت ليتعلم القرآن، فقد كان الكدح المجهد للعيش في الصحراء ملحاً. أما الآن فقد جلب النفط الكهرباء إلى المضخات المائية والدخل الكافي لتوظيف العمال الأجانب. كل يوم جمعة بعد صلاة الجماعة، يذبح الإمام أغناماً ويغطي أرضية مجلسه بأطباق الحملان والرز. ينضم إلى الغداء معه رجال القرية حيث يتناولون الاكل ويناقشون قضايا الساعة.

سألت كيف بمقدوره، إذا لم يكن قد كلم إمرأة من خارج أسرته إطلاقاً، أن يخدم كمرشد روحي لنساء القرية. نظر إلي صديقي نظرة استغراب. قال:"إنهن يطرحن عليه مشاكلهن من خلال أزواجهن بالطبع".

"كيف يكون الحال إذا كان أزواجهن هم المشكلة؟" هذا الاحتمال لم يخطر ببال أي رجل أبداً. في الجمعة ما قبل زيارتنا كان مجلس محمد منشغلا بالشائعات التي تقول أن النساء يطالبن بحقهن في قيادة السيارات، وأنهن سرحن السائقين لديهن وبدأن بقيادة سياراتهن بأنفسهن في الرياض. كان الشيخ مذعوراً من فكرة قيادة النساء. شبك يديه العجفاوين فوق قلبه وحدق في السماء قائلاً: "آمل ألا أرى ذلك في حياتي" لكنه منذ سنينٍ عديدة مضت كان راديكالياً في مجتمعه الريفي الصغير. وقد قدم التماساً إلى الحكومة يطلب فيه أن تفتح مدرسة للصبيان في القرية. في حين أن بعض جيرانه كانوا خائفين من فكرة التعليم الدنيوي. وقد خطب الأئمة في البلدان المجاورة ضد التعليم مستبدلين كلمة مدرسة بكلمة منجسة. فبالنسبة لهم الموضوع الوحيد الذي يستحق الدرس هو القرآن، وأبناؤهم يتعلمون في

المساجد المحلية. فأي فائدة في التاريخ والجغرافية واللغات الأجنبية إذا ما علمنا أن هذه الدراسات تؤدي إلى معرفة شعوب وأوطان لاتمت إلى ا لله بصلة؟

لكن محمد الغزي يعرف أن أصحاب الرسول تكلموا لغات أجنبية وأنهم استخدموا هذه المعرفة لنشر الإسلام وناقش قائلاً ما الخطر في تعليم جغرافيا وتاريخ البلدان الإسلامية، وفي المدن خاض العلماء، علماء الدين، معاركهم هذه مؤكدين أن المناهج تحرم مواداً كالموسيقا التي تعتبر إثماً عظيماً في نظر الوهابيين والفن الذي قد يؤدي إلى خلق صور للأوثان. أثمرت حملة محمد الغزي، وأقيمت مدرسة للقرية في نهاية المطاف وذهب اثنان من أبناء الإمام الذين درسوا فيها إلى الجامعة أما الثالث فالتحق بالجيش. أما بناته فمسألة أخرى، فبالنسبة للإمام العجوز المعقد يكون إرسال بناته خارج المنزل ـ ليمشين في الشوارع حتى لو كن محجبات، وأن يجلسن بين الغرباء حتى لو كن كلهن بنات– أمر بمنتهى السوء. تعلمت بناته ما أحس أنهن بحاجة لتعلمه، ألا وهو تلاوة القرآن في مختليات الحريم في بيوتهن.

يستطيع الآباء من أمثال محمد الغزي حتى يومنا هذا أن يتبنوا خياراً كخياره لبناتهم. فالتعليم بالنسبة للبنات رغم انتشاره حالياً، لم يكن إلزامياً على الآباء في أي يوم من الأيام، والكثير من الرجال يؤمنون بالمثل القائل بأن تعليم النساء مثل السماح بدس أنف الجمل في الخيمة. لأن هذا الحيوان في نهاية المطاف سيزحف ويحتل المكان برمته.

لم تقم أول مدرسة للبنات في السعودية حتى عام 1956 وقد رسمت مخطط بنائها عفت زوجة الملك فيصل وهي زوجة الحاكم الوحيدة في السعودية التي ذكرت كملكة، أرادت عفت التي ترعرعت في تركيا أن توسع دائرة التعليم ليشمل علوماً أكثر ومواد غربية اكثر، لكنها اضطرت أن تتقدم بحذرٍ، حتى في افتتاح مدرسة كهذه لأبنائها. مدرسة البنات كانت مسألة غاية في الحساسية. وحين افتتحت مدرسة (دار الحنان) في جدة عام 1956 فعلت ذلك متذرعة باليتم. لأن القرآن الكريم يأمر المسلمين بشكل متكرر بالعناية بالفتيات اليتيمات وبالتالي فإن معهداً كهذا كان بعيداً عن

اللوم. استمرت المدرسة عاماً كاملاً قبل أن تشعر عفت أن بمقدورها أن تغامر بشرح الهدف الرئيسي من هذه المدرسة.

صحيفة محلية بعنوان "الأم مدرسة إذا أعددتها" وصفت أهداف دار الحنان باعتبارها خلق أمهات وربات بيوت أفضل عن طريق التعاليم الموجهة إسلامياً.

أرست (عفت) دفاعها عن تعليم المرأة على مجموعة شهيرة من الآيات القرآنية التي أصبحت تعرف باسم آيات أم سلمة. وأم سلمة هي الأرملة الجميلة التي أثار زواجها من النبي سخط عائشة، ويقال أنها سألت محمداً ذات يوم لماذا حين أنزل الله آياته كان الخطاب دائماً موجهاً للرجال.

وحسب أحد الأحاديث، كانت أم سلمة في حجرتها في المسجد، تمشط شعرها، حين سمعت صوت النبي على المنبر قالت: "لملمت شعري على عجل وهرعت إلى إحدى الحجرات التي أستطيع ان أسمع منها بشكل أفضل، وضعت أذني على الجدار وهذا ما سمعته من النبي:

﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرةً وأجراً عظيما﴾.

وما يتضح من هذه الآيات أن الالتزام بالإيمان يقع على عاتق الرجال والنساء دون تفريق. وتقول عفت: إنه للقيام بهذه الواجبات لا بد من تعليم النساء وإطلاعهن. في عام 1960 أفتى علماء الدين بالموافقة على هذا المبدأ، ووافقوا موافقة حذرة على انتشار مدارس البنات في البلاد كلها. وكان الشرط أن تبقى هذه المدارس تحت هيمنة العلماء، ولا يرغم أب يعترض على إرسال بناته إليها.

لكن ذلك لم يكن كافياً بالنسبة لبعض السعوديين ففي مدينة بريدة، غير البعيدة عن منساف، أثار الرجال الشغب احتجاجاً على افتتاح أول مدرسة

للبنات في عام 1963، وفي نفس الوقت تقريباً كانت الولايات المتحدة الأمريكية تستدعي حرسها الوطني لإلغاء الفصل العنصري للمدارس في الجنوب الأمريكي. اضطر الملك فيصل إلى استدعاء الحرس الوطني لإبقاء مدرسة بريدة مفتوحة بالقوة ولمدة عام كامل كانت التلميذة الوحيدة في المدرسة هي ابنة المديرة.

واستمر الكثير من الآباء في رفض تعليم بناتهن، ففي عام 1980 لم يكن سوى 55٪ من البنات السعوديات في المدارس الابتدائية و23٪ مسجلات في المرحلة الثانوية، و38٪ فقط من النساء متعلمات بالمقارنة مع 62٪ من الرجال.

بالرغم من ذلك فقد تمكنت بعض الفتيات السعوديات من الحصول على أعلى مستويات التعليم الذي يمكن للمال أن يشتريه، ففي دار الفكر ـ وهي مدرسة خاصة للبنات في جدة ـ فإن حرم المدرسة التي بناها الألمان كان من الروعة التي يمكن تخيلها في أي مدرسة. فوراء جدار عال تفتح الأبواب الكهربائية على ردهة مكيفة ذات حجارة مصقولة. والمخططً على شكل نجمة وغرف الصف تنتشر حول فسحات داخلية ضخمة، والسقف العالي والألواح الزجاجية الكبيرة تمنح إحساساً بالجو المفتوح لاستديو الفن، وهناك صالة رياضية، ومخابر علمية، ومركز الكومبيوتر، تطن فوق مقاعده أجهزة كومودور وماكنتوش.

لا يوجد أكثر من عشرين تلميذة في كل صف، وهناك مركز رعاية يومية كان مستخدماً حين قمت بزيارتي من أجل أطفال المعلمات، لكنه متيسر أيضاً للطالبات في بلد يقبل الزواج والحمل المبكرين بل ويشجع عليهما.

وعلاوة على البرامج الأكاديمية التي تركز على اللغات، يمكن للبنات أن يخترن القيام بدورات في الطبخ أو خياطة الملابس، أو الكاراتيه والباليه، والطباعة على الديسكات ، وميكانيك المحركات. وقد احترت في مسألة تعليم ميكانيك المحركات، لأن الفتيات السعوديات لا يسمح لهن بقيادة

السيارات. شرحت لي باسلة الحمود مديرة المدرسة قائلة: "لنفترض أن سائقها قال أن هناك خللاً ما في السيارة، نحن نريدها أن تعرف إن كان صادقاً أم لا".

للتلميذات مظهر البنات الثريات اللائي يتلقين عناية ممتازة. فهن طويلات، لهن شعر لامع مسترسل على أكتافهن بجدائل ثخينة، والمديرة نحيلة رشيقة ترتدي الثياب الحريرية، وهي في الثامنة والثلاثين من العمر، لها الجلد الأملس الناعم الذي لفتاة مراهقة. تقول: إن أهم غرفة في بيتي هي غرفة الرياضة. منذ عشرين عاماً مضت أرادت أختها الكبرى أن تدرس طب الأسنان الذي كان مستحيلاً آنئذ بالنسبة لسعودية.

انتقل والد باسلة مع العائلة كلها إلى سورية حيث تمكنت الأخت من إكمال دراستها في جامعة دمشق، عادت إلى الوطن كأول طبيبة أسنان في السعودية، فتحت عيادة لتعالج النساء والرجال على حد سواء، لكنها سرعان ما اكتشفت أن بعض الرجال السعوديين المعتادين على الفصل الصارم، لم يستطيعوا تقبل أن تلمسهم امرأة غريبة ولو بمثقب طبيب الأسنان. وبعد أن ملت من الاقتراحات وسوء الفهم قسمت عيادتها إلى عيادة للرجال وعيادة للنساء واستأجرت طبيب أسنان ذكر ليعالج الرجال.

وأختها باسلة أيضاً فضلت الانفصال المهني. فإلى جوار دار الفكر توجد مدرسة للفتيان وهيئتها التدريسية من الذكور، وعندما تضطر باسلة للاجتماع مع قسم الفتيان في المدرسة كانت تستخدم دارة تلفزيونية مغلقة. تقول: "قد أحتاج لعون زميل لكنني لا أضطر للجلوس معه في غرفة واحدة، فلو استطاع الرجال أن يأتوا إلى هنا ويكونوا بيننا سينتهي الأمر إلى هيمنتهم ويبدؤوا بإعطاء الأوامر بكيفية إدارة شؤوننا وأنا أفضل أن أدير ما حولي بنفسي.

استخدمت باسلة أيضاً الدارة التلفزيونية المغلقة في الجامعة حيث تدرس للحصول على شهادة الماجستير. وكان القبول الأول للنساء في الجامعات السعودية عام 1962 ، وكليات النساء كلها مفصولة فصلاً كاملاً، وقاعات

المحاضرات مزودة بدارات تلفزيونية مغلقة وهواتف بحيث تستطيع الفتيات الطالبات الاستماع إلى أستاذ ويسألنه بالهاتف دون أن يعرّضن أنفسهن لعينيه. وحين تخرجت دزينة النساء الأولى من الجامعة عام 1973 هالهن أن يجدن أن أسماءهن لم تطبع في لوحة التخرج. فالتقليد القديم القاضي أن ذكر اسم المرأة إساءة لشرفها حرمهن من حق التميز الذي اعتقدن أنهن اكتسبنه، فاحتجت النساء وعائلاتهن وبذلك جهزّت لائحة تخرج منفصلة وأقيم حفل تخرج منفصل لأقارب الطالبات الإناث حضره ألفا امرأة، تعالت زغاريدهن المبتهجة فوق الأسطح.

وبينما اتسعت الجامعات النسائية لتشمل التعليم العالي، اصبحت التجربة التثقيفية أكثر ضحالة. فقبل عام 1962 أرسلت الكثير من العائلات السعودية التقدمية بناتها إلى الخارج للتعليم، وقد عدن إلى المملكة، ليس فقط بالشهادة بل وبتجربة عن العالم الخارجي، سواء أكان ذلك في الغرب أم في البلدان العربية الأكثرٍ تقدماً كمصر ولبنان وسورية حيث تنفسن جو الاختلاط، بل وتنفسن قليلاً من الثقافة اللادينية. أما الآن فإن جيلاً من النساء السعوديات بأكمله قد أكملن تعليمهن كله ضمن البلاد. وفي حين يستفيد آلاف الرجال السعوديين من فرص التعليم في الخارج على حساب الحكومة فإن النساء لم تقدم لهن هذه المنح منذ عام 1980. وموقف الحكومة هو أن فرص التعليم النسوي قد تطورت ضمن المملكة إلى الحد الذي يلبي كافة احتياجات المرأة. وتعريف احتياجاتها التعليمية كما نصت عليه ورقة سياسة وزارة التعليم العالي هي: "أن تعد بطريقة إسلامية عميقة بحيث تستطيع أن تؤدي دورها في الحياة كربة بيت ناجحة وزوجة مثالية وأم ممتازة، ولتهيئتها لأنشطة أخرى تناسب طبيعتها كالتعليم والتمريض والطب".

كانت النتيجة كادراً من المدرسات السعوديات العجائز الأكثر ليبرالية من الطالبات الشابات اللائي يقمن بتعليمهن. وحين قامت بعض هؤلاء المدرسات بدورهن في مظاهرة القيادة كان أول من انقلب عليهن هن طالباتهن. اندفعت إحدى الطالبات إلى مكتب إحدى المدرسات وبدأت

تشد الأستاذة من شعرها وتشتمها لأنها تظاهرت. وقادت الشابات المعترضات على قيادة السيارات احتجاجاً غاضباً انطلاقاً من مسجد حرم الجامعة. من بين هتافات المتحمسات بعد المظاهرة كان المطالبة بالإغلاق الدائم لجامعة الإناث.

إن انعدام فرص التعليم في الخارج يعني أن السعوديات وقعن في شرك نظام تعليمي متخلف عن نظيره للرجال. والمواد التي تهيِّأ للأعمال النافذة في اقتصاد المملكة القائم على النفط ـــ كالجيولوجيا والهندسة البترولية ـــ ما زالت مغلقة أمام النساء. وثلاث من الجامعات السعودية السبع ـــ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، جامعة النفط والثروة الوطنية في الظهران والجامعة الإسلامية في المدينة ـــ لا تقبل النساء إطلاقاً. وكليات النساء القليلة العدد لها مكاتبها الخاصة والمكتبات المشتركة مع مدارس الرجال إما أن تكون بعيدة المنال تماماً بالنسبة للمرأة أو متيسرة لهن يوماً واحداً في الأسبوع فقط. وفي معظم الأحيان لا تستطيع النساء الوصول إلى الكتب بل يلزمهن تحديد العناوين التي يردنها ليحضرها لهن الآخرون.

لكن النساء والرجال يحضرون امتحانات الشهادة نفسها والأساتذة يتعرفون بشكل تام على أوراق النساء بشكل روتيني لأنهن متفوقات عليهم. تقول إحدى الأستاذات: " ليس بالأمر المدهش، أمعن النظر في حياتهم فالأولاد لهم سياراتهم ويمكنهم قضاء المساء في الشوارع مع أصدقائهم، يجلسون في المقاهي، يشترون الخمور من السوق السوداء ويشربون طوال الليل. فماذا لدى الفتيات سوى أربعة جدران وكتبهن. التعليم بالنسبة لهن هو كل شيء".

حين كانت السعوديات تذهبن إلى الخارج من أجل التعليم في الخمسينات والستينات كانت الجامعة الأمريكية في بيروت هي أحد الأماكن التي غالباً ما يتم اختيارها. في عام 1866 وضعت بعثة تبشيرية تدعى "دانيال بلس" حجر الأساس لكلية الرجال التي أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية

في بيروت، معلنة أن المدرسة "لكل الظروف والصفوف دون تمييز على أساس العرق أو الجنسية أو اللون أو الدين. فالأبيض والأسود والأصفر والمسيحي واليهودي والمسلم والوثني يمكنهم أن يدخلوا إلى هذه الكلية ويتمتعوا بكافة الميزات التي تقدمها.....ويمكنهم أن يتخرجوا منها مؤمنين بإله واحد أو بآلهة متعددة أو ليسوا مؤمنين بأي إله".

افتتحت الجامعة الأمريكية في بيروت مدرسة تمريضية للإناث منذ العام 1905 وقبلوا طالبتها الأولى في حرم الجامعة في عام 1921. وصلت هذه الطالبة محجبة تماماً يرافقها زوجها. في منتصف الستينات آلت الدفعة الأخيرة من طلاب قسم الهندسة إلى دراسة مختلطة.

ولفترة من الزمن بدأت غرسة الليبرالية الأمريكية تؤتي ثمارها. فقد شهدت الدرزية، اللبنانية ليلى شرف، ولادة عشرات الحركات السياسية والفلسفية في حرم الجامعة في الخمسينات. ورعت النهوض القومي العربي وهي تقول: "كان هناك الكثير من النوادي: النادي الثقافي العربي، نادي نكبة فلسطين، ونادي للبعثيين". وجلست النساء مع الرجال في المقهى، وطافوا حرم الجامعة وهم يتجادلون بحماس في الليل. والتقت ليلى شرف بزوج المستقبل، وهو أردني مسلم، في أحد النوادي فعادت معه إلى الأردن، حيث أصبحت وزيرةً للإعلام في الحكومة الأردنية، والمستشارة المقربة من الملكة نور.

لكن في منتصف الستينات بدأت الأصولية الإسلامية تبرز كأيديولوجية منافسة للقومية العربية. وبدأت ليبرالية الجامعة واسمها الأمريكي يجعلانها هدفاً للمتطرفين.

المنهاج الليبرالي للجامعة الأمريكية في بيروت ظل في صميمه على الدوام منهج دراسات ثقافية، تمضي بالطالب من ملحمة جلجامش إلى هومر وفرجيل ولوك وديكارت وهوبس. في عام 1966 وقع نص من المنهج المطلوب في يد أحد أئمة مساجد بيروت، وهذا النص يستشهد بعالم اللاهوت المسيحي القروسطي، توما الأكويني، يقول فيه إن انتشار الدين

الإسلامي السريع لم يكن يشير إلى الحقيقة الدينية الموروثة، واندفع البوليس ليلقوا القبض على المؤلف الهرطقي . "قلت لهم إن السيد الأكويني ليس موجوداً الآن". هذا ما يتذكره طريف الخالدي أستاذ تاريخ العصور الوسطى الذي ساهم في تطوير مناهج الدراسات الثقافية. وجد نفسه مساقاً إلى التحقيق. كانت إحدى طالباته حنان العشراوي، هي التي قلقت عليه وجعلت رئيس الجامعة ووزير الداخلية اللبنانية يعملان على إطلاق سراحه.

في الثمانينات لم يكن الهجوم على الجامعة مزاحاً، ففي أحد أيام عام 1984 تدفق حشد من نشطاء حزب الله إلى حرم الجامعة وثبتوا راية إسلامية خضراء فوق أعلى الأبنية. وألقى الشيخ فضل الله الزعيم الروحي لحزب الله خطاباً عن ابنة النبي فاطمة، وأهميتها كنموذج تحتذيه النساء المسلمات. "لم يبد أنه قال شيئاً مثيراً للجدل بشكل خاص، لكننا قد نتحدث عن الطقس، ويعرف كل فرد ما نعنيه" هذا ما يقوله وولف كنغ كهرلر أستاذ ألماني صادف أن كان في حرم الجامعة ذلك اليوم. فالرسالة بالنسبة له هي أن سلطة حزب الله قد امتدت حتى إلى ما وراء بوابات أهم معهد امريكي في لبنان.

تلك الرسالة ترجمت بوحشية في عام 1984 عندما اغتيل رئيس الجامعة "مالكولم كير" قرب مكتبه على يد مسلحين بمسدسات كاتمة للصوت. وأصبحت كليات الجامعة الأمريكية وأساتذتها ضحايا للاختطاف. وفي عام 1985 في ذكرى اغتيال "كير" تعرض برنامج الدراسات الثقافية للحرق ثانية، والمسألة هذه المرة كانت تدريس بعض النصوص المقدسة ـ أحد الأناجيل وواحد من رسائل القديس بولس وأجزاء من القرآن ـ التي كان يقوم بها استاذ مسيحي من أعضاء هيئة التدريس في الكلية. "ومع تزايد عدد الطلبة الذين يعترضون على تدريس القرآن من قبل مسيحي". هذا مايذكره الخالدي. "لذا قررنا أن نتخلى عن النصوص المقدسة بكل أسف. إذ كيف يمكن أن نفهم القديس أوغسطين إذا لم نقرأ شيئاً من العهد الجديد؟".

في معظم الأحيان كانت الجامعة تقاوم الضغوطات الطائفية واستمر الرجال والنساء يختلطون بحرية في حرم الجامعة المظلل بالأشجار قرب البحر، وظلت معظم النسوة يرتدين الجينز الأزرق بدل الحجاب، وتلك شوكة في حلق المتطرفين. في عام 1991 مزقت قنبلة قوية قلب الحرم الجامعي مخلفة كومةً من الركام تحت البوابة التي نقش عليها شعار الجامعة، وشعار الجامعة: عسى أن يعيشوا في عالم اكثر وفرةً.

ليس لدى طريف الخالدي أدنى شك بموقعه هو وزملاؤه تجاه الأصوليين المسلمين والمسيحيين على حد سواء. "لدي ما يدعوني للاعتقاد بأنهم يكرهون شجاعتنا، فأنا أعرف أني قمت بنفسي وبوعي تام ببذر الشك في عقولهم" إحدى المناطق التي يجب أن يبذر الشك فيها هي دور المرأة فأمّهُ واحدة من أولى النساء العربيات اللائي ظهرن إلى الملأ دون حجاب. وما يقوله: "كانت دائماً تقرأ القرآن وتهز رأسها. كانت عبارة: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾، تثير سخطها حقاً".

أن يرحل المرء من حرم الجامعة الأمريكية في بيروت ذي الليبرالية المعتدلة إلى بوابات الجامعة الاسلامية في غزة، أشبه بالارتحال نحو الزمن الماضي. والحرم الجامعي في غزة هو في الحقيقة الذي يقدم الصورة الأوضح للمستقبل، حيث الجماعات الاسلامية تحظى بنفوذ متزايد.

فحرم جامعة غزة مشطور من منتصفه إلى قسم للرجال وآخر للنساء. حين زرت الحرم النسائي في دورة ربيع عام 1993 ارتديت منديلاً وثوباً فضفاضاً طويل الأكمام، يصل حتى الكاحلين لأنني كنت أعرف أن الحجاب مفروض بشدة. لكن وصولي إلى بوابة النساء سبب اهتياجاً. "ينبغي أن نجد لك جلباباً" أوضحت آسيا عبد الهادي، الخريجة الحديثة، وهي تشير إلى عباءتها المزررة من رقبتها إلى أخمص قدميها. "لدينا أساتذة رجال حتى في حرم النساء".

أخيراً وجدت إحداهن ثوباً صوفياً أزرق لطالبة أطول مني بخمس إنشات على الأقل. سرت خلف آسيا وأنا أمسك قبضةً من الثوب كي أستطيع المشي داخل الحرم ذي السور العالي وأمام أكواخ منخفضة مسقوفة بالأسبستوس.

كان موقف الجامعة الاسلامية في غزة حيال جمهور الحرب المقدس في التسعينات مثل موقف بيركلي تجاه الحركة المعادية للحرب في الستينات، فأغلبية الحرم الجامعي تدعم حماس، الجماعة الاسلامية التي تنادي بالجهاد حتى الموت ضد اسرائيل. كانت عسكرة الجامعة تهديداً لاسرائيل بحيث أعلن الجيش الحرم منطقة عسكرية مغلقة منذ عام 1987 وحتى 1991، واعتقل معظم المدرسين وعدد كبير من الهيئة الطلابية والتدريسية وزج بهم في السجون.

مررنا على الغرف المخصصة للطالبات، حيث تجلس بضع إناث يرشفن الكولا ويتحادثن، وكلهن يرتدين جلابيب من اللون البني القاتم أو الزيتوني أو البحري. قدمتني آسيا لبعض صديقاتها اللائي يعملن في إدارة الجامعة، فسألت إن كان بمقدوري الالتقاء ببعض المدرسات. قالت ماجدة عنان وهي إدارية في الثلاثين من عمرها :"في الواقع ليس لدينا الكثير من المدرسات الإناث والأفضلية في التدريس هنا للرجال لأن الرجل هو الذي يحتاج إلى مهنة، المرأة لا بد أن تتزوج ويهتم بها زوجها، بالإضافة إلى أن الجامعة إذا تعاقدت مع امرأة فهي لن تستطيع التدريس إلا هنا في الحرم الأنثوي في حين أن الرجل يستطيع أن يعمل هنا ومع الرجال في الطرف الآخر للشارع. وحين ننجز دولتنا الاسلامية لن تكون هناك حاجة للاختلاط إطلاقاً".

تقوم ابنة الخميني بتدريس الفلسفة للصفوف المختلطة في جامعة طهران. سألت مجيدة عن رأيها في ذلك فجاءت استجابتها سريعاً: "لاتوجد آراء في الاسلام. فالاسلام يقول بإمكانية اختلاط الرجال بالنساء في حال الضرورة القصوى، فإذا لم تكن هناك ضرورة فلا داعي لأن يختلطوا".

تمنيت أن أجد شيئاً مختلفاً في جامعة غزة. تمنيت انبثاق الأنوثة الاسلامية. فالفلسطينيون كانوا على الدوام من بين الشعوب الأكثر تقدماً في قضايا المرأة، وحسبت أن اندغام تلك الروح بالاسلام العسكري قد ينتج عنه شيء مثير.

لكن المليشيات في غزة قد تمسكوا براديكالية إسلامية تهدد بالأسوأ بدلاً من أن تدير عقارب الساعة بالاتجاه الصحيح للمرأة الفلسطينية. فما تقترفه مجيدة لم يكن في أي يوم من الأيام جزءا من الثقافة الفلسطينية، بل إن أفكارها، على العكس من ذلك، مستوردة وقد طبع عليها كلها: "صنع في السعودية".

وتخصص حماس مادتين من مواد دستورها الست والثلاثين لدور المرأة المسلمة فتقول بأن النساء: "يصنعن الرجال ويؤدين دوراً عظيماً في توجيه وتربية النشئ الجديد، والعدو قد فهم هذا الدور ولذا أدرك أنه إن استطاع أن يوجه النساء ويثقفهن بطريقة تبعدهن عن الاسلام، فإنه بذلك قد يربح الحرب. وهم لذلك يقومون بجهود ملحة بوساطة وسائل الإعلام والأفلام ومناهج التعليم والثقافة مستخدمين عملاءهم، وصنعاءهم، والأعضاء في المنظمات الصهيونية المختلفة التي تتستر وراء أسماء وهيئات من مختلف الأشكال مثل الماسونيين الأحرار، ونوادي الروتاري وعصابات الجواسيس وما شابه... لذا علينا أن نولي عنايتنا بالمدارس والمناهج التي تثقف بواسطتها الفتيات المسلمات كي نجعلهن أمهات صالحات، مدركات لواجباتهن في حرب التحرير، وينبغي أن يكن قادراتٍ تماماً على اتخاذ الحيطة وفهم طرق إدارة بيوتهن. فالاقتصاد وتجنب الهدر في المصاريف المنزلية، شرطان أساسيان في إمكانية السعي وراء أهدافنا".

حين زرت غزة في عام 1987 كانت الفتيات السافرات اللائي يرتدين الجينز الأزرق في الشوارع جنباً إلى جنب مع الشبان يرمين الجنود الإسرائيليين بالحجارة. وكانت الأمهات خلفهن تماماً مجهزات بالملابس المبللة أو البصل المقطع لمواجهة تأثيرات الغاز المسيل للدموع. لقد نالت النساء

مكانة على دورهن في هذه الاحتجاجات. والآن وبفضل حماس تم إرسالهن إلى بيوتهن ليضعن الأطفال الذكور ويتجنبن الهدر في المصاريف المنزلية.

"لقد تبدل الصراع" قالت آسيا، وهي امرأة طويلة جادة ذات عينين سوداوين كبيرتين وحاجبين غليظين. "رمي الحجارة الآن من اختصاص الأطفال، أما النشطاء الذين لديهم أسلحة حقيقية فلا يمكثون في منازلهم، بل ينتقلون دائماً من مكان لآخر وينامون هنا وهناك، ولا يمكن للمرأة أن تفعل ذلك".

لقد تغير الصراع وتغيرت غزة أيضاً. فبعد انطلاقي من حاجز الطريق العسكري الضخم الذي يفصل شريط غزة عن اسرائيل لم أرَ امرأة سافرة. "لا إكراه" قالت ماجدة، نظرت إلى كيسي الصوفي الذي أرتديه. "بالطبع يمكننا أن نفرضه داخل الجامعة، لكننا خارجها لا نفرض شيئاً، فالعلاقة مع الله، وكل امرأة تستطيع أن تقرر بنفسها".

رشفت الكولا و لم أقل شيئاً. كنت في غرفة العناية المشددة في مشفى في غزة، عندما دخلت ممرضة فلسطينية شابة وهي تهز زيها الرسمي المغطى بلطخات بنية رطبة. قالت: "إنهم الأولاد في السوق، طلبوا مني أن أغطي رأسي. قلت أنا مسيحية. فأجابوا لا يهم، قالوا: العذراء مريم غطت رأسها فلم لا تغطين رأسك أنت؟ ضربوني بالفواكه المتعفنة وقالوا لي في المرة القادمة ستكون بالأسيد".

انتهت معظم دروس ذلك اليوم، ولو أردت أن أجلس في درس ديني لامرأة فإن علي ـ كما تقول آسيا ـ أن أعود في الصباح. قالت: "لم لا تمكثين معي الليلة".

ترددت ثم قلت: "قد تسبب لك استضافتي متاعب جمة". ضحكت: "ما المشكلة؟ هل أنت خائفة من البقاء في المخيمات؟ نحن هنا شعب مضياف". كنت قلقة قليلاً، ففي ذلك الأسبوع قُطّع محام اسرائيلي يعمل في مشاريع تنموية في غزة بفأس حين التقى موكليه الفلسطينيين. وقد حذرني زملائي الصحفيين في القدس من المكوث في فندق في غزة. "فقد تسري

شائعة بأنك هناك، والمكوث لأكثر من ليلة واحدة ليس آمناً على الاطلاق". هذا ما قاله أحد الصحفيين.

قلت لآسيا يسرني البقاء معها.

مشت أمامي إلى البوابة، حيث علي أن أعيد ثوبي الطويل. قالت من فوق كتفيها: "بالمناسبة، ما هي ديانتك؟".

"يهودية".

استدارت، ضاق فمها حتى أصبح خطاً رقيقاً، جالت عينيها في وجهي ثم انحرفت لتمسح الأفق. حاولت أن أفهم التعابير، هل هي تعابير غضب أم استياء، لم أستطع التمييز.

كنت قد كذبت مرة واحدة فيما يتعلق بديانتي بعد أن وصلت إلى الشرق الأوسط مباشرة، وهذا ما أخجلني وجعلني أحس بالجبن لدرجة أنني عزمت على ألا أفعلها ثانية. ومنذ ذلك الحين اتبعت سياسة إعلام أي إنسان يسألني. وأغلب الذين أخبرتهم شعروا بأنهم خدعوا أكثر من شعورهم بالعداء. وعادةً ما كان يتبع ذلك أسئلة كثيرة مثل: ما رأيي بالصهيونية؟ هل من أحد في عائلتي يدفع أموالاً لاسرائيل؟ لكن آسيا لم تقل شيئاً.

وضعت يدي على ذراعيها وقلت: "إن كنت تفضلين أن أمكث في الفندق فأنا أتفهم موقفك". قالت وهي تعود من غيبوبتها: "لا، لا بد أن تنامي في بيتي". وإذ كانت تمشي أمامي استدعت سيارة وانطلقنا نحو مخيم "دير البلح" للاجئين. وما أن انطلقت السيارة خارج مدينة غزة عبر عبق بيارات البرتقال وأزهارها الربيعية حتى غيرت آسيا الموضوع من الدين إلى الكتب. كانت شهادتها في الأدب الانكليزي. تحدثت عن الروايات التي أحبتها خلال دراستها كرواية توماس هاردي، (**Tess of the d' Urbervilles**) ورواية جين أوستن (**Pride and Prejudice**). ابتسمت. من الصعب أن يفكر المرء بكتابين غربيين يتناغمان مع وجهة النظر الإسلامية أكثر من قصة هاردي عن امرأة دمرها العار الجنسي أو قصة بينيت عن الأخوات ومساعيهن من ردهتهن في طلب العرسان المناسبين.

لم يكن بيت آسيا يشبه أكواخ المخيمات، فهو ينتصب مباشرة على أطراف دير البلح، حيث الخوف من خطر الاحتجاز والممرات المفتوحة على المزارع ورائحة البحر وراءها. كان البيت صلب البنيان، معزولاً عن الشارع بسور عالٍ، وسياجٍ من النباتات الشائكة. وآسيا تعيش مع أمها المترملة، امرأة هدهاً الزمان، ليست متعلمة، والتي بدت وكأن بينها وبين ابنتها الطويلة المثقفة أكثر من جيل. يشاطرها البيت أيضاً أخواتها وأخ وزوجته. كان أخوها الصغير في السجن، متهماً بأنه من نشطاء حماس أما الآخرون فمبعثرون على خارطة الشتات الفلسطيني. أحدهم كان مقاتلاً من مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية في العراق والثاني معلم في العربية السعودية وآخر عامل في اليونان وقد شيد البيت بأموال الشتات.

أما الأخ الذي تعيش معه فغالباً ما يشتغل كعامل في اسرائيل، لكن الاسرائيليين منذ عدة أسابيع وبسبب سلسلة من الاغتيالات التي قام بها الفلسطينيون، قد منعوا فلسطينيي غزة والضفة الغربية من الذهاب إلى أعمالهم في اسرائيل. وهذا ما جعل آسيا، التي تعمل مساعدة لصحفي فلسطيني، المعيل الوحيد للأسرة، وحين تخطت عتبة الباب حامت حولها أمها وأخواتها الصغيرات وقد أحضرن الشاي وملابس بديلة ومشطاً وهن يتسابقن لخدمتها باحترام بالغ كنت غالباً ما أراه يقدم للرجال فقط.

رمت آسيا الحجاب، ارتدت سروالاً وأرخت شعرها الذي وصل إلى كتفيها. وحين أحضرت لها أختها قميصاً صوفياً ممزقاً أبعدته وطلبت بالعربية قميصاً أجمل، عادت الأخت ومعها قميص قطني أسود ناعمٍ وقد طرزت الأزهار على طرفه. قالت: "ألا ترين أني أبدو مختلفة جداً الآن". كانت مختلفة بالطبع، فعظمتا وجنتيها العاليتين كانتا مختفيتين وراء المنديل والجسم الرياضي الرشيق. أدركت أنني خيبتها، كانت تتوقع إطراءً كالإطراء الذي يحصل في أفلام الأبيض والأسود حيث ترخي السكرتيرة شعرها وتنزع نظارتيها "أنت جميلة يا آنسة آسيا" لكنني أصبحت معتادةً على ضروب التحولات هذه، فلم تعد تدهشني أبداً.

حين أحضرت زوجة أخيها العشاء، كان مجموعة من الأطعمة المصرية كالفول والطعمية والملوخية والحمص المطحون والبامية الخضراء. لقد حكمت مصر غزة ما بين عامي 1949 و 1967 وظل النفوذ المصري قوياً. ورحنا ونحن جالسون على الوسائد نسكب الخضار المختلفة على الخبز الرقيق الذي أعدته آسيا قبل أن تذهب إلى العمل هذا الصباح.

كانت آسيا عادةً تنام في غرفة استقبال الحريم التي تشاطرها فيها أختها الأصغر، لكنها الليلة قررت أن نشغل غرفة وحدنا. سحبت فراشين إلى صالون ضخم فارغ إلا من خزانة على الجدار، كانت رغبتي أن تفرد الفرشتين كي تنال كل منا الحرية والفراغ الخاص بها، لكن آسيا وضعت الفرشتين في زاوية واحدة جنباً إلى جنب متلاصقتين تقريباً.

تناولت آسيا المذياع. ابتسمت حين تذكرت عادتي في الوصول إلى المذياع كآخر عمل أقوم به في الليل وأول عمل في الصباح كي أسمع الأخبار. وعبر السكون وجدت الاذاعة البريطانية ـ القسم العربي وصوت العرب من القاهرة وراديو مونتي كارلو. قطبت عامدة حين ميزت صوتاً عرفته، صوت الناطق باسم نشطاء حماس الذين أبعدتهم اسرائيل إلى لبنان، كان بلهجة ساخنة يدين استئناف مفاوضات السلام بين اسرائيل والفلسطينيين. قال إن اتفاقية السلام ستفتح باب الفتنة، أومأت آسيا قائلة: "إنه مصيب، لن تقبل حماس إطلاقاً اتفاقية كهذه" لكن عندما وقع عرفات اتفاقية سلام في ذلك الخريف لم تنشب حرب أهلية بين حماس ومنظمة التحرير. ففي حين كانت تعارض الاتفاق، أقسمت حماس أنها لن تريق الدم الفلسطيني. بدلاً من ذلك، طور الإسلاميون هجومهم على الاسرائيليين وانتظروا انهيار الصفقة.

وبانتهاء الأخبار نهضت آسيا وأطفأت المصباح تاركة ضوءاً ليلياً يتوهج في الزاوية. وفي شبه الظلام بدأنا نثرثر همساً مثل مراهقتين في حفل.

أصبحت آسيا متدينة بسبب المثل الذي ضربه أخوها الأصغر ـــ أحد نشطاء حماس، السجين ـــ لقد بدأت بارتداء الحجاب قبل ذلك بعشر

سنوات، في سن التاسعة عشر، قالت: "دهش الجميع وتساءلوا: (لماذا ترتدي آسيا هذا اللباس؟) تلاحظين أن ذلك حدث قبل أن تصبح الحركات الإسلامية قويةً هنا كما هي قوية الآن، قبل أن أضع الحجاب كنت أخاف من كل شيء، من الأشباح والانفراد في غرفة. وحين ارتديته تلاشت مخاوفي. وأنا أعرف الآن أن هذه الحياة لعبة، مكان لاختبار الناس. وما إن تعترفي بذلك حتى لا يعود شيء في هذه الحياة يخيفك".

لقد فازت آسيا لتوها بمنحة دراسية بريطانية لدراسة الصحافة في لندن. سألتني: "هل تعرفين أي صحفية ترتدي الحجاب؟" قلت: "لا أظن أن واحدة في وسائل الإعلام ترتدي الحجاب إلا في إيران، حيث توجد مجموعات تلفزيونية نسوية ومراسلات رياضيات وصحفيات مصورات".

قالت: "ربما أكون أول واحدة في لندن ترتديه". وكونها في التاسعة والعشرين وهي ما تزال عازبة جعل منها حالةً غير طبيعية في غزة، لقد مرت بالمراحل الأولى لعدد من عروض الزواج. "أولاً، تأتي أمه وأخواته للزيارة، وليلقين نظرة علي وأنا دون حجاب فإذا أعجبن بي يقلن إنهن يرغبن بإحضار ابنهن للقائي. وأنا أقول: (ليس بهذه السرعة) أولاً ينبغي أن أعرف إن كان متديّناً أم لا؟ وما هو عمله؟ فإذا كان يصلي ولديه عمل جيد كنت أرسل شخصاً ليسأل عنه جيرانه والأصدقاء يأتوني بتقارير مفصلة، وفي معظم الحالات يكون ذلك كافياً، أقول لأمه: (لا تغلبي نفسك عناء إحضاره فأنا لست مهتمة بالزواج)".

ولأنها تعمل، فقد كانت لديها فرصة الالتقاء بالرجال بنفسها، دون المرور بمعدي الصفقات. لكنها كانت مثل أي غربية رومانسية الطراز تعلن أن الأمر غير قابل للنقاش، قالت: "أول مرة يقول فيها لي رجل أنه يحبني تكون المرة الأخيرة أيضاً، أقول له: "لا تقل هذه الكلمات لي، إليك اسم أخي فامض وقابله بما تريد قوله." بعد أن أجرت آسيا مقابلتها للعمل لدى الصحفي الفلسطيني أجرى أخوتها لقاءهم الخاص مع مستخدمها المنتظر ليتأكدوا أنه ومكتبه يناسبان أختهم، فوجدوهما صالحين. إذ أن رب عملها،

وهو نفسه مسلم تقي، أسس بيته، وزوجته وأطفاله على أن يكونوا طوع أمره في كل الأوقات.

استلقت آسيا على ظهرها وعقدت يديها خلف رأسها متابعةً التحدث مع نفسها: "في الحقيقة أنا لست مهتمةً كثيراً بالرجال، ما يهمني هو إنجاب الأطفال فقط."

هل هذه إذاً هي النهاية المنطقية لمُثُل العزل؟ هل هي الرفض العميق للجنس الآخر؟ فكرت وأنا مستلقية أنصت إلى آسيا في كل الصبايا المسلمات الجميلات اللائي عرفتهن، فكرت بحميدة، مترجمتي في إيران، بناهد طالبة الطب السابقة، والتي تعتبر واحدة من أجمل أربع أو خمس نساء التقيتهن في عمري كله. فكرت بحاضرة المجندة في الإمارات وبإحدى السياسيات الكويتيات وبصحفية أردنية ومعلمة كردية ــ كلهن عازبات، طالت عزوبتهن حتى تخطت سن الزواج العادي للنساء في مجتمعاتهن. وكلهن تحدثن عن مصاعب الالتقاء بالرجال الذين يمكنهن التحدث معهم، الذين يفهمونهن، والذين يمكن أن يثقن بهم.

كانت آسيا تقول وكأنها قد قرأت أفكاري: "بلى، بلى، من الجميل جداً أن تكون للمرأة علاقة طيبة مع رجل تتزوجه، لكن هذا ليس سهلا على الرجال الشرقيين." فعلاً لم يكن سهلاً، لقد عبرت عن جانب من موروثهم الإسلامي الذي جعلهم صعاب المراس. "أتمنى أن أتزوج فقيها إسلامياً ــ فقيهاً إسلامياً غربياً ــ قلت: "أتمنى لك التوفيق". وقهقهنا معاً.

استدارت آسيا نحو الحائط، حسبتها جاهزة للنوم. لفلفت نفسي وكنت على وشك أن أغفو عندما تكلمت ثانيةً ووجهها ما يزال مشيحاً عني، "في كل مرة يجيء أناس إلى هنا لإجراء دراسة عن الإسلام يتبين أنهم من اليهود، فما السبب برأيك؟"

قلت لها: "لا أعلم" بالفعل لا أعلم فاهتمامي بالإسلام نابع كله من كوني امرأة ولا صلة له إطلاقا بكوني يهودية. لكنني أدركت ما ترمي إليه، فالعديد من المراسلين الصحفيين الغربيين للشرق الأوسط هم من اليهود.

قلت: "ربما كان السبب أن اليهود يترعرعون وهم أكثر اهتماماً بقضايا الشرق الأوسط، وربما كان السبب هو أن اليهود والمسلمين يصارعون بعضهم بعضاً هنا، واليهود يعتقدون أن فهم الإسلام قد يساعدهم في إيجاد وسائل لحسم الصراع". ظلت آسيا صامتة. قلت: "ربما لأن بعضهم مقتنعون بأن الإسلام خطير، وهم يأتون إلى هنا لإيجاد الدليل الذي يدعمون به وجهة نظرهم".

قالت: "هذا ما أعتقده، تصبحين على خير".

في صباح اليوم التالي شققنا طريقنا في الجامعة إلى محاضرة في كلية الشريعة، حيث الطالبات جئن ليستمعن إلى محاضرة عن أشكال الحكم الإسلامية. قالت: "ستجدين المحاضرة شيقة فيها الكثير من الأسئلة والمجادلات." لكن قاعة المحاضرات كانت فارغة حين وصلنا. قالت فتاة محجبة لآسيا أن النسوة قررن أن يتظاهرن احتجاجاً على إعلان استئناف مفاوضات السلام مع اسرائيل في اليوم السابق. وقد مضين للجلوس خارج بيت الدكتور حيدر عبد الشافي، رئيس وفد المفاوضين الفلسطينيين. والمحاضرة الوحيدة أمامنا محاضرة خاصة بالرياضيات.

تشجعت أنا وآسيا وذهبنا إلى حرم الرجال بحثاً عن الناطق الرسمي باسم الجامعة، كانت الممرات تعج بالطلبة الملتحين الذين يشيحون بأبصارهم عامدين ونحن نمر بهم بجلابيبنا. كان أحمد ساطي المتحدث الرسمي رجلا قصيراً سميناً، والذي أمضى مثله مثل معظم طلاب الجامعة مدته في السجون الاسرائيلية للشك به بأنه من نشطاء حماس. اعتذر عن عدم مد يده للمصافحة "لدينا مثل يقول من الأفضل أن تطعن نفسك ولا تلمس المرأة باليد".

سألت آسيا: "مهما يكن القصد؟ أظن أن لابأس من التصافح بالأيدي إذا كانت نوايا المرء سليمة". تخرج أحمد من معهد إسلامي للدراسات العليا

في مصر. صحح لها بأدب: "قد تكون نيتك سليمة لكن ما أدراك بنيتي؟ كيف يمكن لنا أن نعرف نية الشخص الآخر؟"

عندما سألت عن التعليم المختلط أوشك أحمد أن ينفجر من الدهشة. "التعليم المختلط ممنوع في الإسلام ونحن نعرف النتائج الكارثية لهذا التعليم لدينا أسماء ولدينا أرقام". فالزنا، العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج، يحصل في جامعة بيرزيت، وهي جامعة فلسطينية مختلطة في الضفة الغربية، قال: "وهذه هي الكارثة بالنسبة للشابات".

وافقته على أنها ستكون كارثية ما دام الآباء والأخوة ما زالوا يقتلون المراهقات إذا ما اشتبهوا بممارستهن للجنس. قال: "لسنا قتلة إلى هذا الحد المفرط والإسلام ليس مع القتل، الإسلام يطلب إثباتاً، ليس شاهداً واحداً فقط، بل أربعة، وليس اعترافاً فقط بل اعترافاً مقنعاً".

لماذا إذاً لا يجري تعليم الطلبة الإسلاميين، في الكليات الجامعية، التعبير عن رأيهم صراحة ضد هذا الضرب من ضروب القتل، بدلاً من وضع غشاوة على عيونهم؟ لماذا لا يصرخ الفقهاء ضد الختان الجنسي الذي وصل إلى غزة أيام كان الشريط تحت الحكم المصري؟

إنه موضوع حساس. يقول بعض الناس إنه يجعل المرأة أكثر سكينة، لكن الإسلام ضده طبعاً، فكل جزء من أجزاء الجسم الذي خلقه الله له وظيفة، فهو كاللوزتين لا نزيلهما إلا إذا شكلا تهديداً للجسد، وإذا لم يشكلا خطراً، فدعهما، ربما تعظ الواعظات ضد هذا الأمر ونحن بالطبع لا نجري عمليات من هذا القبيل هنا، بل تجرى في مصر. قالت آسيا: "بين كبيرات السن ..." لكن أحمد قاطعها: "لا، ليس هنا، لا إطلاقاً لا يجري ذلك بين الفلسطينيات" صمتت آسيا. في الليلة الفائتة كانت قد أخبرتني أن أمها مختونة.

تابع قائلاً: "هذا هو المجتمع الشرقي، وهناك الكثير مما يجب فعله للنساء في المجتمعات الشرقية، من الأمور التي لا تتماشى مع الإسلام، لكن تغييرها يحتاج إلى وقت. أولاً ينبغي أن نقيم دولة إسلامية. فكل الكوارث في العالم

ناجحة عن عدم قيام هذه الدولة وحين يُطبق الإسلام سيكون كل شـيء على ما يرام."

عندما اعتذر أحمد لحظة ليتكلم مع زميل له أخبرتني آسيا أنها ترغب بالذهاب إلى المرحاض في قسم النساء، قالت: "يمكنني الذهاب هنا لكنني لا أشعر بالراحة".

حين عاد أحمد ووجدني وحدي ارتد من العتبة متسائلاً: "أين آسيا؟ محرم علي أن أجلس معك وحدك". لم نكن وحدنا تماماً، فباب المكتب مفتوح على مصراعيه، على ممر يغص بالطلاب.

سألته: "حتى لو كان الباب مفتوحاً؟"

"أجل، أجل، أنا آسف ينبغي أن تحضر آسيا." قال ذلك وهو يدير لي ظهره ويبتعد في الممر كما لو أنني الطاعون نفسه. حين عادت آسيا تابعنا نقاشنا، منتقلين إلى دور النساء في السياسة، كان أحمد يوضح قائلاً: "ما دامت النساء لا يستطعن قيادة المجتمع المسلم فلهن أن يعلقن على القائد ويتظاهرن ضده إذا ما شعرن أنه ضال".

قال: "دورهن مماثل تماماً لدور النساء أثناء الصلوات العائلية حيث لا يمكن للمرأة أن تؤم زوجها أو أي رجل آخر أثناء الصلاة، لكن إذا ما أخطأ ـ لنفترض أنه أغفل شيئاً ـ فعليها أن تنبهه بالتصفيق بيديها"."ألا يمكنها أن تنطق بالكلمات الصحيحة؟"."لا، لأن صوتها مثير ولا يجوز أن ترفعه"

انفجرت آسيا قائلةً: "بالتأكيد يمكنها أن ترفعه إذا كانت مع عائلتها وتقول: /سبحان الله/" قال: "لا، لا يمكنها أن ترفعه إطلاقاً، يمكنها أن تصفق، على النساء أن يحذرن أصواتهن حذراً شديداً، فلو جاء أحد إلى بيتي وسأل عني فيمكن لزوجتي أن تقول /أجل انتظر/ أو /ليس هنا/ بإيجاز شديد وبمنتهى الرسمية إذ لا يجوز أن تتكلم بلهجة ودية، هذا من القرآن، فالأمور التي تبدأ بكلمات قليلة تنتهي بأمور كثيرة".

غادرت غزة تلك الليلة وانطلقت في اليوم التالي عبر التلال المحجرة و كروم الزيتون إلى الضفة الغربية لألتقي بعض المدرسات من جامعة برزيت الفلسطينية المختلفة كل الاختلاف.

هؤلاء النسوة كن أكبر من آسيا بأقل من جيل ـــ نساء في أواخر ثلاثينياتهن أو أوائل أربعينياتهن واللائي يمكن اعتبارهن أخواتها الأكبر. لكن شيئاً ما حصل في السنين التي انفصلت دراستها عن دراستهن والهوة التي تتسع بينهن يبدو من المستحيل ردمها. لكن مدرسات بيرزيت كن وهن يعترفن بالأزمة ينكرن الحد الذي وصلت إليه إنكاراً عميقاً.

"المشكلة أن هؤلاء الناس لا يفهمون ثقافتهم" قالت ذلك إصلاح جاد وهي ترشف عصير البرتقال الطازج بعد يوم التدريس. جلسنا في الغرفة المشمسة في بيتها، ذلك المبنى الحجري الضخم العثماني الطراز ذو الرواق المعمد والسقوف المقببة. انزاحت عينا إصلاح إلى الحديقة حيث أزهرت أشجار الفاكهة المعتنى بها في التربة الحمراء. كانت تراقب سلحفاة صغيرة وهي تشق طريقها على غير هدى عبر خطوط الأرض المفلوحة. كانت قد لاحظت هذا المخلوق على الطريق وهي تقود سيارتها عائدة من الجامعة فأنقذته من التشظي تحت عجلات سيارة ما.

ترعرعت (إصلاح) في مصر والتقت زوجها، وهو من نشطاء الفلسطينيين البارزين هناك. عادت معه إلى البيرة، وهي قرية في الضفة الغربية التي كان والدها عمدتها إلى أن نفاه الاسرائيليون بتهمة الانتماء إلى منظمة التحرير. "لقد فعل الاسرائيليون الكثير لاقتلاع الثقافة الفلسطينية التقليدية هنا، لكن ليس بقدر ما تفعله الحركات الإسلامية." وبدأت تعد المشاكل على اصابعها الطويلة الرشيقة. أولاً هناك القضية التي أثارتها حماس بشأن اللباس الفلسطيني التقليدي ـ القفطان الأسود أو البني الطويل الجميل الذي ترتديه الفلسطينيات دائماً والمطرز تطريزاً أنيقاً بدرزات متصالبة على الصدر والإطار السفلي ومعه منديل أبيض لطيف يلف الشعر. "هذا لباس إسلامي ـــ لكنه لا يرضيهم. فالألوان، بالنسبة لهم، حرام. فأين يقول القرآن ذلك؟ إن ألف

فلسطينية يكسبن عيشهن من صنع هذا اللباس، لكنهم لم يفكروا بذلك. إنهم يتهمون اليساريين باستيراد الأفكار، في حين أن كافة أفكارهم مستوردة. وفي معرض الكتاب في جامعة بيرزيت لهذا العام أحصيت مئات الكتب عن النساء والإسلام ــ وكلها من مصر والسعودية.

في جامعة بيرزيت، بكلياتها الفلسطينية الأكثر ليبرالية والأقل تديناً، لم تستطع الحركات الإسلامية أمثال حماس والجهاد التغلغل كما فعلت في المدارس الأخرى، ومع ذلك فإن نفوذهماملحوظ. "إنهم كالفطر" قالت ذلك ليلى فيضي، إحدى زميلات إصلاح "إنهم يتزايدون في ظل شروط معينة، وحين تتغير الشروط يتلاشون. وانبثاقهم الآن دليل على التشاؤم. ولأن الناس يائسون، يلوذون بقوى ما وراء الطبيعة."

ليلى فيضي، التي تدرس فقه اللغة في جامعة بيرزيت، لم تضع قدمها أبداً في حرم الجامعة الإسلامية في غزة، "لا يمكنني الذهاب إلى هناك لأنني لن أضع الحجاب، وبكل الأحوال، لست متحمسة للجلوس والجدال معهم، فما كان صحيحاً منذ أربعة عشر قرناً ليس صحيحاً الآن. آسفة، لكننا لم نعد نعيش في الصحراء. لم نعد نعيش في الخيام"، وإصلاح جاد، من جهتها، رحبت بالفرصة المتاحة لطرح وجهة نظرها. قالت: "من السهل اختراق منطقتهم. ففي نقاش حول التعليم المختلط، كان فتيان حماس يقولون أن التعليم المختلط حرام ــ وأن علينا أن نغلق مدارس التعليم المختلط. قلت لهم: مهلاً، التعليم، في كل قرانا، مختلط، فالقرويون لا يستطيعون بناء مدرستين. وعليه ما الذي سيحصل حسب مخططاتكم؟ ستضطر كل الفتيات إلى الابتعاد عن المدرسة. فهل هذا ما تريدونه؟ بالطبع، قالوا، لا، لا لم نفكر بتكاليف المدارس الجديدة. ولذلك قلت لهم، اذهبوا واقرؤوا واقعكم الحقيقي. وانسوا هذه الأفكار القادمة من السعودية"، لكن إصلاح وليلى لم تكونا راغبتين بقبول أن المد الإسلامي الصاعد قد يشكل خطراً على آرائهما الليبرالية. وبدا تحليلهما، بالنسبة لي، بائساً. سمعته كثيراً من متعلمات من جيلهن ـــ نساء من أمثال الأردنية ليلى شرف، التي شبت أيام عز الحركة القومية العربية، حين كانت الشخصيات

الكارزمية كلها من اليسار اللامتدين الذي حفز على مشاركة المرأة. ووجهة نظر حماس في المرأة بالنسبة لهؤلاء مثيرة للسخرية. وبما أنهم لا يستطيعون سماع وجهة النظر هذه بأنفسهم، فقد صموا آذانهم عن الجاذبية التي تحملها لطلابهم.

كانت الحركات الإسلامية في حالة صعود في كافة جامعات الشرق الأوسط تقريباً. والكليات التي يتواجدون فيها بكثافة كانت معاقل للموهوبين - المدارس الطبية وأقسام الهندسة. والطلبة الذين يستجيبون للدعوة الإسلامية يشملون الطلاب ذوي الخيارات الأوسع وليس القانطين فقط:بل أمثال سحر وآسيا اللائي نلن منحاً دراسية إلى هارفارد ولندن. و هن نخبة العقد القادم، أي اللائي سيشكلن مستقبل أوطانهن. قبل عقد أو عقدين، هؤلاء المثقفون الموهوبون كانوا سيعتنقون فكر القومية العربية، لكن هذه الفكرة فشلت في تقديم أي شيء سوى الهزائم العسكرية والاقتصاديات المنهارة. وبالنسبة للمراقب الخارجي كان من الصعب أن يتصور صدور ما هو أفضل من هذه "الفكرة العظيمة" لكن العودة إلى الجذور ورفض النفوذ الخارجي فكرة جذابة دائماً. فقد شعرت بجاذبيتها أنا نفسي كمراهقة استرالية تعيش في ظل هيمنة الولايات المتحدة وتشاهد بلدها يتقدم مقترباً من الوقوع في مستنقع فيتنام، بالنسبة للشباب الاسلامي المثقف الذي يواجه المستقبل الذي يقيده فشل الكثير من الايديولوجيات المستوردة فإن الإغراء الإسلامي هو النبتة الخاصة عينها. قالتها سحر منذ البداية: "لم لا نجرب شيئاً يخصنا؟"

وما أقلقني أكثر هو أن الإسلام المهيمن في الكثير من الجامعات لم يكن اسلامهم الخاص، لا التقاليد المصرية الظريفة ولا الممارسات الفلسطينية التقدمية، بل بالأحرى التحليل الملتوي المدعوم بالثروات السعودية. وقد كرهت التفكير بجيل يرهن عقله في خدمة تلك العقيدة القمعية.

حين أخذني صديقي السعودي عبر كثبان الرمال شمال الرياض لنقابل عمه، ظننت الشيخ العجوز قديساً من حقبة مضت، ستتداعى قيمه كما

تتداعى تحصينات القلاع الرملية التي مررنا بها على جانبي الطريق. وبدا أن صديقي قد سافر هذه المسافة الطويلة في فترة نصف عمره. هو الذي ولد تحت نخلة في مزرعة عمه فقد حُمل إلى بيت أبيه على ظهر جمل. بعد مضي 25 عاماً اجتاز الأطلسي بالكونكورد، وتعلم في أفضل الكليات في الولايات المتحدة، مقسماً حياته المهنية بين لندن وواشنطن والرياض، فقد كون عقلية مناهضة للعقلية الدينية، عقلية تعربد بعري النساء وتستهين بالأرثوذوكسية القائمة.

بدا لي أنه هو المستقبل وأن عمه ذا القصة المحزنة، قصة حرمان بناته من المدرسة، هو الماضي. ومضت فترة حتى أدركت أن الأمر لم يكن جلياً كما اعتقدت.

كان صديقي يأخذ راحته في نقده غرابة أطوار الأوبيك، أو توجعه من هيمنة الصوت المشرقي في الأدب العربي أكثر مما يأخذ راحته في الحديث عن حياته الشخصية. حين ضايقته ذات مرة، وصف لي بطريقة انتقص نفسه فيها قليلاً كيف أنه تراجع عن حياته الليبرالية في الغرب ليتزوج عروساً سعودية "أفلح في رؤيتها" مرة واحدة قبل الزواج. لم يأخذها معه إلى الخارج في رحلات العمل أبداً و لم يعرض علي أن يعرفني بها إطلاقاً حين كنت في السعودية وعنده بنات، من الواضح أنهن يدخلن السرور إلى قلبه، ومع ذلك لم يتكلم عنهن أبداً إلا إذا سألته.

سألته ذات ليلة ونحن على طاولة العشاء في لندن، كيف يخطط لتعليمهن؟ أطرق ناظراً في طبقه وراح يلعب بشوكته. قال: سأربيهن على الطريقة السعودية ولن أرتكب الخطأ الذي ارتكبه الآخرون، بتنشئتهن رجل هنا ورجل هناك، بحيث لا يعدن يعرفن من يكن".

سألته ما الذي ستفعله لو أن احداهن كانت موهوبة في الفيزياء أو الرياضيات؟ ماذا لو احتاجت السفر إلى الخارج للدراسة؟" ظننته سيقول: "حسناً في تلك الحالة، ستدرس في هارفارد بالطبع أو في برينستون أو كمبردج". لكنه لم يقل ذلك إطلاقاً.

بدلاً من ذلك تنهد، تنهيدة طويلة عميقة ذكرتني بعمه حين سألته عن رأيه بقيادة النساء للسيارات.

قال: "تلك ستكون مشكلة، وسأضطر لحلها حين وقوعها". حينئذ فقط أدركت أن المسافة بين العم وابن أخيه لم تكن بالقدر الذي افترضته.

وأنا، مثل معظم الغربيين، أتصور المستقبل دائماً مكاناً أكثر ألقاً حتماً، حيث تقوم جيولوجيا أخلاقية من نوع ما بمسح الحواف القاسية لأخطاء الحاضر والماضي. لكن ما رأيته في غزة والعربية السعودية قدم لي فكرة مغايرة.

فمن هناك، يبدو المستقبل مكاناً أكثر ظلمة كل يوم.

الفصل التاسع

مهنة خطرة

﴿... أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾

سورة آل عمران: 195

في مكتب صحيفة أخبار العرب في جدة كان لدى إحدى المراسلات، واسمها "فايزة أمبا"، فيلم كرتوني مربوط إلى لوحة مفاتيح كمبيوتر المجلة الناطقة على طاولتها، يقول الشرح الموجود تحت الرسم المتحول لذلك المخلوق "انظر السلحفاة، لا تتقدم إلا إذا أخرجت رقبتها". كانت فايزة من حين إلى آخر تتخلص من انحناءتها فوق لوحة المفاتيح وتشد، وهي في وضعية حالمة، المنديل الحريري الشفاف المعقود حول وجهها.

كانت فايزة تمط رقبتها. فمقالاتها حسب المعايير السعودية، جسورة وفي أعقاب غزو الكويت سبرت المزاج الجديد للسعوديات وقضية الرقابة على الصحافة. لكن أكثر ما فعلته جرأة هو مجيؤها إلى العمل. فهي رغم تحجبها وارتدائها العباءة كانت ترتكب مخاطرة بمجيئها إلى مكتب الجريدة المختلط، حيث يعمل الرجال في منعزلاتهم بجوارها. قالت: "حين وظفني المحرر، كانت الفكرة، على ما أظن، بأن أعمل في البيت: أي أن أعد تقارير

على الهاتف ثم أرسل نسختي الكترونياً. لكن المراسل لا يستطيع أن يعمل بهذه الطريقة فعلى المرء أن يرى ما يجري في العالم".

في نهاية العمل، عندما تنهي مقالتها تسوي منديلها وعباءتها وتتجه إلى الكراج، وهناك ينتظرها سائقها اليمني، ذلك لأن القانون السعودي يحظر عليها القيادة. وبّختني فايزة عندما التقيتها أول مرة على مقالة كتبتها حول الصعوبات التي تواجه السعوديات. وقد كانت فخورة بإنجازاتها وانجازات زميلاتها اللواتي يعملن طبيبات أو يدرن شركاتهن الخاصة. كانت تحس أنني لم أعطِ انتباهاً كافياً للسعوديات اللائي يعملن وبالتالي يحدثن التغيير في المجتمع.

وما تقوم به النساء أمثال فايزة وزميلاتها هو ببساطة استعادة الأساس الذي ضاع عبر القرون منذ وفاة الرسول. إذ ما من سعودية إلا وتعرف أن زوجة محمد الأولى ، خديجة، كانت تدير شركة تجارية دولية، وسوداء زوجته الثانية، اشتهرت ببيع المنتجات الجلدية للمساهمة في نفقات البيت. وفاطمة بنت الرسول ظلت تعمل بالمغزل حتى أدمت يديها مقسمة الأيام بين العمل والدراسة وحين كانت تعمل، كانت تمنح أمتَها وقتاً للدراسة، مصرة على أن للجميع الحق في التعليم.

كانت فايزة هي الأكثر بروزاً بين حفنة من السعوديات العاملات لأن اسمها كان كثيراً ما يظهر في الجريدة. صحيح أن هناك بضع صحفيات سعوديات أخريات، لكن فايزة هي الوحيدة التي غامرت بالعمل في مكتب الجريدة حسبما أعلم. كان الخطر هو المطوعون -البوليس الديني المنبثق عن لجنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- الذين سيندفعون ذات يوم إلى المكتب ويكتشفون خرقها لقوانين الفصل. والمطوعون هم كهنة نظام العدالة السعودي الطلقاء، المتطوعون المتعصبون الذين يجوبون الشوارع والمجمعات التجارية يصيحون بالناس. والنساء السافرات الوجوه هن أحد أهدافهم، والهدف الآخر هو الرجال الذين يتقاعسون في إغلاق محلاتهم أوقات الصلاة. يستخدم بعض المطوعين خيزرانات طويلة يضربون بها المخالفين.

والحكومة لا تشجع مبالغات المطوعين لكنها لا تلجم سلوكهم. لقد دب الذعر في العائلة السعودية الحاكمة خوفاً من انتفاضة تزيحهم عن السلطة بالطريقة التي تخلص بها الإيرانيون من الشاه. لذا زودت المطوعين بمجموعة من السيارات الفارهة ليستخدموها في تجوالهم وكفت عن التدخل في نشاطاتهم. أصبح المطوعون، نتيجة ذلك ، متحررين من الخوف، لدرجة أنهم أساؤوا لأميرة من آل سعود حين ضبطوها تتنزه مع خادمة لم تحجب وجهها.

لعل أكثر الأمور خزياً في سلوك المطوعين هو أنهم، باستثناء شتم النساء في الشوارع، لا يتنازلون للتعامل المباشر معهن بخصوص ما يسمونه "جرائم". فإذا ما انتهكت امرأة ما قانون اللباس أو الفصل، يعالج المطوعون المسألة مع زوجها أو والدها أو أخيها - "الرجل المسؤول" الذي يعتبر مكلفاً بها - بنفس طريقة القاعدة المدرسية التي تتعاطى مع طفل مشاغب. فالنساء من كل الأعمار يمسخن أطفالاً في النظام السعودي. والمرأة، بغض النظر عن عمرها، عليها أن تقدم إذناً موقعاً من زوجها أو ابنها أو حفيدها قبل أن يسمح لها في السفر حتى داخل بلادها.

ذات مرة، تركت فايزة رخصتها في القاهرة. كان زوجها مسافراً خارج البلاد ولا يمكن الوصول إليه. وكان عليها أن تسافر وحيدة لكن دون الإذن. احتجزت في جدة. قالت:"كدت أنتف شعري". لم يستطع والدها مساعدتها لأن المرأة ما أن تتزوج حتى تصبح كلمة زوجها فقط هي النافذة لدى السلطات السعودية. في النهاية اضطرت أن تنتظر سفر أحد أقاربها إلى القاهرة ليجلب لها وثيقتها. وهذه القوانين قد تكون أكثر إهانة للنساء الطاعنات في السن. فالجدة المترملة، مثلاً، عليها أن تعتمد على إذن من حفيدها إذا كان أقرب المقربين من الذكور.

وخوفاً من هذه المهانة، تعمل قلة من السعوديات خارج منازلهن، ففي عام 1986 شكلت النساء أربعة بالمائة فقط من قوة العمل المأجور. وبوجه عام يعكس الرقم الصغير نقصاً في الأعمال المتاحة للنساء. ففي الحكومة

السعودية، يمسك الرجال حتى بالأعمال المعنية مباشرة بشؤون النساء. وفي مؤتمر عام المرأة العالمي الذي أقامته الأمم المتحدة في مدينة المكسيك عام 1975 ومؤتمر عقد المرأة في نيروبي عام 1985، كان "وفد النساء" السعودي كله مؤلفاً من الرجال.

لكن حتى في المجالات التي يمكن للنساء أن يعملن فيها ، لم يكن بعض الأزواج راغبين بالسماح لهن بها. أما زوج فايزة، اللبناني فقد كان فخور بإنجازاتها. ويشاطره بعض الأزواج السعوديين الإحساس نفسه، لكن هناك دائماً توتر ما بين الفخر بإنجازات الزوجة والخوف مما قد ينتج عن عملها. افتخر أحد رجال الأعمال بتخرج زوجته من مدرسة طبية، ثم أخبرني أنه يأمل أن تتابع التخصص بالجراحة "وبذلك يكون مرضاها فاقدي الحس حين تلمسهم".

وقضية الزوجات العاملات أثيرت كثيراً في الصحف السعودية، خصوصاً على الصفحات الدينية."ماهي شروط خروج الزوجة للعمل؟ هل هذا مباح في الإسلام؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب ففي ظل أي ظروف؟" كما ورد في سؤال من زوجة عامل من جدة في رسالتها الموجهة إلى المحرر الديني لإحدى الجرائد الرسمية السعودية، أجاب المحرر: "ثمة حقوق أخلاقية وشرعية يفرضها الزواج تلقائياً. فكل جنس من الجنسين مخصص بحكم بنيته الفيزيولوجية المختلفة ووظائفه البيولوجية، لأن يلعب دوراً في الأسرة.. فالزوج هو الذي يفترض به أن يعيل الأسرة. فإذا لم يستطع كسب ما يسد حاجة العائلة أو إذا كان دخله منخفضاً بحيث لا يستطيع كسب تأمين مستوى معيشة مقبول نسبياً وفي حال كانت الزوجة راغبة بالعمل، فيمكن لكليهما أن يعملان لكن:

1 - " للزوج الحق في إنهاء عمل المرأة متى شعر بضرورة ذلك.

2 - " له الحق في الاعتراض على اي عمل إذا ما احس أنه سيعرض زوجته لأي أذى أو مهانة.

3 - " للزوجة الحق في الانقطاع عن العمل متى رغبت بذلك."

ذات مرة، بينما كنت في طريقي إلى السعودية، جلست بجانب تاجر سعودي يفكر منذ عام بمسألة نوع العمل الذي قد يناسب زوجته. وكان يزداد توتراً كلما اقتربت الطائرة من جدة. وخلال هبوطها، مسح حاجبه بمنديل أبيض كبير. كان قلقاً على الملابس الداخلية في أمتعته. همس قائلاً:"أكثر من مائتي صدرية نسائية اشتريتها من لندن من محلات مارك وسبنسر، وكلها مصنوعة في اسرائيل" فرضت العربية السعودية مقاطعة على البضائع من الأرض التي تسميها "الكيان الصهيوني". لذا في الليلة السابقة في فندقه بلندن بقي حتى فترة متأخرة ومعه قلم تعليم ثخين، وهو يكتب السعر بالريال السعودي فوق الكتابات المثيرة للسخط ليجعل اسم بلد المنشأ غير مقروء. "فلو أخطأت بواحدة، ورأتها مصلحة الجمارك، فسأقع في مشكلة عويصة". مسح حاجبيه ثانية. "ما الذي يمكنني فعله؟ فأنا تاجر وهذه الصدريات هي ما ترغب السعوديات بشرائه".

عمليات تفتيش الجمارك السعودية مشهورة. فأحد الأمريكيين الذين ذهبوا للعمل هناك مزق كتابه المقدس الذي يتوارثه من خمسة أجيال أمام عينيه، لأنه خرق حظر المواد الدينية اللاإسلامية في المملكة. فالسعوديون يفرضون حظراً مفرطاً على رموز الديانات الأخرى لدرجة أن الطائرة التي كنا على متنها، قد أُعيد طلاؤها منذ فترة وجيزة، مع بقية اسطول الخطوط السعودية بسبب شكوى من أحد الأصوليين تقول بأن المسافة بين حرف الـ "S" وحرف الـ"A" في الشعار السابق للشركة قد اتخذ شكل صليب مسيحي.

كنت أظن أنني طهرت أمتعتي من أي شيء يمكن أن يفهم أو يشك بأن له طابعاً دينياً. لكن على طاولة الجمارك في جدة، عبس المفتش الشاب مقطباً حاجبيه وهو يسحب قطعتين محظورتين من حقيبتي هما مرجع بعنوان "القاموس السياسي للعالم العربي" وكتاب حول المكتشفين الأوائل في السعودية يدعى "الحجاج المشبوبو العاطفة" اعترض على الأول لأن كلمة "سياسي" في العنوان تجعله تحريضاً في الأساس، اما الثاني فلأن كلمة

"مشبوب" تنطوي على احتمالات الإباحية الجنسية، في حين أن كلمة "حجاج" تشير إلى الديانة.

كان التاجر محمد أوفر حظاً. شاهدته في قاعة الوصول يبتسم ابتسامة عريضة. لقد اجتازت الصدارات الممنوعة الجمارك. دعاني احتفالاً بذلك إلى الغداء في اليوم التالي واللقاء بزوجته عديلة.

يتقاسم محمد بناية صغيرة من عدة شقق مع عائلته الكبيرة العدد: الأم والأب في الطابق الأرضي، والأخوة، وأزواجهم وأبناؤهم يشغلون شقق الطوابق. إذ أن المدن السعودية العصرية، ما تزال تتبع أنماط الصحراء القبلية. فالرجال السعوديون حين يتزوجون، يحضرون زوجاتهم إلى بيت الوالدين. حلت الأسر الغنية هذا الأمر بأن أقامت مجمعات مسورة وهي عبارة عن مجموعة فيلات مرتبة حول حديقة. أما العائلات الأفقر فتبني بيوتاً تزيد عليها طابقاً كلما تزوج أحد الأبناء. ونتيجة ذلك، تبدو المدن السعودية وقد تناثرت فيها البيوت غير المكتملة التي تعلوها مجموعات من قضبان الفولاذ الداعمة للأعمدة الناتئة فوق الأسطح المستوية كما لو أن البيوت رؤوس صبيان حلقت بشكل رديء.

بدا لي اجتماع العائلة في بناية واحدة، وأنا التي أنتمي لأسرة موزعة على ثلاث قارات، أمراً يستحق الحسد. لكن محمد أخذ يضيق ذرعاً به. حين صعدنا الدرج إلى شقته، فتحت أبواب كل الشقق في كل طابق، وراح الأخوة وبنات وأبناء الأخوة الصغار يختلسون النظر ليروا من القادم مع محمد إلى البيت. ولكي يحصل على بعض الاستقلالية، بدأ يبني بيتاً جديداً، له ولعديله ولأبنائهما الثلاثة وحدهم. لكنه لا يعلم إن كان سيستطيع الانتقال إليه. تنهد قائلاً: " من العسير أن أقنع والدي أن الانتقال فكرة حسنة." كان محمد في الخامسة والثلاثين، لكن كلمة أبيه ما تزال قانوناً.

يعمل محمد، مثله مثل معظم السعوديين، من السابعة صباحاً وحتى الواحدة بعد الظهر. ثم يعود إلى عمله في المساء لبضع ساعات. وتغلق المدارس والمكاتب أبوابها في الهاجرة، وتجتمع الأسر لتناول الغداء جماعياً،

محمد وعديله يتناولان الغداء على طاولة، من الطراز الغربي، بدلاً من فرش قماش على الأرض حسب الطريقة العربية التقليدية. قدموا تشكيلة من الأصناف العربية - أطباق الرز التي يتصاعد منها البخار، حمل مقمر مع صلصل الزعفران، وأسياخ من الدجاج المشوي - وطبق غربي الطراز من المقالي الفرنسية. بعد الغداء تحلقت العائلة حول التلفزيون، وسرعان ما قلبوا المحطات السعودية المثقلة بالبرامج الدينية ليلتقطوا المحطة المصرية الغنية بالأفلام والعروض المنوعة.

كانت عديلة حين تزوجت محمداً في السادسة عشرة من عمرها وما تزال في المدرسة. نالت شهادة في علم الاجتماع في الوقت الذي أنجبت أبناءها فيه. قالت: "كانت معظم النساء في الدورة يفعلن الشيء نفسه", فالكثير من المدارس السعودية مزودة بمراكز عناية نهارية وحضانات لأبناء الطالبات. والامتحانات يمكن إعادة جدولتها لتتلاءم مع قدوم طفل جديد. بعد إنهائها الدراسة الجامعية، وبدء ابنيها وابنتها بالذهاب إلى المدرسة، شعرت بالتعاسة. قالت: "الضجر نفسه كل صباحٍ بعد أن يذهب الأولاد إلى المدرسة". في الماضي، كان بوسعها أن تنجب مزيداً من الأولاد. في المناطق الريفية، ما تزال المرأة السعودية تستثمر طاقتها كلها في الإنجاب. يعتقد أحد الأطباء البريطانيين، الذي عمل ثمانية عشر شهراً في مشفى جدة، أن مترجمه قد كذب عليه أثناء حالة كشف قبل الولادة عليٍ بدوية في الثامنة والعشرين. سألها عن موعد آخر دورة شهرية فأجابت قائلة: "ماهي الدورة الشهرية؟" تبين أنها لم تعرف الدورة الشهرية إطلاقاً. فقد تزوجت وهي في الثانية عشرة، أي قبل أن يأتيها الطمث، وظلت إما حاملاً أو مرضعاً منذ ذلك الحين. لكن الحاجة للأسرة الضخمة لم تعد تطبق في معظم الأسر السعودية المدنية أمثال عديلة ومحمد. وبذلك تزايد تدريجياً عدد المتعلمات اللواتي يتنافسن على الأعمال القليلة المحظورة إسلامياً في مجال الطب والتربية والبنوك. لقد افتتحت البنوك، التي تديرها السعوديات، في عام 1980، إذ بالرغم من أن القرآن يعطي النساء حق الإشراف على ممتلكاتهن، فقد كانت

قوانين الفصل تنكر عليهن تلك الحقوق عن طريق تحريم دخولهن إلى البنوك التي يديرها الرجال. ومع العلم أن البنات لا يرثن إلا نصف ما يرثه الأبناء، فإن هذا غالباً ما كان يشكل ثروةٍ في سعودية ما قبل النفط. أما البنوك الحديثة فهي مفصولة فصلاً غاية في الدقة، لدرجة أن نساءً يفحصن الحسابات في فروع البنوك المخصصة للنساء ويقف حراس على الأبواب للحيلولة دون دخول الرجال بطريق الخطأ. وعادةً ما يكون الحارس زوج إحدى الموظفات في البنك، بحيث إذا اضطر لتسلم وثائق فهو يتعامل مع زوجته بدلاً من المخاطرة بحصول أدنى احتكاك بين أعضاء الجنسين العزاب.

الطب المهنة الوحيدة التي لا يفرض فيها الفصل، عرضة للهجوم الدائم من قبل الأصوليين، الذين يعترضون على معالجة الطبيبات للمرضى الذكور. لكن حملتهم لم تفلح حتى الآن لأن الحكومة استطاعت أن تبين أن عدد الأطباء الذكور لا يفي بالغرض حتى الآن.

كانت هناك فرصة عمل في وزارة الصحة وعديلة مؤهلة لها، لكن محمداً وقف في وجهها لأنها تنطوي على الاحتكاك مع الرجال، يشرح محمد الأمر قائلاً: "ستضطر لإبقاء غطاء رأسها عليها، وأن لا تضحك إطلاقاً، أن لا تبتسم أبداً ــ فلو تبسمت لرجل فسيظن أنها تحبه". وبينما هو جالس على الكنبة يغير أقنية محطات التلفزة توقف دقيقة عند قنال سعودي حيث أن امرأة محجبة الرأسٍ تقرأ الأخبار. قال: "هذه جديدة" كان في التلفزيون مقدمات برامج سابقاً لكن نادراً ما كن سعوديات. "ما رأيك لو أن عديلة أرادت أن تكون قارئة أخبار؟" أجاب: "لن توافق أبداً أن تظهر علناً بهذا الشكل وأنا لا أسمح بذلك"، قريباً تبدأ عديلة بالعمل الجديد الذي استطاعت إيجاده والذي تعتبره هي ومحمد مناسب، وظيفة إدارية في مدرسة بنات. لم يكن العمل مطابقاً لمؤهلاتها، لكن قضاء ساعات فيه أمر جيد وهو أفضل من النوم طوال النهار. فدون عمل، أي عمل، ليس لدى عديلة سوى القليل لملء ساعات الفراغ بعد مشاهدة التلفزيون وأشرطة الفيديو وحفلات الشاي مع النساء، فليس ثمة مسارح أو دور سينما في العربية السعودية، وهي لا

تستطيع الذهاب للتسوق وحيدة دون المخاطرة بالتعرض للمضايقات ونظرات الاستهجان.

وحين حل المساء، اقترح محمد القيام بنزهة على شاطىء البحر في جدة وقبل أن تخطو عديلة إلى الخارج، ربطت شعرها إلى الوراء في منديل أسود ضخم، ولفت وجهها بقطعة قماش سوداء صغيرة، تاركة عينيها فقط مكشوفتين، ثم وضعت عباءة فوق كل شيء مغطية رداءها الملون الطويل حتى الأرض. جلسنا نحن الاثنتين في مقعد السيارة الخلفي مع الأطفال، ومحمد وعمه في المقعد الأمامي، وعلى امتداد شاطىء البحر الأحمر، مجموعات من الرجال بأثوابهم البيضاء يجلسون منفصلين قليلاً عن حلقات النساء اللائي تتطاير عباءاتهن السود مع نسمة البحر الحارة وهن يرتبن ما يتعلق بنزهتهن المسائية.

توقفنا ومشينا بمحاذاة الماء، والرصيف الأبيض يتقيأ حرارة النهار المختزنة. وما أن استقرت الشمس في البحر حتى انفجرت المدينة بنغمات آذان صلاة المغرب. وصل محمد إلى سيارته ليأتي بسجاجيد الصلاة. واصطف هو وعمه ورفعا أكفهما لله، واتجها إلى مكة القريبة. لم تنضم عديلة إليهما، موضحة أن السعوديات في العادة لا يصلين أمام الناس. وحين كنا ننتظر، أخرجت منديلاً، رفعت نقابها الطويل لتمسح وجهها المبلل بالعرق. بدت عديلة مبتهجة بهذه النزهة المتواضعة. فهي واحدة من الأمور القليلة التي ما تزال قادرة هي ومحمد على القيام بها سوية. قبل ذلك ببضعة أشهر كانا قادرين على أخذ الأطفال إلى منتزه للتسلية، او التزلج في مزلجة وضعوا فيها بلاستيكاً أبيض سميك كبديل للجليد. لكن كلا المكانين تعرضا للضغط من قبل المؤسسة الدينية ولا يعرضان الآن سوى ساعات مخصصة للرجال وأخرى للنساء وهذا ما جعل الزيارات العائلية أمراً مستحيلاً.

أثارت نتائج الفصل الجنسي سخط بعض رجال الأعمال السعوديين، تأفف بعض رجال الأعمال السعوديين من آثار نتائج الفصل الجنسي على

شركاتهم، فحسين أبو داود، الذي ينتج مصنعه مبيض كلوراكس، أراد أن يقوم بدراسة للسوق حسب الطريقة الغربية ليرى كيف تقوم ربات البيوت السعوديات بأداء غسيلهن. "من الواضح أنني لم أستطع إرسال باحثين ذكور ليتكلموا مع النساء. ولم استطع أن أرسل نساء سعوديات أيضاً، لأنهن قد يلتقين برجال البيوت، ومن أين لي بما يكفي من الناطقات باللغة العربية هنا من غير السعوديات". أخيرا حصل ـ بصعوبة بالغة ــ على بعض المصريات واللبنانيات، اللائي أمضين وقتاً عصيباً في توضيح غايتهن في أرض لا يقترب الغرباء من بيوت أهلها. قال: "في معظم الأماكن حراس عند البوابات مع تعليمات تقضي بعدم السماح لأحد بالدخول ما لم يكن على موعد مسبق.

وجد حسين أن النظام برمته تحيط به التناقضات. "فإذا ما أرادت سعودية أن تشتري صدارة أو سروالاً داخلياً، فعليها أن تناقش الأمر على طاولة الحساب في محل يغص بالفتيان الهنود، ومع ذلك إذا كانت صاحبة أعمال بحاجة إلى مراجعة وثيقة في وزارةٍ حكومية، فهي لا تستطيع أن تضع قدمها هناك ــ بل عليها أن ترسل رجلاً ".

كان حسين واحداً من مجموعة رجال أعمال طلب منهم التعليق على مسودة خطة اقتصادية لوزارة التنمية. وقد أثار جدالاً حول سطر في المسودة ينص على أن الحكومة ستشجع عمل النساء وفق القوانين الإسلامية". نهضت وقلت: "هنا نصف سطر عن النساء في خطة تطوير من ست وثلاثين صفحة وتصرون على "حسب القوانين الإسلامية". فماذا عن الصفحات الست والثلاثين الباقية؟ هل تحاول إرضاء المتطرفين فقط؟".

ومن المستحيل إرضاء المتطرفين، إذ حتى أماكن العزل المفصولة عرضة للخطر. روجت شركة الكابلات السعودية، أكبر مؤسسة صناعية في المملكة، عرضاً لبناء مصنع كل ما فيه من أعمال، من خط الإنتاج وحتى الإدارة العليا، ستكون من الإناث. اعتقدت أن خطة كهذه، في بلد يعاني نقصاً حاداً في قوة العمل، سوف تلقى الترحيب كخطوة هي الأولى من نوعها. لكنني حين ذهبت لأرى الموظف المسؤول عن المشروع، رجاني ألا

أكتب عنه قائلاً: "لقد اتخذنا أقصى درجات الحذر حتى الآن" كان يخشى فشل المشروع في حال بدأ الأصوليون حملة شجب له باعتباره شركاً لإخراج النساء من بيوتهن. لكنه قدمني إلى زوجته، باسلة، التي تدير مؤسسة دار الفكر الرائعة للبنات.

بعد أن اطلعت على اقسام المدرسة، دعتني باسلة إلى بيتها لتناول الشاي. بدا جلياً من الفيلا المبنية من الحجارة الشاحبة، وحوض السباحة المغمور بالضياء والسجاجيد الفارسية والأساس الأنيق أن عملها لم يكن ناتجاً عن الحاجة المادية، التي يوافق عليها المحرر الديني للجريدة السعودية الرسمية. قالت: "لم أعمل أول ما تزوجت. كنت أقضي معظم يومي في الفراش، وحين يعود فواز إلى المنزل متعباً من عمل النهار المضني، أكون سئمة لدرجة أني كنت ألح عليه لأخذي للتسوق. وبعد فترة، قررنا سوية أن الحالة ضرب من الجنون، وأنني ينبغي أن أفعل شيئاً ما بحياتي يؤدي إلى إسهام ما."

دعت باسلة صديقة لها تساعد والدتها في إدارة شركة إنشاءات ناجحة لتنضم إلينا في حفل الشاي. حين مات والدها، توقعت هي وأمها أن يقوم أقاربه الذكور بإدارة أعمالهن وإعالتها هي وأطفالها. لكنهم كانوا كسالى وغير أكفاء، وبدا أن كل ما قدمه والدها سوف يضيع. أوضحت المرأة قائلة: "أخيراً تولت أمي الأمور. ذهبت إلى وزارات الإنشاءات ومعها الأوراق التي تحتاج إلى تصديق. ما من امرأة وطئت قدمها المكان من قبل. أمرها الموظفون بالخروج، رفضت. جلست هناك وظلت جالسة حتى أُرغموا على التعامل معها. وتبين أنها مديرة أعمال ناجحة جداً. وأنقذت العمل."

وحين كانت الخادمات يدخلن ويخرجن ومعهن كؤوس الشاي ومجموعة فاخرة من الكعك والفطائر الفرنسية، دار الحديث عن شعور زوجي تجاه أسفاري التي يتطلبها عملي. قلت لباسلة أن أياً منا لا يرغب بأن نفترق فترة طويلة، لكنه، كصحفي، يدرك متطلبات العمل.

وبعد أن تباهيت قليلا، أخبرتها كيف أنه أعاد ترتيب سيرة حياته لتتناسب مع سيرة حياتي . "فعندما عرضت علي ادارة الصحيفة ان أكون مراسلة لها في مكتب الشرق الأوسط تخلى عن عمله لأتمكن من الموافقة " توقعت أن تفاجأ باسله فأنا وتوني اعتدنا على تولي الأعمال في الشرق ألاوسط وهو الشخص الذي قادنا عمله الى هنا. لكن النظرة التي ارتسمت على وجه عديلة كانت أكثر من الدهشة. بدت مذعورة تماماً، كما لو أنني اعترفت أن زوجي قد ارتكب مجزرة جماعية. أحدثت جلبة بكؤوس الشاي، تنحنحت وغيرت الموضوع.

كان من العسير الحصول على معلومات عن النساء اللائي يعملن خارج الأجواء الآمنة نسبياً كتعليم الفتيات وبنوك النساء والطب. وحين طلبت المساعدة من وزارة الإعلام، ضرب حولي طوق من العراقيل. لذا جربت صلات أخرى متعددة. حذرني رجل أعمال لبناني في جدة قائلاً: "لاتمسي هذا الموضوع إلا إذا كان ما ستكتبينه إيجابياً مائة بالمائة. حين أشرت الى أن هذا غير مرجح، رفض تقديمي لأحد. سمعت عن نساء في جدة والرياض يشرفن على أعمال مختلفة كاستديوهات التصوير، وورش الخياطة ومدارس التدريب على الكمبيوتر. وظننت أن غرفة التجارة قد تستطيع تقديم بعض المساعدات. قال لي موظف متعاون: "لابأس، سأعطيك بعض المواعيد".

في اليوم التالي طلب مني أن أكون في المكتب الإداري في مطار جدة الساعة الثانية بعد الظهر. اعتقدت أنه سأجد امرأة متنفذة لأتكلم معها هناك. لكنني حين وصلت اكتشفت أنها زيارة رسمية لامعنى لها ولاعلاقة لها بشؤون النساء. أمضيت ساعات هناك. شاهدت أشرطة فيديو، مشيت في حجرات الكومبيوتر وغرقت في الاحصاءات الرسمية، فحركة الركاب ازدادت بنسبة 625٪ بين عامي 1975و 1988، وازداد الشحن بنسبة870٪، ومحطة تبلغ مساحتها مساحة 80 ملعباً لكرة القدم مخصصة للحجاج مسقوفة بـ "فايبر غلاس" العاكس للحرارة. لم يكن ثمة طريقة لبقة

لاختصار الرحلة. تتذمر الدول النامية دائماً مـن أن المراسلين لايكتبون عن منجزاتهم، وبأننا نركز دائماً على التقاليد القبلية الغنية بالألوان ونتغافل عن التقدم التكنولوجي. ما أزال مستاءة من غرفة التجارة لإضاعتها وقتي ووقت موظفي المطار.

صادف أن كان ثمة ما يمت إلى قصتي حول مكانة النساء في السعودية في جانب من جوانب المطار العصري المتألق. لكنه لم يكن جزءاً من الرحلة، و لم أدركه إلا عندما كنت أغادر البلاد بعد ذلك بأسبوعين. فحين كنت أنتظر في قاعة المغادرين، اضطررت لاستخدام حمام النساء. اجتزت الزجاج الصقيل والكْروم المتلألئ للأماكن العامة ودفعت الباب الخشبي الأشهب اللون الذي رسم عليه رأس محجب.

في الداخل تقيأت. فالأرضية مغطاة بالبراز وحفرة الحمام مترعة بالأوساخ. بدا وكأن المكان لم ينظف منذ أسابيع. إذ لم يلحظه أحد لأن أحداً من ذوي الشأن لم يدخل ذلك المكان قط.

العربية السعودية هي التطرف. فعلام تبقى في حالة التطرف هذه في حين من السهل تماماً أن نكتب عن بلد اسلامي مثل تركيا، التي تقودها امرأة، وحيث واحد من كل ستة قضاة أنثى، وواحدة من كل ثلاث عشرة شركة خاصة تديرها أنثى؟

أعتقد من المهم أن نمعن النظر في تفاصيل واقع العربية السعودية المروع لأنه نفس عالم الفصل العقيم الذي تطالب به حماس في الاراضي الفلسطينية المحتلة[13] ، ومعظم أحزاب فصائل المجاهدين في أفغانستان، وكثير من الراديكاليين في مصر وجبهة الخلاص الوطني في الجزائر، الآن، من أجل بلدانها و العالم الإسلامي أجمع. لا تقول أي من هذه الجماعات: "لنحذو حذو النموذج التركي. ونفصل الدين عن الدولة". بل ما يطالبون به هو

13 ـ وردت في النص (في اسرائيل).

النموذج السعودي، الذي يعني نظرياً وضع كبت النساء موضع التنفيذ، متذرعين بالكليشات المبتذلة القائلة بأن مكان المرأة هو نعيم بيتها.

في الأغلبية الساحقة من البلدان الإسلامية، سقطت العوائق في طريق توظيف المرأة خلال الخمسين سنة المنصرمة لدرجة أنه يبدو من المستحيل إعادة هذه الحواجز حتى لو أفلحت حكومات أصوليي الخط المتشدد ذات يوم في الوصول إلى السلطة. لكن تحت السطح ثمة تضارب في الغالب حول مسألة النساء العاملات يجعل وضعهن قابلاً للتأثر.

فالنساء، في مصر، في كل مكان من أماكن قوة العمل: في الحقول كما كانت حالهن عبر التاريخ، يبذرن ويغرسن، ويجلسن على جوانب طرقات المدينة، يبعن منتجاتهن. لكنهن ايضاً في مواقع لم يكن المرء يتخيلها في النصف الأول من هذا القرن، حين لم يكن أحد يعرض نساءه إلى "عار" العمل خارج المنزل سوى أفقر العائلات وأشدها بؤساً وشقاء، النساء المصريات طبيبات، مخرجات، سياسيات، اقتصاديات، أكاديميات، مهندسات. وهن في الغالب موظفات لدى الحكومة، أسنان في ترس البيروقراطية المتورمة. والآن، لا يخطر بالبال أن شابة مصرية لن تذهب إلى العمل، إلى أن تتزوج على الأقل. وغالباً ما تجد الزوج بين رفاقها العاملين. الرئيس ناصر هو من مهد العمل الحكومي للنساء، حين وعد بإسناد عمل لأي مصرية تحصل على شهادة جامعية. والآن، يجد الكثير من المتعلمات، بنات أدنى الطبقة الوسطى، عملاً كموظفات لدى الحكومة، يضربن الآلة الكاتبة، يؤرشفن ويتعاملن مع الأوراق ستة أيام في الأسبوع، من حوالي الثامنة صباحاً وحتى الثانية بعد الظهر، إن حجم البيروقراطية معناه أن معظم الموظفين هم عاطلون عن العمل، وأن معظم الرجال والنساء يمضون يوم العمل بالشائعات وبارتشاف فناجين لا عدد لها من الشاي المحلى. ومع أن الراتب محزن ــ أقل من أربعين دولاراً في الشهر ــ فإن هذه النقود تمنح المرأة ـ على الأقل ـ درجة بسيطة من حرية التصرف في الإنفاق والمكانة الناتجة عن المساهمة في ميزانية العائلة.

معظم الشابات العازبات اللائي عرفتهن يتمتعن بحرية التصرف بالمرتب بل وحتى مواجهة مكان العمل القاسي. لكن صديقاتي المتزوجات ينظرن إلى الأمر بصورة مختلفة. فالعمل الذي هو فترة راحة بحد ذاته، هو أسفين يدق بصعوبة بالغة بين ساعات العمل المنزلي المضنية.

أمضيت عصر احد الأيام مع امرأة متزوجة حديثاً وقد انقضى على النحو التالي. بعد ركوبنا باصاً مزدحماً لدرجة أن ثلاثة أو أربعة ركاب تعلقوا خارج الباب بقدم واحدة على درجته، ولمدة ساعة ونصف تقريباً، نزلنا في محطة تبعد حوالي نصف ميل عن شقتها ووقفت المرأة في الصف حوالي عشرين دقيقة أمام مخزن أغذية حكومي، لتحصل منه على طعام بسعر مخفض. حملت مواد البقالة إلى البيت إلى مطبخ دون ثلاجة وأعدت الشاي في الحال لزوجها الذي وصل من عمله إلى البيت وتمدد على أريكة وهو يناقش والدها وأحد أبناء أخوته. ثم صعدت الدرج إلى أعشاش الحمام التي تربيها على سطح الشقة، وأطعمت الطيور فضلات خبز البارحة، ثم اختارت زغلولين ذبحتهما في نفس المكان.

نتفت ريش الطيرين، قطعتهما وطهتهما، وسلقت القمح المجروش والمعكرونة وقدمت الوجبة للرجال الذين بدوا متأففين من انتظارهم الطويل، ثم أعدت الشاي من جديد، نظفت الأطباق وأواني الطبخ وكنست الغبار الطاغي عن الأرضية والأساس، نظفت ثيابهم جميعا بيديها وتركتها في دلو لتنشرها على السطح قبل الذهاب إلى عملها في اليوم التالي، ثم وضعت العدس لينقع من أجل وجبة الغد، وأخيراً جلست حوالي التاسعة وعلى ركبتيها بعض الملابس تخيطها، لتهب بعد عشر دقائق فقط لتعد الشاي لبعض الجيران الذين دخلوا المنزل. ثمة أمران غير عاديين في وضع المرأة، إذ لا توجد امرأة أخرى في المنزل ـ أخت الزوج أو أمه ـ لتساعدها في الأعمال الروتينية، و لم تنجب أطفالاً حتى الآن ليضافوا إلى مسؤولياتها.

وحيث تشارك النساء الآن في العبء الاقتصادي لعوائلهن فإن القلة القليلة من الرجال المصريين على استعداد للمشاركة في الأعمال المنزلية.

بالنسبة للنساء اللواتي يرهقهن روتين الإسراع في العودة من العمل إلى المنزل لتجهيز وجبة ضخمة للعائلة الملحاحة تصبح رسالة الأصوليين القائلة بأن مكان المرأة هو البيت مغرية.

ويعطي الرجال أيضاً أذناً صاغية لهذه الرسالة. فهم معتادون بحكم تربيتهم على أيدي نساء لا يعملن خارج المنزل، على بيوت تكوى فيها قمصانهم وتكنس الأرضيات، ويعد الطعام إعداداً متقناً وهو جاهز دائماً، قد يلتقي الشاب حالياً بالعروس كزميلة عمل في مكتبه. وقبل الزواج، يستمتع بفرصة الإعجاب بجمالها، يشاركها النكات والقيل والقال. لكن ما أن تصبح زوجته حتى يستاء من حقيقة أن الرجال الآخرين في المكتب يسرون بصحبتها. وإذا لم تتحجب فوراً قد يبدأ بالضغط عليها كي ترتدي الحجاب.

وحين يتبين أن العيش مع زوجة عاملة أقل عافية من العيش مع واحدة لا تعمل، لا يعود يفكر بمد يد العون في الأعمال الروتينية، لأنه لم يرَ رجلاً يفعل شيئاً من هذا القبيل، بدلاً من ذلك، يشتم الحكومة على الاقتصاد المدمر الذي يجعل عمل زوجته ضرورةً. وحين يسمع شيخاً أو إماماً يخطب حول مكان المرأة، ويعد بأيام أفضل في ظل السلطة الإسلامية، يعاين كوم الغسيل والأرضية المتسخة والغداء البسيط الذي أعدته زوجته المتعبة ويتساءل عما إذا كانت قضية كهذه لا تستحق المساندة.

ولمعرفة ما يحدث إن هو قام بالخطوة التالية وانضم إلى الثوريين، من الضروري أن ننظر في الوضع الإيراني.

إذ أن الثورة حتى لو نجحت لا تستطيع دائماً أن تحقق كل ما طمح المتطرفون إلى تحقيقه، إن التشبث بالتقاليد التي وجدت دون تغيير مدة قرون، كما هو الحال في السعودية، شيء وإعادة فرض هذه التقاليد بعد أن صاغ التغيير السابق ثقافة مغايرة شيء آخر مختلف كل الاختلاف.

منذ العشرينات والحكام البهلويون يحاولون جعل بلادهم غربية الطراز، ماسحين، بالقوة أحياناً، آلاف السنين من تقاليد فصل الرجال عن النساء. وحين أطاح الثوريون الإيرانيون بالشاه عام 1979، كان ثمة رجال لتصفيف شعر النساء، وخياطون رجال يفصّلون ثياب النساء، ومعلمون في صفوف البنات.

شرع المتطرفون بوضع نهاية لذلك كله، طلبوا من أطباء الأمراض النسائية الذكور البحث عن مجال آخر لمهنتهم، حاولوا تركيب ستائر لتقسيم قاعات المحاضرات في الجامعة بين الذكور والإناث وحظروا على الحلاقين الرجال لمس رؤوس النساء.

باستثناء الحلاقين لم يجدِ ذلك نفعاً. فما لم يدركه المتطرفون هو أن الخميني حين وصل الأمر إلى حد الفصل الجنسي، لم يكن معهم تماماً. فالخميني، الذي كان نصيّاً دائماً، قرأ كلمات القرآن والحديث و لم يستنتج منها على هواه. فحين قرأ أن على نساء النبي أن يقرن في بيوتهن، فهم أن هذا يعني نساء النبي، ونساء النبي فقط. أما المسلمات الأخريات فلهن أدوار يؤدينها خارج بيوتهن، وقد شجعهن على ذلك. شجع النساء منذ البداية على النزول إلى الشوارع للتظاهر وأثنى على دورهن كثوريات، يقاتلن في الشوارع جنباً إلى جنب مع الرجال.

بالنسبة له، كانت القوانين الشرعية واضحة: لا يجوز للرجال والنساء الذين لا تربطهم قرابة الحرم أن يختلوا ببعضهم، وعلى النساء أن يرتدين الحجاب. ومن الجلي أن مصففي الشعر لن يكونوا رجالاً في الصالونات التي تخدم النساء بعد الآن لأنهم يلمسون رؤوسهن ويشاهدونهن دون حجاب. وينطبق الأمر نفسه على مدربي الرياضة الذين يتدرب طلابهم على أجهزة اللياقة البدنية، والمراسلين الذين يغطون الفعاليات النسائية حيث لا يرتدى الحجاب.

لكن لم يكن يعني أن هذه الأنشطة ينبغي أن تتوقف. ما حصل كان عكس ذلك وهو انتعاش مفاجىء لفرص العمل بالنسبة للنساء فالحظر على

وجـود الرجـال والنسـاء وحدهـم خلـق الحاجـة إلى مدربــات علــى قيــادة السـيارات، وفي مجـال الإعـلام، فتحـت الحاجـة لتغطيـة الرياضـات النسـائية والأحـداث الأخـرى المفصولــة، أبــواب أعمــال للمنتجــات والمخرجــات والمراسلات ومهندسات الصوت.

وما دام الحديث قد أوضح بجلاء أن النبـي قـد وافـق علـى عنايـة النسـاء وإشرافهن على جرحى الحرب، فلا مجال للفصل في أمور الطب. لكن بما أن المناخ الإسلامي الحالي قد جعل الكثير مـن النسـاء يفضلـن أن يتـم فحصهـن على يد طبيبة، حصلت زيادة في الحاجة إلى مقـاعد للنسـاء في كليـة الطـب، ورأت القابلات مكانتهن تعلو، في حين كـانت المدارس تفصـل علـى وجـه السرعة لحماية الصغار المرهفي الاحساس، وتم التخلي في معظم الأماكن عن فكـرة وضـع سـتائر لفصـل قاعـات المحاضرات في الجامعــات. إذ مــادامت الجامعات ستكون إسلامية بشـكل كـامل، والدخـول إليهـا يتطلـب شـهادة حسن سلوك مـن الجـامع المحلـي للطـالب فـلا حاجـة لفصـل هـؤلاء الشـبان المتدينين الذين فصلوا أنفسهم بشـكل اوتامـاتيكي. ففـي المحـاضرات، يجلـس الرجـال في جـانب وتجلـس النسـاء في الجـانب الآخـر. منصـة الاسـتاذ فقـط أثارت اشكالات. فقد ثبتها البناؤون في بعــض قاعـات المحـاضرات بـالأرض من جهة الرجال. وهذا ما جعل الأعداد المتزايدة من المحاضِرات الإناث يقفن من جهة الإناث اجلالاً للآداب العامة وجو الحشـمة الجديـد لكـن ليـس ثمـة مكان يضعن عليه دفتر ملاحظاتهن

في جامعة مدينة الأهواز الشـمالية، التقيـت بطالبـة شـابة اسـتفادت مـنٍ التغييرات التي أعقبت الثورة. كانت تدرس الطب، وتعيــش في مهجـع بعيـدا عن عائلتها الريفية الشديدة التدين. تقول إن والديها مــا كانـا ليسـمحان لهـا بالذهاب إلى الجامعة في ظل الشاه، أو أن تعيش بعيداً عن البيت، أو تعملٍ في مستشفى. لكنهما الآن ينظران إلى الجامعات والمشافيٍ باعتبارهمــا جـزءا مـن النظام الإسلامي، وبالتالي أماكن آمنة لابنتهم. وبعيـداً عـن البيـت لهـا حريـة الالتقاء بالرجال، ولو في ظروف شديدة الانضباط، وقد وجدت من ترغـب

بالزواج منه مؤخراً، وما أدهشها أن والديها وافقا على خيارها وبذلك جعلاها أول امرأة في تاريخ العائلة تتزوج عن حب.

في الحكومة الثيوقراطية الايرانية رقيت النساء إلى مراتب وكيل وزارة، وفي كل انتخاب، يناشد رفسنجاني المقترعين أن يدفعوا مزيداً من النساء إلى البرلمان. في مجال الأعمال، قابلت امرأة تدير معملاً للمخمل وأخرى ترأس شركة نقل. أما (نازي رافاندوست)، التي تدير المعمل، فقد قالت بأنها لم تواجه مشاكل في مجال عملها داخل إيران. قالت:"كل مشكلاتي تنشأ في الخارج". فالسفر لشراء قطع الغيار غالباً ما تعقده عقبات التأشيرة وعرقلات الشحن. أما المرأة التي تدير مؤسسة النقل فقد قالت إن النجاح مسألة براعة وحس عام كما هو حال الأعمال في كل مكان." من الواضح أنني لا أذهب إلى وزارة المواصلات وأنا أرتدي هذا اللباس"، قالت ذلك وهي تشير بإصبعها إلى البدلة الحريرية المزركشة التي ارتدتها في حفل مسائي في شمال طهران.

حتى الآن، عززت النساء مكانتهن في مجتمع ما بعد الثورة لدرجة أن بعضهن ينتقدنه بصوت عال، ففي مكاتب المجلة النقدية، (غولافا)، بعض أكثر الرسوم الكاريكاتيرية حدة ترسم وتعلق عليها امرأة. بل والأكثر دلالة، في عدد خريف 1991 من مجلة الشؤون الدولية الإيرانية، أهم نشرة إيرانية تعنى بالسياسة الخارجية، كتبت أستاذة الأنثربولوجيا المساعدة وتدعى فاطمة كيفتشين صفحة انتقدت فيها بقايا سياسة الفصل الجنسي المضجرة.

كتبت أن هذه السياسة تفضي"دون أدنى شك إلى معرفة الفرد بجنسه بشكل أكبر، لكن لا تؤدي بالضرورة إلى زيادة معرفة الفرد بالجنس الآخر. الفصل الجنسي إلى هذا الحد أمر غير طبيعي. وسينبثق مجتمع مزدوج مجتمع ذكور ومجتمع نساء غريبان عن بعضهما بعضاً ولا يدرك أي منهما مشكلات الآخر" .

الفصل العاشر

السياسة، بالتصويت وبدونه

"قل اللهم، مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء"

سورة آل عمران 3: 26

بعد عام من حرب الخليج، بدت صفوف النساء في جبال وأودية كردستان العراق، وكأنها تمتد إلى ما لا نهاية. تلألأت أشعة الشمس على الملابس المتألقة بالذهب والفضة. لقد ارتدين أفضل ملابسهن، لأن ذلك يوم احتفال. فلأول مرة في حياتهن، اصطفت نساء كردستان لانتخاب نوابهن.

قبل ذلك بعام، أثناء الإنتفاضة الكردية التي أعقبت نهاية الحرب، رأيت ملابس مماثلة، متألقة زاهية الألوان، ممزقة ومرمية في كومة متسخة قرب باب كوخ مسبق الصنع داخل أسوار سجن عراقي ، وبداخل الكوخ مد فراش ملطخ.

كانوا يأتون بالكرديات إلى هذا المكان، يعرونهن ويغتصبونهن. كان الاغتصاب، بالنسبة لبعضهم، جزءاً من نظام التعذيب الذي خضعوا له كسجناء سياسيين. وتم اغتصاب البعض الآخر كوسيلة تعذيب لآبائهن

المسجونين أو أخوتهن أو أزواجهن. والفكرة هي تحطيم روح الرجال بتدمير شرفهم عن طريق انتهاك حرمة أجساد نسائهم. كانت الاجراءات روتينية لدرجة أن موظفي السجن أعدوا بطاقة تعريف بأحد مستخدميهم، واسمه السيد عزيز صالح أحمد. و بصورة نظامية أنيقة، ذكرت في الزاوية اليسرى في أسفل البطاقة، المهنة، مقاتل في الجيش الشعبي، "النشاط": انتهاك شرف النساء. أي أن عزيز صالح أحمد كان موظفاً لاغتصاب النساء في السجن. لقدسمى صدام حسين حملته على الأكراد باسم (الأنفال) تيمناً بسورة في القرآن تتحدث عن غنائم الحرب المقدسة. من العسير أن نتصور استغلالاً للدين أبشع من هذا الاستغلال.

كان هذا ما تعنيه السياسة بالنسبة لنساء كردستان طوال حياتهن تقريباً: نشاط خطير بل وربما مميت يؤدي إلى أماكن كالفراش الملطخ أو الزنزانات العديمة الهواء الملطخة بالبراز الذي يجري بأقنية تحتها. بدا الأمر، بالنسبة لي، مثل معجزة أن يتغير معنى السياسة في غضون سنة واحدة لدرجة أن تقف النساء مبتسمات في نسق كي ينتخبن، والأكثر إثارة للدهشة هو أسماء النساء في ورقة الاقتراع.

تغص الطريق إلى السلطة السياسية بالعقبات بالنسبة للنساء في معظم المجتمعات الإسلامية. وفي بلد كالكويت مثلاً لم تنل النساء حق الاقتراع بعد فما بالك بالحكم. وحتى حيث يفترض أن النظام منفتح على النساء، فإن المطالبة بمكان فيه غالباً ما يعني الثبات في وجه الإساءة والتهديد بالعنف الجسدي. لقد اضطرت إحدى أعضاء البرلمان في انتخابات 1993 في الأردن أن تناضل من أجل حق الكلام في حشد، لأن المتطرفين الإسلاميين اعترضوا على صوت أنثى في حشد مختلط.

في عام 1994، قادت النساء ثلاثة بلدان إسلامية. ومع ذلك، كان لوجودهن في قمة السلطة تأثير طفيف في حياة نساء القاع. ففي حين كانت تانسو تشيللر تركز اهتمامها على إعادة صياغة الاقتصاد التركي، كانت

الشابات التركيات اللائي يضبطن مع الرجال في المناطق الريفية يجبرن على الخضوع "لفحص العذرية" في مخافر الشرطة المحلية. وفي حين أصبحت بيجوم خالدة زيا البنغلاديشية أول امرأة مسلمة رئيسة دولة تلقي خطاباً في الجمعية العامة للأمم المتحدة في عام 1993، كان المتطرفون يستخدمون التهديد بالموت في محاولة لإسكات كاتبة بنغلاديشية انتقدت بعض جوانب الإسلام. وفي دورتها الأولى في الحكم، أبقت الباكستانية بنازير بوتو قوانين الاغتصاب التي تعاقب الضحية بوصفها "زانية" وتترك المغتصب حراً طليقاً. ولدى عودتها إلى السلطة في عام 1993، تهيأ لبعضهم أنها قد تكون أفضل، واعدة بإنشاء مخافر شرطة نسائية بكاملها وبتعيين قاضيات.

جانب من الصعوبة التي تواجهها القياديات في البلدان الإسلامية هي أن مناصبهن غالباً ما تكون غير واضحة المعالم ودائماً تتهددها مخاطر العودة الى الوراء. ففي تركيا، طفت على السطح دلالات الاستياء من جنس تشيللر في مؤتمر في آب 1993 أقامه رئيس الوزراء السابق مسعود يلماظ بدأ المندوبون خلاله يهتفون: "ليعد مسعود إلى السلطة ولتعد تانسو إلى المطبخ"

يغلب على السياسيات المسلمات أن يكن من نوع خاص. ففي يوم الاقتراع في كردستان في أيار 1992، لم تكن إحدى العضوات، هيرو أحمد، ترتدي لباساً متألقاً. كانت ترتدي البنطلون الفضفاض الذي هو بلون التراب والقميص المشدود بالحزام اللذين ترتديهما منذ عام 1979، حين انطلقت إلى الجبال للإنضمام إلى (البشمركة) الميليشيات الكردية التي يعني اسمها "نحن الذين نواجه الموت"، وخلال السنين الاثنتي عشرة التي قضتها هيرو في الجبال كطبيبة نفسية تعلمت كيف تستخدم بندقية الهجوم والمدفع المضاد للطائرات. لكنها كانت في معظم الأحيان تصور أفلاماً. وأشهر جزء من أفلامها كلها يبين غيوم الغاز المتصاعد فوق قرية ياك سامر في عام 1988— أحد الأجزاء الفلمية المعروفة عن هجوم الغاز السام الذي قام به العراقيون.

في يوم الاقتراع، وقفت النساء في الصف طوال النهار ليصوتن لها. بعضهن أميات، لم يمسكن قلماً من قبل. في نهاية حساب النتائج، انتخبت سبع نساء منهن هيرو، إلى البرلمان المؤلف من مائة وخمسة مقاعد.

ما حصل لاحقاً جاء مطابقاً للنمط الذي يكرر نفسه في كل دولة إسلامية تفوز فيها النساء بصوت سياسي. فالنساء السياسيات يحاولن دائماً تقريباً أن يصلحن المكانة الشخصية اللامتكافئة التي تتحكم بالزواج والطلاق والوصاية على الأطفال والملكية. بدأت البرلمانيات في كردستان بشن حملة لإصلاح القوانين القائمة على الشريعة التي تحرمهن الحقوق المتساوية مع الرجال. من مطالبهن بتحريم تعدد الزوجات، إلا في حالة مرض المرأة عقليا، وتغيير قوانين الإرث بحيث تتلقى البنات حصة مساوية لحصة الابن من أملاك الوالدين، بدلاً من نصف المقررة للولد.

ظنت هيرو أن البرلمان قد يقر قانوناً ضد تعدد الزوجات، فالتعدد في القرآن، يعرض بوصفه خياراً للرجال، وليس بوصفه حاجة. ففي المجتمع العربي في القرن السابع، لم تكن هناك تقييدات على عدد الزوجات اللائي يتخذهن الرجل. وقد وضع القرآن، بإشتراطه أربع زوجات كحد أقصى، حدوداً و لم يعط رخصة. والقراءة المعمقة للنص تظهر أن أحادية الزواج هي المفضلة . يقول القرآن: ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة. أوما ملكت أيمانكم، ذلك أدنى ألا تعولوا﴾. ثم ينص لاحقاً: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا.﴾[14].

وقضية تعدد الزوجات متماثلة مع مسألة العبودية، التي حرمت في البلدان الإسلامية بصورة تدريجية. كانت العربية السعودية آخر من أصدر القوانين بإلغائها في العام 1962، حين اعتقت الحكومة كافة العبيد في المملكة ودفعت ثلاثة أضعاف السعر القائم آنئذٍ. وكما هو الحال بالنسبة لتعدد الزوجات، تبيح التعابير القرآنية العبودية لكنها لا تشجع عليها وقد تضمنت السنة المحمدية عتق الكثير من أسرى حروب النبي الذين استعبدوا. وتمت الاشادة بتحرير الرقيق بوصفه عملاً من أعمال المسلم التقي، فإن معظم

---

14 ـ سورة النساء ، 4: 129.

المسلمين الآن يقرون بأن الظروف قد تغيرت بما فيه الكفاية بعد القرن السابع لتتيح لهم سن القوانين ضد ممارسة يرجح أن النبي كان سيحرمها لو كانت أيامه تسمح بذلك. وتعدد الزوجات في طريقه إلى الزوال عبر العالم الإسلامي ومعظم الفقهاء المسلمين لا يرون عائقاً دينياً في طريق تحريم هذه الممارسة قانونياً.

بالنسبة للبرلمان الكردي، ستأتي المصاعب في حال المطالبة بالتغيير التي لا تطرح في القرآن بوصفها اختياراً، مثل تقسيم العقارات وإعطاء البنين ضعف حصة البنات.

لقد وضع القرآن صيغة الميراث كأمر على كافة المؤمنين أن يتبعوه. وكانت هذه الصيغة القرآنية ، في جزيرة العرب في القرن السابع، خطوة جبارة إلى الأمام لصالح المرأة، التي ظلت حتى ذلك الحين تعتبر بصورة طبيعية كالملكيات الأخرى التي تورث، لا كوريثة وحائزة على الملكية لصالحها. وقد اضطرت معظم النساء الأوروبيات للانتظار اثني عشر قرناً بعد ذلك التاريخ للوصول إلى الحقوق التي منحها القرآن للنساء المسلمات. وفي بريطانيا لم تبطل قوانين ملكية النساء المتزوجات القاعدة القاضية بوضع ثروة المرأة كلها تحت هيمنة زوجها حتى عام 1870.

وتدافع السلطات الإسلامية، هذه الأيام، عن التقسيم غير المتساوي للميراث بالإشارة إلى أن القرآن يطلب من الرجال إعالة زوجاتهم وأطفالهم، في حين يسمح للمرأة أن تحتفظ بثروتها كلها لشؤونها الخاصة. وفي الواقع العملي نادراً ما تجري الأمور على هذا النحو. ترأست هيرو فرع منظمة "أنقذوا الأطفال" الكردية، وهي منظمة أثبتت أبحاثها أن المال في أيدي النساء يعود بالنفع على العائلة أكثر من المال في أيدي الرجال.

ذهبت لزيارة هيرو في كانون 1993، حين كان البرلمان يستعد لمناقشة البرنامج النسائي. مكتبها عبارة عن غرفة صغيرة في بيت كبير كان ذات يوم لأحد موظفي صدام حسين الكبار. انتزعت هيرو أثاث الغرفة وحاولت أن تخلق جو المسكن الجبلي الكردي التقليدي. غطت الأرضية بالبسط والوسائد

الكردية. وتلوت النباتات المتسلقة صاعدة الجدران والعوارض الخشبية وقرب السقف كان سنجاب يندفع داخلاً وخارجاً من جيب صغير في إحدى العوارض.

سن القوانين، بالنسبة لهيرو، ليس سوى بداية. قالت: "لا أعتقد أن بعض العادات وطرق التفكير يمكن أن تتغير بمجرد وضع مجموعة قواعد جديدة، بل تحتاج إلى زمن، وترويج وتعليم، أولاً علينا أن نهيئ الناس لفهمها ثم دفعهم لقبولها تدريجياً."

في تلك الأثناء، كان أعضاء اللجنة التي شكلتها البرلمانيات يطوفون كردستان في محاولة لكسب التأييد للإصلاحات القانونية. زاروا النساء في المدن والقرى النائية، وهن يحملن عريضة لصالح التغيير، في آب 1992 كان على العريضة 3000 اسم، وبعد عام وقع 30000.

من حيث المبدأ، تكفي مساندة عشرة برلمانيين لتقديم مسودة قانون لإصلاح قانوني قيد الاقتراع ، في أيلول 1993، كان 35 عضواً في البرلمان قد وقعوا على المقترحات. بيد أن الاصلاحات راوحت في مكانها. قال أعضاء البرلمان أن من الضروري انتظار ما سمّوه الوقت "المناسب" لتقديم هذه المقترحات.

لم يكن واضحاً متى سيكون هذا الوقت "المناسب". وبحلول صيف 1994 بدا أنه قد لا يأتي أبداً. حينئذ، تداعى البرلمان الكردي في خضم الصراع المرير بين الحزبين الكرديين الرئيسيين. وبات من غير المرجح أن يأتي أي تغيير من هناك.

وحتى لو حصل ذلك، فإن الإصلاح التشريعي لقانون مبني على أساس الشريعة نادراً ما حظي بالنجاح الدائم. فقد استبدلت تونس في عام 1956 قانونها الإسلامي بمجموعة قوانين موحدة للمسلمين والمسيحيين واليهود تحظر تعدد الزوجات والطلاق. وتعطي النساء راتباً مساوياً لراتب الرجال وحقوقاً مساوية في الطلاق. لكن القانون كان متقدماً جداً على الأوضاع العامة لدرجة أنه لم ينجح إطلاقاً في إحداث تغيير عميق. أن يمشي المرء في

شوارع تونس هذه الأيام كمن ينتقل إلى كوكب نادراً ما توجد عليه نساء. فباستثناء قلة من السائحات الأجنبيات، لا تشاهد النساء في الأماكن العامة.

في إيران أُطيح بقوانين الشاه التي تحظر تعدد الزوجات وزواج الأطفال بعد الثورة. وفي مصر، موطن الحركة النسائية العربية الحديثة، للإصلاحات التشريعية تاريخ مختلط. فقد نزلت المحجبات عام 1919 إلى شوارع القاهرة للتظاهر ضد الحكم الكولونيالي البريطاني. في عام 1956، بعد زوال الانتداب، منح الرئيس المصري جمال عبد الناصر النساء حق التصويت. لكن قانون الأحوال الشخصية ظل حتى عام 1979 يحرم على النساء مغادرة بيت الزوجية دون أذن من الزوج أو أمر من المحكمة.

في رواية له يكتب نجيب محفوظ، الروائي المصري الحائز على جائزة نوبل، بصورة مؤثرة عن أمينة، التي تغادر بيتها مرة واحدة خلال خمسة وعشرين عاماً من الزواج لتزور مسجداً مجاوراً. حين يعلم زوجها أنها تحدته وخرجت يطردها من البيت: "نزل الأمر عليها نزول الضربة القاضية. صعقت و لم تنبس بكلمة. لم تستطع حراكاً ... لقد فكرت بأشكال عديدة من الخوف. فكرت أنه قد يصب جام غضبه عليها وأن يصم أذنيها بصراخه وشتائمه. حتى أنها لم تفكر بالعنف الجسدي، لكن فكرة الطرد لم تشغل بالها قط. لقد عاشت معه خمسة وعشرين عاماً ولا تستطيع أن تتصور أي شيء يمكن أن يفرقهما أو يقتلعها من هذا البيت الذي أصبحت جزءاً لا يتجزأ منه".

ولعل ما هو أسوأ من التهديد بالطرد هو قانون بيت الطاعة. يمنح هذا القانون للرجل إمكانية إرغام الزوجة الهاربة أو المبعدة على العودة إلى البيت والنوم مع الزوج، مهما تكن درجة كراهيتها أو مقتها له. ويمكن استدعاء البوليس، إذا لزم الأمر، ليجروا المرأة ويعيدوها إلى بيت زوجها. وهناك قوانين أخرى تفيد بأن المرأة المصرية يمكن أن تطلق دون إعلامها بذلك. و لم يكن متعددو الزوجات مطالبين شرعاً بإعلام زوجاتهم عن بعضهن. وبعض

الزيجات لم تكتشف إلا بعد وفاة الزوج، حين تظهر على مسرح الأحداث عائلة جديدة تطالب بحصتها من الميراث.

اختطت النساء المصريات طريقهن تدريجياً إلى عالم السياسة.في عام 1962 أصبحت حكمت أبو زيد أول امرأة في الوزارة، في منصب وزيرة الشؤون الاجتماعية. لكن لم يحصل شيء آخر حتى عام 1978، حين قامت خليفتها عائشة راتب، مدعومة بجيهان السادات زوجة الرئيس، بشن حملة لإصلاح قانون الأحوال الشخصية. وقد كانت إصلاحات خفيفة، تطالب الزوج بإعلام زوجته بالطلاق، أو بنيته اتخاذ زوجة أخرى . وإذا ما تزوج بأخرى، يكون للأولى حقٍ الطلاق منه خلال اثني عشر شهراً. وأعطت الإصلاحات للمطلقة أيضاً حق الوصاية على الأطفال على الأقل حتى سن العاشرة للصبيان والثانية عشرة للبنات، مدة قابلة للتمديد بأمر من المحكمة، حتى الخامسة عشرة بل وحتى الزواج. والحصول على نفقة أكثر عدلاً، وحق الاستئناف ضد إرغام الزوجة على بيت الطاعة. لكن هذه الإصلاحات، رغم بساطتها، أثارت في الحال صرخات تقول: "قوانين الإسلام، لا قوانين جيهان". ووصم الشيوخ الراديكاليون جيهان السادات وعائشة راتب بالكفر والمعاديات للعائلة. وانفجر الشجار في الأزهر، الجامعة الإسلامية القديمة. وصرخ الطلاب الذكور "واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع،! نحن نريد زوجة، زوجتين، ثلاث أو أربع زوجات". في حين أن القوانين، في الواقع، لم تمس التعددية ولا حق الطلاق من طرف واحد. بل و لم تأت على ذكر ختان النساء.

في العام 1979، أصدر السادات القوانين بمرسوم رئاسي، أثناء عطلة برلمانية. وحدد نسبة جديدة تهدف إلى زيادة عدد النساء في الحكومة، لكن المعارضين تابعوا المعركة في المحكمة. وأفلحوا في عام 1985 بالإطاحة "بقوانين جيهان". والآن اتسعت دائرة الصراع، بوجود الأصوليين الذين يسعون للإطاحة بالحكومة المصرية لصالح ما يقولون عنه أنه نظام إسلامي طاهر.

وذلك النظام على خلاف مع كافة الأشكال الحكومية السائدة الآن، بما فيها الديمقراطية الغربية.

الدولة الإسلامية، بشكلها المثالي، ليست قومية بأي معنى حديث للكلمة. وهي بلا حدود. ومن المفترض أن تكون اتحاداً دينياً وسياسياً لكل المسلمين، على غرار المجتمع الذي أنشأه محمد في المدينة. ليس ثمة أحزاب سياسية، بل مجرد أمة إسلامية واحدة موحدة، على رأسها خليفة يسير على هدى النبي محمد باعتباره السلطة الدينية والسياسية القائدة للمسلمين.

والخليفة ينبغي أن يكون رجلاً، لأن جانباً من واجبه هو أن يؤم صلوات الجماعة، ولا يسمح للمرأة أن تؤم الرجال في الصلاة خشية أن يستثير صوتها الغرائز بدلاً من الأفكار الروحانية. والخليفة ينبغي أن يختاره أعضاء المجتمع البارزين وينبغي أن يكون شخصاً يخدم مكرهاً وليس شخصاً يرشح نفسه للانتخابات.

يخضع للخليفة جانبا الحكومة، القضائي والتشريعي، بمجلس الشورى، الذي يشبه البرلمان من بعض وجوهه، علماً أن دوره استشاري أكثر مما هو تشريعي، بمجلس من الخبراء يخدمون كمرشدين مقربين من الخليفة، والقضاة، الذين ينبغي أن يكونوا، حسب معظم المصادر، من الرجال، باعتبار أن النساء عاطفيات جداً لايستطعن إصدار الأحكام. وينبغي أن تستمد قوانين الدولة الإسلامية من القرآن أولاً. لكن بما أن حوالي ستمائة آية من آياته الستة آلاف تعنى بالقوانين، وحوالي ثمانين فقط من هذه تعنى مباشرة بالجريمة والعقاب والعقود وقوانين الأسرة، فلا بد من الرجوع إلى المصادر الأخرى. والحديث يسد الكثير من الثغرات، ومصدر التشريع الثالث، في القضايا التي لم يتطرق إليها القرآن ولا الحديث، هو الممارسات التي حسمت بالاتفاق الجماعي للمجتمع الإسلامي، إذ يقال أن النبي قد قال ما معناه "لا تجتمع أمتي على ضلال".

وفي حين يستطيع المسلمون أن يصوتوا لممثليهم في دولة إسلامية مثالية، فالنظام لا يمكن أن يكون ديمقراطياً بمعنى أن يجيز الايديولوجيات المتنافسة،

إذ ما من ايديولوجية أرضية ـ حتى لو ساندتها إرادة الأغلبية ـــ يمكن أن يسمح لها أبداً أن تعلو على قوانين القرآن الإلهية. عندما ألغت الحكومة الجزائرية الانتخابات التي بدا مرجحاً أنها ستأتي بحكومة إسلامية إلى السلطة عام 1992، فعلت ذلك على أساس أن الإسلامويين بمجرد أن ينتخبوا ديمقراطياً سيقومون بتفكيك المؤسسات الديمقراطية الجزائرية، بل إن أعضاء الحزب الإسلامي الرئيسي، جبهة الخلاص الإسلامية، كانوا يمزحون قائلين أن شعارهم هو "رجل واحد، انتخابات واحدة، ولمرة واحدة".

أما دور النساء في دولة إسلامية مثالية فهو مثار جدال. ففي حين لا يمكن أن يكنّ خليفة أو قاضياً، فإن تاريخ المجتمع في المدينة يظهر النساء وهن يشاركن في القرارات الحاسمة ويحضرن النقاشات السياسية. فالنساء غالباً ما كن يجادلن محمد والخلفاء الذين جاءوا بعده، وقد ثبت أن كانت آراؤهن أحياناً حاسمة.

ومع ذلك فإن لدى الطالبات في جامعة غزة الإسلامية فكرة أكثر قتامة عن دورهن المحتمل في الدولة الإسلامية المستقبلية. أوضح أحمد ساطي الناطق باسم الجامعة قائلا: "تحتاج السياسة إمكانيات عقلية. والقلة من النساء لديهن هذه العقلية" وجدت هذا الرد غريباً، وأنا أرى أن أبرز شخصية سياسية فلسطينية في ذلك الحين هي حنان عشراوي الناطقة الفلسطينية في محادثات السلام في واشنطن.

كانت ردة فعل أحمد ساطي: "اسألي زوج عشراوى، سلي أولادها إن كانت زوجة جيدة، وأماً جيدة وأختاً جيدة ـــ إن تكن تؤدي هذه الأدوار تماماً، ثم تكون لديها القدرة على المشاركة بأمور أخرى، فليكن، أهلاً بها في عالم السياسة. لكن إذا كان زوجها وأطفالها يعانون جراء غيابها وانشغالها بالسياسة. فهذا ليس من الإسلام." من المعروف على نطاق واسع أن زوج حنان يعتني بابنتيهما أثناء غيابها، وأنه مرتاح في المطبخ وفخور بعمل زوجته أما أحمد ساطي فلم يفهم و لم يقبل شيئاً من ذلك. تساءل متأملا: "كيف يمكنني أن أبني بيوت الآخرين وبيتي خراب؟"

في إيران، التي حاولت أن تصوغ العديد من مؤسساتها السياسية على شاكلة المؤسسات التي كانت قائمة في المجتمع الإسلامي الأصيل، تم تشجيع مشاركة النساء السياسية منذ المظاهرات التي أطلقت الثورة. وثمة نساء في البرلمان وارتقت بعض النساء مراتب وصلت إلى وكيلات وزارة.

بعد ثورتها، مالت إيران مرة واحدة باتجاه الديمقراطية بإجراء استفتاء يطرح السؤال: الجمهورية الإسلامية، نعم أم لا؟ والإجابة الكاسحة بـ "نعم" مهدت الطريق لحظر الأحزاب السياسية ولتحريم تنطح أحد للرئاسة ما لم يكن يساند أهداف الثورة الإسلامية. في إيران لكلٍ من تجاوز السادسة عشر حق التصويت. وبما أن التصويت يعتبر واجباً دينياً فقد كانت الحصيلة عالية. لكن اختيار الأعضاء محصورٌ تماماً بأولئك الذين يوافق عليهم الثيوقراط.

مرزية دباغ، واحدة من أربع نساء انتخبن لأول برلمان إيراني بعد الثورة، هي نموذج السياسية التي يحتمل أن تنجح في النظام الإيراني. فهي تبدو، بحدبتها اللا متناسقة التي سببها الضرب المبرح، أكبر بكثير من سنيها الثلاثة والخمسين. ويحمل رسغاها أساور من جروح وندب حروق السجائر، التي عوقبت بها في سجون بوليس الشاه السري. قبل الثورة استخدمت مرزية مكتبة والدها كجبهة لتهريب السلاح وصنع القنابل. وحين اقتفى البوليس أثرها وحاول انتزاع المعلومات منها بالتعذيب، أدخل الأقطاب الكهربائية في فرجها، مسببين إصابة حادة لدرجة أن "مسؤول السافاك لم يدخل إلى زنزانتها بسبب الرائحة". وفي محاولة أخيرة لانتزاع الاعتراف، عذب البوليس ابنتها البالغة الثانية عشر من عمرها. لكن حتى هذه فشلت. فهي تقول: "عندما سمعت ابنتي تصرخ، بدأت أتلو آيات القرآن."

كان من الممكن أن تموت مرزية في سجن السافاك لو لم توافق قريبة لها بأخذ مكانها في حين تسللت مرزية مقنعة بالشادور النسائي. حين استعادت صحتها، عادت إلى تهريب السلاح وتدريب الكوماندوس من القواعد في لبنان. وأثناء نفي الخميني في باريس، أصبحت مسؤولة أمن منزله. قالت لي

أنها لن تغفر للصحافة التي فوتت عليها رحلة الخميني التاريخية إلى الوطن عام 1979. في اليوم الذي سبق ذلك، حاول مراسل فرنسي أن يحصل على سبق صحفي بالتسلق إلى بيت آية الله من الجدار الخلفي. "مسكت به، أصيب كاحلي برضوض من جراء ذلك". حين عادت إلى البيت وجدت أن مهاراتها العسكرية ضرورية جداً. فقد ظلت مدة ستة أشهر تقود (تدريب) مجموعة من الحرس الثوري في بلدتها همدان. قالت لم يكن لدى الرجال مشكلة في تلقي الأوامر من امرأة. "كنت أعرف كيف أسدد، وهم لا يعرفون".

بعد انتخابها إلى البرلمان، أصبحت واحدة من مرافقَين للخميني إلى ميخائيل غورباتشوف عندما استعادت إيران علاقاتها مع الاتحاد السوفييتي. حين مد غورباتشوف يده لمصافحتها ،كانت تلك لحظة مقلقة، فالمسلمات لا يجوز لهن أن يسلمن على الرجال الذين لا يمتون اليهن بصلة قرابة، لكنها لم تشأ أن توجه اهانة للزعيم السوفييتي في لحظة دبلوماسية حساسة كهذه. وقد حلت المشكلة بمد يدها وهي ملفوفة بشادورها.

وفي البرلمان، كانت مرزية دائما تصوت لصالح المتشددين في قضايا السياسة الخارجية والإصلاح الاقتصادي. لكنها دائما كانت تساند قضايا النساء، مثل تسهيل حصولهن على المنح الحكومية، تحسين المعونات للأرامل ووضع حد للتمييز في توزيع المنح الدراسية الخارجية.

من المفارقة أن النساء أمثال مرزية استطاعت الوصول إلى البرلمان في إيران ذات الخط المتشدد، في حين أن النساء في بلدان إسلامية أكثر اعتدالا لا يحصلن على مكان في أغلب الأحيان. في الأردن نالت النساء حق الاقتراع عام 1973. ولسوء حظهن، لم تتح لهن فرصة ممارسة هذا الحق، لأن البرلمان كان معلقاً منذ عام 1967، حتى دعى الملك حسين إلى الانتخابات في عام 1989. ظنت توجان فيصل، وهي مقدمة برامج تلفزيونية في الواحدة والأربعين، أن أمامها فرصة طيبة للفوز بمقعد، فهي، قبل عام من ذلك، تقوم

بإعداد برنامج جديد يُدعى "قضايا نسائية"، يخوض كل أسبوع في موضوع ما يهم النساء. وسرعان ما أصبح أكثر العروض التلفزيونية إثارة للجدل في تاريخ الأردن. وإحدى حلقاته التي استهجنت كانت عن ضرب الزوجة والذي جر مئات الرسائل من الرجال الحانقين، الذين أصروا على أن ضرب الزوجات حق إلهي معطى لهم.

قليلة هي القضايا الأكثر حساسية للإناث المسلمات. فالقرآن يقول ما مفاده أن خير النساء المطيعات، أما اللائي تخشون منهن معصية فانصحوهن واهجروهن في المضاجع، واضربوهن. تجادل المسلمات بأن كلمة "اضربوهن" هي واحدة فقط من معاني كلمة "ضرب" المستخدمة في القرآن. ويقلن أن كلمة "ضرب" يمكن أن تعني "الصفع بريشة". وفي سياق القرآن الذي يحث على معاملة المرأة بالحسنى، يناقش أن من غير المنطقي القبول بأن الكلمة استخدمت لتنفيذ القسوة. ويقلن بأن الغاية من النص هي أن يُقرأ كسلسلة خطوات: فأولاً، انصحوهن: فإذا أخفق ذلك، اهجروهن، وكحل ٍ أخير اضربوهن ضرباً خفيفاً. وما من مسلم يقتدي بمحمد يمكن أن يصل إلى الخطوة الثالثة. ففي حين من المعروف أن النبي هجر نساءه كعقوبة، فليس ثمة من دليل على أنه رفع يده في يوم من الأيام على واحدة منهن. ويسجل أحد الأحاديث أن محمداً قال لأتباعه ما معناه: جاءتني بعض نسائكم يشتكين أن رجالهن يضربونهن، هؤلاء وا لله ليسوا من خياركم.

غاصت توجان عميقاً في الحديث لتدافع عن قضيتها في وضع حد للعنف الأهلي. لكن القراءة الحرفية للقرآن تقر الضرب إقرارا واضحا، وسرعان ما وسمها الرجال الذين هاجموها بالهرطقة.

عندما ألغت محطة التلفزيون برنامجها بعد عام من التهديدات تقريباً، قررت توجان ان تتقدم للانتخابات. كان جزءاً من برنامجها هو إصلاح قانون الأسرة لإعطاء النساء مزيداً من الحقوق. رد الأصوليون على عضويتها في البرلمان بتوجيه التهم إليها في المحكمة الدينية، وخاصة اتهامها بالردة. ومع أن القرآن يحكم بالموت على المرتدين، إلا أن الأردن لم يصادق على تنفيذ

مثل هذه العقوبة. ومع ذلك، فإن توجان ستواجه، إذا أدينت، دمار زواجها وحرمانها من الوصاية على أطفالها. و لم يكتفوا بكل هذا، بل طالب متهموها بدفع المكافأة لأي مسلم يتطوع لقتلها. وفي جلسات المحكمة، كان لا بد من حماية البوليس لتوجان من الحشود المتحمسة الغاضبة.

"بدأت أتلقى مكالمات في منتصف الليل، من النساء والرجال الذين يصرخون بي. ويهددونني بالموت". اضطرت توجان ان تخوض حملتها وهي محاطة بحراس متطوعين. اضطر زوجها، الطبيب النسائي، أن يغلق عيادته بسبب المضايقات الشديدة. وفي الانتخابات، جاءت نتيجة توجان الثالثة من بين ست مرشحات. وكان مقعدها واحداً من اثنين فقط حيث وجد ضباط مراقبة الانتخابات تزويراً، بل وربما اختلالاً، ما من مرشحة نالت مقعداً في البرلمان. وانتهى الأمر بالإسلاميين، كفصيل مهيمن، بنيل الإخوان المسلمين عشرين مقعداً وحصول المتشددين المستقلين على اثني عشر مقعداً.

وفي الحال بدأت الأغلبية الإسلامية حملة لفصل المدارس، وتحريم الكحول ووضع حد للفائدة. وفي البرلمان تقدموا بنقاشات حول قضايا وصلت بتفاهتها حد تحريم مصففي شعر النساء من الذكور. وحين عين بعضهم في مناصب وزارية، أصبحت الوزارات التي يتحكمون بها أماكن يصعب على النساء العمل فيها. فبعضهن أرغمن على تغطية شعورهن، والبعض الآخر خاصة المتزوجات، دفعن للاستقالة لترك فرص العمل للرجال العاطلين.

وسرعان ما تدفقت النساء دون انقطاع إلى باب شقة توجان الصغيرة قالت: "معظمهن جئن للتعبير عن أسفهن لأنهن لم يأخذن الانتخابات على محمل الجد". لقد كان المعتدلون الأردنيون، الأثرياء والمثقفون، يشكون بالانتخابات وما كانوا يصدقون أن ملك الأردن أراد فعلاً أن يمنح البرلمان سلطة حقيقية. لقد استفادوا من يوم الانتخابات كيوم عطلة، فاتجهوا إلى خليج العقبة أو قاموا برحلة تسوق إلى دمشق، و لم يكلفوا أنفسهم عناء

التصويت. قالت توجان: "كلهم يقولون أنهم سيصوتون لي في المرة القادمة، وكلي أمل ألا يكون الأوان حينها قد فات".

حين عاد الأردنيون إلى صناديق الاقتراع في تشرين عام 1993، صوت أكثر من ستين بالمائة من المقترعين من أصل واحد وأربعين بالمائة لعام 1989. كانت الزيادة كفيلة بالإطاحة بنصف الأصوليين وإيصال توجان إلى البرلمان كأول برلمانية أردنية منتخبة.

ارتكزت النتيجة جزئياً على دفع من الملك حسين بتعديلات ناجحة في قوانين التصويت ليقلل من استفادة الأصوليين في المناطق المدنية، حيث تواجدهم أقوى. في خطاب ألقي مباشرة قبل رفع الحظر على التجمعات الجماهيرية، حذر الحسين أولئك الذين "يتسلقون المنابر...أن يخافوا الله فيما يقولونه"، تكمن حنكة الملك في احتواء نفوذ الأصوليين دون استبعادها من العملية السياسية ودفعها إلى العمل السري كما حصل في الجزائر.

لكن مساندة توجان ازدادت حتى بمعزل عن التغييرات الانتخابية. فقد أُعجب كثير من الأردنيين بشجاعتها خلال حملة أعلن فيها المتطرفون للمرة الثانية أن الواجب الديني يقضي "بسفك دمها". مرشحة منافسة في عمان تضع في برنامجها وعداً، "بانتزاع حقوق النساء الدستورية".

قالت توجان، منتشية بانتصارها: "فعلت ذلك بالانسجام مع ذاتي وقد أجدى نفعاً". المرشحات الأخيرات لم يصبن النجاح ذاته. فناديا بوشناق، في الخمسين من عمرها وفي سجلها عقود من الخدمات للمجتمع، طردت بعد تركها المناقشات التي طالب فيها الأصوليون بأن يرد رجل بدلاً عنها على سؤال وجه لها، على أساس أن صوت المرأة يثير الغرائز في جو مختلط. واجهت ناديا خسارتها بشكل فلسفي، قالت: "سيأتي يوم يعتاد الناس فيه على وجود النساء في البرلمان".

ارادت توجان بكل تأكيد، تحقيق ذلك، لكن ليس بالأسلوب اللطيف. كان هدفها الأول كمشرعة هو الإصلاح المعتدل لكن الواعد لواحد من القوانين الكثيرة التي تحط من شأن المرأة. جاهدت لتغيير أحد نواظم السفر

التي تطلب من الزوجات أذناً من أزواجهن قبل مغادرة البلاد. أرادت أيضاً أن تغير جوازات سفر النساء التي تصفهن بـ "زوجة" أو "أرملة" أو "مطلقة" زوج حالي أو زوج سابق بدلاً من منحهن شرف امتلاك أسمائهن.

ما يزال من السابق لأوانه معرفة ما ستنجزه توجان في البرلمان. لكن الأصوليين يدركون أنها حققت شيئاً غاية في الأهمية بمجرد وجودها هناك، في مكان واحد مع أولئك الذين يحاولون تدميرها بشتى الوسائل.

في بعض البلدان الإسلامية لا تزال تظل فكرة النساء السياسيات حلماً بعيد المنال. في الكويت، واجهت النساء الرصاص العراقي خلال فترة الأشهر الستة للاحتلال، وتظاهرن مطالبات بعودة الأمير. والنساء حافظن على جذوة حركة المقاومة البسيطة، وكن يهربن السلاح والطعام، ويخبئن الأجانب والمقاتلين. لكن حين عاد الأمير عبر عن امتنانه لهن بحرمانهن من التصويت في الانتخابات البرلمانية لعام 1992.

قبل الغزو قامت طالبة طب تدعى أريج الخطيب بإدارة تنظيمها السياسي من هاتف سيارتها المرسيدس الذهبية اللون. سطا العراقيون على السيارة مع الملصق الذي كتب عليه "أحب الديمقراطية" وفي حين لم يكن والدا أريج الاشتراكيين يعيران أي اهتمام للنظرة الكويتية التقليدية عن المرأة، فإن أريج نفسها كانت تختط طريقاً حذرة، مكيفة وجهات نظرها الأنثوية الخاصة مع فهم ذكي للمسافة التي يمكن أن تقطعها ويظل صوتها مسموعاً لدى قطاع واسع من زملائها الطلاب الجامعيين. ولكي لا تتناقض مع التقاليد الكويتية التي تفصل بين الجنسين، نظمت غرفاً منفصلة للنساء أثناء الاجتماعات السياسية، مزودة بدارات كهربائية سمعية بحيث يمكنهن الاستماع إلى الحوارات.

وفيما وراء الحدود مع السعودية، تصبح مجرد فكرة الحوار لعنة. إذ ليس لدى العربية السعودية أي ثقافة سياسية فعلاً. "نحن لسنا بحاجة إلى الديمقراطية، لأننا نمتلك ديمقراطيتنا الصحراوية الخاصة بنا". هذا ما أوضحته

نبيلة البسام، وهي امرأة سعودية تدير مخزن الملابس والهدايا الخاص بها في الظهران. ما كانت تشير إليه هو عادة صحراوية قديمة تعرف بالمجلس، وهو تجمع أسبوعي يحتشد يه أعضاء الأسرة المالكة، حيث يكون لأي من رعاياهم حرية تقديم الالتماسات أو المظالم (الشكاوي) البسيطة. والمجلس، في حقيقة الأمر، مشهد مغرق في الاقطاعية، حيث ينتظر الرعايا المحترمون بتواضع جم للحصول على بضع ثوان ليهمسوا في أذن أميرهم.

أخبرتني نبيلة عن صديقة تقدمت مؤخراً بالتماس إلى زوجة الملك فهد لتسمح لها باستيراد معدات لصالون حلاقة استيراداً شرعياً. وصالونات تصفيف الشعر محظورة في السعودية، حيث المؤسسة الدينية تتذمر من أي شيء يؤدي إلى إخراج النساء من بيوتهن. والصالونات المزدهرة يملكها، في الحقيقة، سعوديون بارزون ويديرها طاقم تجميلي من الفيليبينيات والسوريات. "تعبت صديقتي من إدارة عملها سراً. لكنها حتى الآن لم تتلقَ رداً على التماسها". قالت نبيلة: "الالتماسات تفعل فعلها. لكن في هذا المجتمع على المرء أن يتدبر الأمور على أساس ودي، كالعائلة مثلاً. يمكن للمرء أن يطلب الأشياء، لكنه لا يستطيع الوصول إليها والتعامل معها باعتبارها حقه الطبيعي"، ليس أمام من يُرفض التماسه من خيار سوى الرضوخ لقرار آل سعود، ففي ظل غياب الصحافة الحرة وأي طريقة أخرى لتحريك الرأي العام، يحكم آل سعود كما يحلو لهم.

وإن كان ثمة من أمر تنتقده السعوديات يتعلق بحظهن العاثر، فهو الحظر الذي يمنعهن من قيادة السيارات. أثناء حرب الخليج كان منظر الأمريكيات اللواتي سرحن شعورهن تسريحة ذيل الفرس وهن يقدن القاطرات على طرقات العربية السعودية قد أنعش نقاشاً حول هذه القضية عُلّق منذ زمن طويل. ولم تكن الأمريكيات الوحيدات اللواتي يقدن السيارات واللائي جاءت بهن الحرب. بل وصلت العديد من النساء الكويتيات الهاربات من الغزو، سافرات إلى العربية السعودية، وخلف مقود مرسيدس العائلة. وبحلول تشرين أول عام 1990 بدأت المقالات حول سعي السعوديات للحصول على

حق القيادة بالظهور في الصحافة التي تخضع لرقابة صارمة. قالت النساء اللائي استشهد بهن في هذه المقالات لقد تنبهن إلى أنهن لن يستطعن نقل أطفالهن إلى بر الأمان كما فعلت الكويتيات. بعضهن أثرن قضايا اقتصادية، وقد أحصين أن نسبة عشرين بالمائة من دخل الأسر السعودية المتوسطة الدخل يصرف على السائقين، الذين يحتاجون لطعامٍ وسكن ومرتب. في العربية السعودية 300000 سائق خاص يعمل دواماً كاملاً ، وهو رقم مذهل، لكنه مع ذلك بعيد كل البعد عن تأمين سائق لكل امرأة سعودية تحتاج إلى التحرك. والنساء دون سائق يستطعن التجوال فقط على هوى أزواجهن أو أبنائهن. وقد لعب بعض مؤيدي السماح للمرأة بسياقة السيارة الورقة الاسلامية، مشيرين إلى المقت الذي يفرضه على المرأة إرغامها على إيواء رجل غريب في بيتها وأن يسوق بها وهي وحيدة معه.

عصر يوم ثلاثاء في أوائل تشرين الثاني، تجمعت سبع وأربعون امرأة، يقود بهن سائقوهن، في كراج سوبر ماركت التميمي في مدينة الرياض. وهناك، تخلين عن السائقين. بعدئذ جلس ربعهن في مقاعد السائقين واتخذت البقية أماكنهن كمسافرات. وانطلقن جماعياً إلى الطريق العام المزدحم. وما أن اجتزن بضع مجمعات أبنية حتى أوقف المطوعون، حملة الخيزرانات من لجنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، السيارات عند مفارق الطرق وطلبوا من النساء الخروج من مقاعد القيادة. وفي الحال، وصل البوليس العادي فطلبت النساء منهم ألا يؤخذن إلى مناطق المطوعين، حصل شجار بين المطوعين، الذين أصروا على أن النساء ارتكبن جريمة دينية، وشرطة السير، الذين قالوا أن الأمر يخصهم وحدهم، في النهاية، ساق البوليس سيارات النساء إلى مواقعهم وقد وضعوا مطوعاً بجانب الشرطي والنسوة في المقعد الخلفي.

كانت النسوة اللائي شاركن في المظاهرة كلهن ممن يسميهم السعوديون "العائلات الكريمة" ـ أي من العشائر، المتميزة الثرية التي تربطها بعائلة آل سعود المالكة روابط قوية. وكافة النساء اللواتي قدن السيارات كن

من المحترفات الناضجات ومعهن إجازات قيادة دولية حصلن عليها من وراء البحار. والكثيرات منهن كن من كليات الفرع النسائي بجامعة الرياض، مثل فاتن الزامل، أستاذة في الطب. وكانت الأخريات نسوة ذوات إنجازات مثل عائشة المنا، التي حصلت على الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة كولورادو والتي ترأست اتحاد النساء صاحبات الأعمال من الموضة إلى مراكز التدريب على الكمبيوتر، ومع أن بعض هؤلاء النسوة لا يتحجبن في العادة فقد ارتدين كلهن من أجل المظاهرة الغطاء الذي لا يظهر منه سوى العينان.

قبل المظاهرة، أرسلت النسوة عريضة إلى حاكم الرياض، سلمان بن عبد العزيز الذي يُعتقد أنه شخص تقدمي إلى حد ما في الأسرة المالكة. تتوسل العريضة الملك فهد أن يفتح "قلبه الأبوي" لما سمينه "حاجتهن الانسانية" للقيادة. وقد جادلن بأن نساء عصر النبوة ركبن الجمال، وسيلة النقل الرئيسية في أيامهن. وكان الدليل، الذي كتبنه في عريضتهن، موجوداً في الإسلام، "ما أعظم معلم الإنسانية وسيد الرجال بأن ترك لنا دروساً واضحة وضوح الشمس لتزيل ظلام الجهل".

بينما كانت النسوة محتجزات في مخفر الشرطة، استدعى الأمير سلمان مجموعة من الفقهاء الدينيين والقانونيين البارزين ليناقشوا ما فعلنه. استنتج القانونيون أنه لم يحصل انتهاك للقانون المدني، لأن النساء كلهن يحملن إجازات قيادة دولية يعترف بها القانون السعودي، وبين الممثلون الدينيون أنهن لم يكن يبيتن أي نوايا أخلاقية، لأنهن كن محجبات وأن القرآن لا ينص على شيء يمكن أن نستنتج منه أن القيادة محرمة. وأطلق سراح النساء. تجمعت النساء في جدة والظهران للتخطيط لمظاهرة مماثلة، وقد شجعن ما اعتبرنه دعماً ضمنياً من العائلة المالكة. وهنا جاءت الحركة الارتجاعية.

انتشر خبر المظاهرة سريعاً رغم التعتيم الكلي على تغطية النبأ في الإعلام السعودي، وحين وصلت النسوة، اللواتي شاركن في المظاهرة، إلى عملهن في الجامعة في اليوم التالي، كن يتوقعن أن تستقبلهن طالباتهن استقبال

الأبطال. وعلى العكس من ذلك، وجدت بعضهن أبواب مكـاتبهن ملطخـة بشعارات تنتقدهن بوصفهن غير مسلمات. ووجدت أخريات صفوفهن وقد قاطعها عدد كبير من الطالبات المحافظات. وسرعان ما بدأت المساجد تتقيأ التشهير. وامتلأت الشوارع بالقصاصات. وتحت عنوان "أسماء الآمرات بالمنكر والدعارة" كتبت أسماء المشاركات بالمظاهرة إضافة إلى أرقام هواتفهن ونُعتن إما بـ "كافرة أمريكية" أو "شيوعية". تقول القصاصات: "هؤلاء هـن أصل البلاء، فاقتلعوهن، اقتلعوهن، اقتلعوهن، طهروا أرض التوحيد". وكما هو متوقع، بدأت هواتف النسوة بالرنين وبدأت الشتائم، إذا رد أزواجهـن، يطلب إليهم أن يطلقوا نساءهم العاهرات، أو يُعنفون لأنهم عاجزون عن السيطرة عليهن.

وسرعان ما رضخت الأسرة الحاكمة لضغوط المتطرفين. ودفنت لجان الأمير سلمان في الحال وقامت الحكومة، بدلاً من ذلك بإيقاف النساء عن عملهن وصادرت جوازات سفرهن. وألقت قوات الأمن القبض على سعودي بارز وثيق الصلة بالعائلة بتهمة تسريب خبر الاحتجاج إلى طاقم تصوير بريطاني. خضع لاستجواب مهين، وتم جلده، وأُلقي في السجن عدة أسابيع.

كان بمقدور العائلة المالكة أن تقف إلى جانب النساء على أسس إسلامية. فما كان يفعله المتطرفون يتعارض كلياً مع القرآن، الذي يشجب من يقذف امرأة (القذف) ويحكم عليهم بثمانين جلدة.

وما إن مضى أسبوع على المظاهرة حتى انضم الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية، إلى المشهرين. وفي اجتماع في مكة أدان المظاهرة واصفاً إياها بـ "العمل الغبي" ، وقال أن بعض المتورطات تربين خارج العربية السعودية "ولم ينشأن في بيئة إسلامية". ثم قرأ فتوى جديدة صادرة عن إمام العربية السعودية، عبد العزيز بن باز تنص على أن قيادة النساء للسيارات تتعارض مع "التقاليد الإسلامية التي يتبعها المواطنون السعوديون". فإذا لم

تكن القيادة محرمة من قبل فلتكن الآن". غطت ملاحظات نايف الصفحات الأولى ، وكان ذلك أول ذكر لمظاهرة القيادة يظهر في الصحافة السعودية.

وعلى الرغم من أنني على تماس مع بعض هؤلاء النسوة قبل المظاهرة، لم تستقبل أي منهن مكالماتي بعد ذلك. لقد حذرن جميعهن من أن أي اتصال مع وسائل الإعلام الأجنبية يعني الإعتقال. وكلهن كن على يقين من أن هواتفهن مراقبة وبيوتهن تحت الأنظار. وصلتني رسالة حزينة موقعة ببساطة "سعودية فخورة" مفصلة فيها "مطاردة الساحرات" الجارية. كتبت: "المتعصبون يرغمون الطلاب على توقيع عرائض تشهير بالنساء". فهم "يستخدمون الحادثة لاستعراض قوتهم وليحركوا المشاعر المعادية لليبرالية وللحكومة وللأمريكان". أرسلت لي امرأة أخرى رسالة بسيطة: "فعلت ما فعلته لأنني أريد من حفيدتي أن تقول أنني كنت موجودة".

تحدثت أيضاً مع أحد أقارب إحدى النساء اللائي شاركن. قال بحزن: "أنا شجعتها، ظننت أن الوقت مناسب. أما الآن فقد تراجعت القضية عشر سنوات إلى الوراء، دفنت تحت عشرين طناً من الاسمنت المسلح. من اليسير على أناس مثلي ـ ابن دبلوماسي ترعرع في الخارج وتعلم في أمريكا ـ "أن يرتحلوا كلياً عن هذه البلاد وما هي مستعدة لقبوله".

الفصل الحادي عشر

المسلمة في الحلبة الرياضية

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين﴾

سورة المائدة 5: 87

دخلت حاملة الشعلة إلى الملعب في الحفل الافتتاحي لألعاب النساء المسلمات، فانفجر عشرة آلاف مشاهد بالهتافات المصمة للآذان. كانت خطوتها طويلة موفقة. تبخترت الرياضية حول الحلبة، ولهب الشعلة يعانق الهواء فوق رأسها المغطى.

وفي المدرج، بين الحشد، كان والدها ينفجر زهواً. فحاملة الشعلة "بديدة بولوريزادة"، البالغة الثامنة عشرة من العمر، هي نجمة سباق إيرانية منذ أن كانت في السابعة، لكن هذه هي المرة الأولى التي يراها والدها وهي تجري.

كان بمقدوره أن يشاهدها لأن بديدة كانت ترتدي ـ أول حجاب ـ بدلة سباق في العالم. والقبعة البيضاء للبدلة تستر كل شعرة من شعرها،

والتنورة السوداء التي تصل إلى كاحلها تنزلق تحت الثوب الطويل الفضفاض.

في مركز الميدان، اصطفت الفرق الرياضية النسوية من عشر بلدان إسلامية خلف أعلامهن الوطنية. ومن حين لآخر، كان من الممكن ملاحظة يد سرية، بين الفريق الممثل لسورية وفريق تركمانستان، تعبث بغطاء رأس غير عادي. في اليوم الثاني، وعندما بدأت المتسابقات اللعب بحماس، لبست الرياضيات شورتات (اللكرا) المشدودة المخططة التي بدت أكثر مألوفة. في ملعب كرة السلة، وحين وقفت قائدة الفريق الايراني بمواجهة الفريق الأذريبجاني لصد الكرة، أطلقت المشاهدات المنتشيات ضوضاء عالية تشبه الضوضاء المصاحبة لإضخم المباريات. خارج باب الملعب احتل الشرطة الرصيف، للتأكد من عدم دخول الرجال. وفي الداخل، فوق جدار الملعب، صورة للخميني، أضخم من الحجم الطبيعي، كانت ترمق النساء المتسابقات المرتديات للشورتات، بودّ. في الفن، إن لم يكن في الحياة، كانت ملامحه الصخرية تنم فقط عن ابتسامة لطيفة.

سمعت بالدورة الأولى لألعاب النساء المسلمات في أوائل شباط 1993، عندما اتصلت بي ماري كلين هيغ، ممثلة بريطانيا في اللجنة الأولمبية، وأنا في بيتي في لندن لأنصحها بما يتوجب على غربية أن تأخذه معها في رحلة إلى طهران. قالت أن اللجنة الأولمبية الدولية قد دعيت لمراقبة الألعاب. وقد اختيرت هي ـ باعتبارها بطلة أولمبية سابقة في المبارزة.

بعد بضعة أيام، وكنت قد دبرت دعوة باسمي، ذهبت للبحث عنها بين المتبارين والمشاهدين في الاستاد وحول الحلبة لأرى ما تفعله حتى الآن. دلني أحدهم إلى طاولة رسمية، حيث امرأة تلبس قبعة سوداء وتجلس بجوار شخصية رياضية رشيقة ذات شعر أشقر قصير، سترة قطنية فوق قميص. جينز أزرق وخف رياضي. كنت قد أوضحت لها بالهاتف أنه ليس من الضروري أن ترتدي الحجاب في التجمعات المخصصة للنساء، لكنني فوجئت بأنها لبست بهذه الطريقة. تساءلت وقدمت نفسي. ابتسمت الشقراء

ومدت يدها قالت: "فايزة هاشمي. رئيسة اللجنة الأولمبية الإيرانية" ثم قالت وهي تشير إلى المرأة بالقبعة السوداء "هذه ضيفتنا البريطانية من اللجنة الدولية".

فايزة هاشمي هي ابنة الرئيس رفسنجاني البالغة الثلاثين من عمرها وهي العقل المدبر لدورة الألعاب النسائية الإسلامية الأولى. فالرياضيات النساء قد اختفين عملياً بعد الثورة، حين وضع الملالي حداً للتدريب والتنافس المختلط الذي كان يحصل أيام الشاه. وفكرة تدريب البنات جنباً إلى جنب مع الأولاد قد ألبت الكثير من المتدينين الإيرانيين ضد الرياضة، خاصة بالنسبة للنساء.

لقد قال الخميني لشعبه في موعظة بالراديو عام 1979: "لا مزاح في الإسلام". وخلال حياته عكست مدينة طهران رأيه. فبالتقاء حرب مدمرة على الصعيد الاقتصادي مع العراق بعيون نسور الإسلام المتشددين استحالت المدينة مكاناً باهتاً من الأبنية التي تغص بأكياس الرمل والمواطنين الحذرين. ومضت إلى غير رجعة كل أماكن السهر قبل الثورة وحتى فندق الهيلتون ومحلات فروج كنتاكي تبدلت كلية. ونشأت مكانها هجائن رديئة النوعية، مثل تحويل الفندق الدولي السابق في شارع بوليفار لوس أنجلوس السابق، إلى فندق زهرة الشهادة في شارع الحجاب، حيث ينمو العفن في الحمامات، وتلوح لافتة في بهو الفندق تقول "تسقط الولايات المتحدة الأمريكية."

وحتى الخميني نفسه لم يكن غافلاً تماماً عن الحاجة الى اللياقة الجسدية. فمن ضمن روتين حياته اليومي القيام بنزهة ـ حول فناء منزله.

أما عشيرة رفسنجاني الإقطاعية الثرية فقد اتخذت موقفاً أكثر تساهلاً مع التمارين الرياضية، بل وكانت لهم تسلياتهم التي لا تروق كثيراً للملالي. وفي الجو الخاص في مجمع الأسرة، كانت ابنتا رفسنجاني وأبناؤه الثلاثة يسبحون، ويركبون الدراجات، ويلعبون كرة الطاولة وكرة الطائرة. وقبل أن تأخذ واجبات الرئاسة جل وقته، كان رفسنجاني نفسه غالباً ما ينضم إليهم في حوض السباحة وعلى طاولة التنس.

بعد ثورة 1979 انتقلت كافة التسهيلات الرياضية الإيرانية إلى الرجال. عينت الحكومة "مديرية للشؤون الرياضية النسوية" في عام 1980، لكنها ظلت

مجرد اسم حتى عام 1985، عندما بدأ تحالف نسائي إيراني غريب حملة متأنية لاستعادة الرياضة النسائية إلى التقويم. بعض النشيطات كن من الرياضيات الإيرانيات سابقاً ــ قلة منهن كن في مستوى المنافسات الأولومبيات ــ اللائي أرغمن على التخلي عن الملابس الرياضية وارتداء الحجاب. والرياضيات اللواتي لم يذهبن إلى المنفى تكيفن في نهاية المطاف مع مقولة "إذا لم تستطع دحرهم فانضم إليهم". ووصلن إلى المجموعات النسائية ضمن المؤسسة الدينية طلباً للمساعدة. وفايزة هاشمي، هي التي استطاعت أن تتكلم لغة الملالي الراديكاليين الذين ثبت أنهم من أفضل حلفائهم. كان لفايزة فوائد جمة، من ضمنها مساندة والدها. وبما أنها طالبة ماجستير في الإدارة في جامعة طهران، فقد كانت تعرف الكثير عن التلاعب بالتنظيمات.

ومثلها مثل معظم المتدينات اللواتي يرغبن بإنجاز أمر ما، ارتكزت في قضيتها على الحديث النبوي. فقد نسب إلى محمد توصيته للمسلمين بأن يبنوا أجساداً قوية وقد قال أيضاً ما مفاده: ستتفوقون في كل أمر إن كنتم مؤمنين، وقد جادلت فايزة بأن الرياضة ينبغي أن تكون جزءاً من البحث عن التفوق، وأن هذه الإشادات تنطبق على الرجال والنساء على حد سواء. والنساء، بوصفهن عماد الأسرة الإسلامية يحتجن الفوائد العقلية والجسدية التي تقدمها الرياضة. رد المحافظون بالقول: "حسناً ليتبعن دورات تدريب في بيوتهن الخاصة." فردت فايزة بأن النساء والبنات لا ينبغي أن يحرمن الفوائد الاجتماعية للعمل الجماعي والمنافسة.

يقال إن النبي امتدح ثلاث رياضات على نحو خاص: السباحة، والرماية وركوب الخيل. وبما أن الحديث "علموا أولادكم السباحة والرماية"، قد استخدم الكلمة العربية "أولاد"، التي يمكن أن تترجم إما "أبناء" (أي الذكور) أو "أولاد" (التي تفيد الذكور والإناث) ولم يستخدم التحديد ويقول (أولاد وبنات) فإن بعض الآباء المتشددين يجادلون بأن الأبناء (الذكور) فقط هم من عناهم بالمشاركة في هذا المجال. لكن الرماية التي يقابلها هذه الأيام الرمي بالمسدس أو بالبندقية، هي مهارة نافعة في بلد ثائر ظل في فترة حرب حتى

وقت متأخر، وهي واحدة من الرياضات القليلة التي يمكن القيام بها بالشادور. لذا كانت مجالات الرماية من بين الرياضات الأولى التي رحبت بالنساء، في البداية كأعضاء في ميليشيا الدفاع المدني، وفيما بعد مجرد نساء يبحثن عن هواية تخرجهن من البيت.

جادلت فايزة أن الحكومة الإسلامية الإيرانية يمكن أن تميز نفسها عن عهد الشاه السابق بإعلان أنها تُعنى "بالرياضة لكل النساء"، بدلاً من فصائل النخبة من الرياضيين من علية القوم الذين شجعهم الشاه ليتباهى بين "فساد" المنافسات الدولية المختلطة. وقد أدت مجادلاتها إلى عودة التسهيلات الرياضية لبضع ساعات مخصصة للنساء أسبوعياً وإلى مزيد من التركيز على رياضات الفتيات في المدارس. وأخيراً حُظر "منتزه العدائين" المشجر في طهران على الرجال ثلاثة أيام في الأسبوع، ما بين الثامنة والرابعة، وأمكن للنساء العدو دون حجاب.

ثم بدأت فايزة بمعالجة القضية الأصعب المتعلقة بالمباريات الدولية. معظم البلدان الإسلامية أبقت نساءها بعيدات عن الحلبات الدولية، لاعتبارات تتعلق بالحشمة أحياناً، وبسبب نقص التمويل أحياناً أخرى، أو بسبب الاثنين معاً. وبوجود ميزانيات رياضية متقشفة، اضطرت بلدان مثل باكستان التي تمتلك الكثير من المنافسات الأولومبيات ألا ترسل أياً منهن إلى أولمبياد برشلونة. تقول فرحانة أيّاز، المعلقة الرياضية في الأوبزرفر الباكستانية: "الرجال في الأساس، أفضل منا، والحكومة تختار أولئك الذين لديهم فرصة للنجاح". لكنها في الوقت ذاته تدرك أن وراء هذا الكلام نفوذاً إسلامياً متزايداً. في باكستان تلعب معظم الرياضيات بأزياء محتشمة قمصان T طويلة فضفاضة فوق سراويل طويلة، لكن حتى هذا لم يعد يعتبر مناسباً لدى بعض الدوائر. "بدأ الملالي مؤخراً يثيرون قضية لعبة الهوكي إذ لابد فيها من الركض والانحناء. وخلال الأولمبياد، لم تتم تلفزة أياً من الأخبار النسائية، بسبب ضغط الملالي".

حين فازت حسيبة بو الميرقا، العداءة الجزائرية، بالميدالية الذهبية لبلادها في أولمبياد برشلونة، ألقت كلمة مؤثرة حول فوزها، إذ قالت أنها سعيدة لأنها

بينت أن المرأة المسلمة يمكنها أن تحقق الإنجازات. لكن لم يبتهج العالم الإسلامي كله بانتصارها، وفي الجزائر شجبها الحزب الإسلامي الرئيسي، جبهة الخلاص الإسلامي، من المساجد لأنها ركضت "نصف عارية" وهي تلبس الشورت والصدارة، وأرغموها على مغادرة البلاد لتجنب المضايقات أثناء التدريب.

وفي حين انضم بعض الإيرانيين إلى من وصم حسيبة بـ"بالمسلمة المزيفة"، أدركت فايزة هاشمي الخطر الكامن وراء مواقف الشجب الصادرة من الإسلاميين الذين لم يكونوا يقدمون أي بدائل إيجابية. قالت يفترض بالمسلمين أن يكونوا سعداء إذا ما تفوقت أي رياضية مسلمة. تقول أن البلدان الإسلامية كلها لديها تقاليد متباينة والأمر يعود إلى إيران لإظهار عظمة النظام الإسلامي الحقيقي. وقد وافقت على أن المضطهدين، "تقصد البلدان الغربية، يستغلون غياب المسلمات عن مجال الرياضة كتعبير عن دونية مكانة النساء في البلدان الإسلامية. وقد قالت في خطاب نقل على نطاق واسع: "إذا لم ترتق البلدان الإسلامية بمبادئها الخاصة وتطبقها على المباريات النسائية، فلسوف تفرض علينا الطريقة التي تمليها بلدان الاستكبار الغربية". أرسلت إيران فرق رياضيين إلى المباريات الدولية، فلماذا لا تدع النساء اللواتي تفوقن في أي من الرياضات الخمس التي يمكن تأديتها بالحجاب يذهبن أيضا؟

في أيلول 1990 حققت ما تصبو اليه، وحين التحق الفريق الإيراني بالعرض الافتتاحي للألعاب الآسيوية في بكين، كانت ست نساء بشادوارتهن ـ فريق الرماية الإيراني ـ يقدن الوفد. إحداهن وهي طالبة في الثامنة عشرة من عمرها وتدعى إلهام هاشمي، نجحت في تخطي رقم الرجال الإيرانيين.

وبحلول أولمبياد أطلنطا عام 1996، أملت فايزة أن تتمكن من إرسال زمرة من الفارسات المحجبات أيضاً. انتابني الشك في نجاحها في هذا المسعى. إذ من الممكن تماماً أن نعرض القفزة ـ والخيالة ترتدي خمارا يستر

الرقبة تحت خوذة الركوب وسترة تغطي الساقين حتى جزمة الركوب، لكن ماذا لو وقعت فارسة عن جوادها وصورت وأوصالها ممدة والمنديل منحرف لاسمح الله؟ كان المحافظون قد اعترضوا وجادلوا ضد السماح للراميات بالتباري أمام الرجال، لأن حركة شد القوس إلى الوراء مثيرة جدا حتى والمرأة ترتدي الشادور.

بالنسبة لمعظم الرياضيات الإيرانيات ـ العداءات، السباحات، لاعبات القفز العالي ـ لم يكن خوض المباريات بالحجاب احتمالاً مستبعداً. ومن أجلهن توصلت فايزة إلى فكرة الأولمبياد البديل، أي الألعاب النسائية الإسلامية، حيث الرياضيات من البلدان الإسلامية يجتمعن بالحجاب لحفلة افتتاح يمكن أن يحضرها الرجال والنساء. بعد ذلك، تنزع الرياضيات الحجاب ويتبارين أمام حشد من النساء فقط.

والمفارقة في خطتها هي أن البلدان الإسلامية المتشددة، التي يمكن لنسائها أن يستفدن من ألعاب تدور في محيط نسائي فقط، ليس لديهم لاعبات لهذا الغرض. ففي السعودية ومعظم دول الخليج، لا توجد تنظيمات رياضية نسائية من أي نوع على الإطلاق. والمباريات النسائية، حتى المعزولة عزلاً تاماً، لا وجود لها. أما الثريات اللواتي يرغبن بالمحافظة على لياقتهن فقد أقمن صالات رياضية مجهزة تجهيزاً ممتازاً في بيوتهن واستخدمن مدربين خصوصيين. أما البقية فيقضين حياتهن دون انتقال.

البلدان التي وافقت على دعوة إيران هي الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفياتي سابقاً، التي دربت رياضياتها على يد القوة الرياضية السوفياتية الساحقة. ومامن واحدة منهن تحجبت في السابق، قلة منهن فتحن القرآن ليقرأنه، لكن مع انهيار النظام السوفياتي، فإن الجمهوريات الاسلامية كجمهورية أذربيجان يعوزها المال للانفاق على مسائل الترف كالرياضة، "إن ميزانيتنا بكاملها لهذا العام تكفي لإرسال رياضية واحدة إلى مباراة واحدة ـ على افتراض أن هذه المباراة ستقام في أوربا". هذا ما يقوله متحسراً علييف مسلم، مدير الفريق الأذربيجاني. وبالنسبة له فإن رحلة مدفوعة

التكاليف كاملة لمائة وعشرين رياضية ـ حتى لو كان عليهن أن يتحجبن ويجلسن في الباص لمدة 26 ساعة من باكو ـ كان عرضاً رائعاً لايمكن رفضه.

وكما هو الحال دائماً في إيران، تلعب السياسة دورها. كانت إيران مستعدة لأن تدفع لفرق كبيرة من جمهوريات الإتحاد السوفياتي السابق لأنها مهتمة بمد نفوذها إلى هناك. لكنها توقفت عن دفع فاتورة بلدان مثل السودان، التي تدور في فلكها. لذا لم يرسل السودانيون نساء إلى الألعاب. وهذا ما فعلته مصر التي ليست على علاقة حسنة مع الحكومة الإيرانية. أما الآخرون فقد أرسلوا فرقاً صغيرة كتعبير عن النية الطيبة. "نحن هنا لنقول نعم للنظام الإيراني" هذا ما تقوله لاعبة كرة الطاولة القزمة من فريق جزر المالديف المؤلف من خمس نساء". لكن الأمر من الزاوية الرياضية لا أهمية له بالنسبة لنا" قالت، وهي ترتجف والثلج الخفيف يتساقط خارج مركز طهران لكرة التنس المدفأ مركزياً. "نحن من خط الاستواء، ومن المستحيل أن نشعر بالدفء في هذا المكان".

كانت أكبر الفرق بكل المقاييس، في نهاية المطاف، من جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق. فقد أرسلت أربع جمهوريات ما مجموعه 332 رياضية، معظمهن طويلات القامة شقراوات غليظات البنية، اطول من الـ51 امرأة من الفرق الصغيرة الاخرى التي أرسلتها ماليزيا وسوريا وباكستان والمالديف وبنغلادش.

بعض النساء بطلات على الصعيد الوطني. واحدة أو اثنتان بطلات أولمبيات لكن فرصة المباريات الدولية هذه كانت المرة الأولى بالنسبة للمجموعة الإيرانية البالغة **120** لاعبة باستثناء فريق الرماية، أشرقت وجوههن تحت شادوراتهن وهن يخطرن في استاد الأزادي الذي يتسع لـ**12000** متفرج.

أثناء اللعب منع الرجال من دخول الملعب إلا لمشاهدة مباراة الرماية. وفي مجمع السباحة، ملأت فتيات المدارس مقاعد المتفرجين، وهن يرقبن

المنظر غير المألوف للمحكّمات الإيرانيات اللواتي ارتدين الشورتات القرمزية الفاتنة وقمصان حرف **T** الخضراء.

في استاد حلبة السباق، رمت بديدة، حاملة الشعلة، حجابها لصالح شورت **LYCRA** أسود وقد ارتفعت الى مستوى المناسبة باضافتها تسعة سنتيمترات إلى أفضل رقم حققته في الوثب العالي. لم تكن وثبتها البالغة 1 ,67 م جيدة بما فيه الكفاية لدحر البطلة القرغيزية لكنها حطمت الرقم الإيراني المسجل قبل الثورة.

عصر ذلك اليوم، كانت بديدة متحمسة لدى عودتها إلى فندق الرياضيات، ففي معمعان سباق الأربعمائة متر، جاء ترتيبها الرابعة، وبدأت تحلم بالحصول على الميدالية في اليوم التالي.

وبالرغم من أن أم بديدة كانت رياضية زمن الشاه، فقد ترعرعت البنت وهي لاتعرف شيئاً سوى الرياضات المنفصلة "ذلك جميل بالنسبة لنا" قالتها،وهي تلوح بيدها باتجاه الردهة التي تغص بالرياضيات. "هذه طريقتنا في التفكير، هذه ثقافتنا. من الصعب علينا الآن أن نتبارى أمام الرجال".

تدور المترجمات الرسميات بين الرياضيات، لتسهيل النقاشات الجارية. كل واحدة ترتدي اللباس الإيراني العادي ــ أغطية الرأس السوداء والتنانير الطويلة ــ وفوقه سترة تمرين رياضية زاهية متناسقة الألوان، شدت بصورة متناقضة من الأعلى. كان اللون النيلي والأخضر يعنيان أن المترجمة تتكلم الانكليزية، والقرنفلي والأصفر الكرومي، الروسية، والليموني والأزرق السماوي العربية. وحيث كانت النقاشات تنساب من الفارسية إلى الأوردية إلى الانكليزية فقد امتلأت ردهة الفندق بالغمغمات النسائية المبهجة. ذكرتني بالرياضة في مدرستي الثانوية.

في إحدى الزوايا جلست مجموعة من الرجال يتمتمون بحياء باللغة الروسية، دون مساعدة من المترجمات الشابات. تنهد عليف مسلم، مسؤول الفريق الأذربيجاني، وهو يتكىء على الحائط، بانتظار المصعد

المخصص للرجال. وجد صعوبة في تدبير أمور الرياضيات اللواتي اختفين منذ الصباح الباكر في باصات للنساء فقط. ونقلن إلى الحلبات حيث لم يسمح له بالدخول. قال: "في الواقع، لم يكن الأمر سيئاً، ولم أكن ملزماً بالتدريب". اضطر مدرب كرة الطائرة القرغيزي الى الانتظار في الخارج أثناء مباريات فريقه لأن امرأة تحمل منديلاً وتخرج لتخبره بما كان يجري ليتمكن من اتخاذ القرارات التكتيكية. هز علييف كتفيه. "إذا كان بإمكاننا أن نلعب الشطرنج دون أن نرى الرقعة، فلم لا تكون هذه أيضاً؟"

تساءلت عما إذا كان ضجراً، لأنه لا يستطيع الذهاب إلى المباريات. قال: "أبداً ، فأنا منهمك بكل المشكلات التي تواجه فريقي وهو يتأقلم مع هذه الضوابط". بعض النساء اصطدمن مع الإيرانيات لأن مناديلهن الزهرية ظلت تنزلق عن رؤوسهن. "يبدو أن الخلل الأكبر هنا هو أن يرى شخص ما شعرك. لكن إذا كان الله لا يحب ذلك، فلماذا أعطاك عيوناً". اغتاظ الآخرون من قاعدة منع النساء من الخروج وحدهن والتجوال في المدينة بين المباريات. فالمسؤولون الإيرانيون اتخذوا موقفاً وقائياً مبالغاً فيه تجاه ضيوفهم النساء، مصرين على تنقلهن في باصات رسمية فقط، ومع مترجمة رسمية فقط. وكامرأة طافت شوارع طهران دون أن يتحرش بها أحد، فقد اعتقدت أن هذه القاعدة حمقاء، ومن المرجح أن تعطي انطباعاً خاطئاً. فبالنسبة للنساء فقط، كانت طهران أكثر مدن العالم أماناً.

وتعتقد مرشدة مستقيم بأن هذه القاعدة غبية تماماً. فقد صفعت أحد حملة البنادق الذكور من الحرس الثوري الذي حاول أن يمنعها من الخروج من الفندق. "قلت له إنني مديرة قوات الشرطة الماليزية المتقاعدة، وأنني أمضيت عمري وأنا أعطي الأوامر للفتيان أمثاله. ثم طلبت منه أن يبتعد عن طريقي". لقد جاءت مرشدة المرأة الضخمة ذات الأكتاف الشبيهة بمفرغ القوارب، إلى طهران كمدربة لفريق الرماية، الذي كان كل أعضائه من الشرطة في القوات الماليزية.

بالنسبة لها، تعتبر الرحلة إلى إيران أو السعودية التي زارتها كحاجّة إلى مكة أشبه بزيارة للماضي، على أيامها، ابتعدت ماليزيا عن المقاربة النظرية للإسلام. "حين كنت صغيرة، كان ثمة الكثير من الصعوبات أمام البنات السافرات في مجال الرياضة". فبينما لا يفي السارونغ المكسم على الجسم بالغرض كالحجاب في طهران، كان المحافظون الملاويون يعتقدون بأن طول الثوب الذي يبلغ الكاحل يزودنا بالحد الضروري من الحشمة الإسلامية. كانت مرشدة تشترك في سباق الحواجز. "اعتدت أن أفتح سارونغي قبل شارة الانطلاق تماماً، وأخوض السباق بالشورت، وعند خط النهاية أربط السارونغ بسرعة." وتقول أن المسلمين الماليزيين، هذه الأيام، مرنون في ديانتهم ويتقبلون حق المرأة في أن تلبس ما تشاء وتشارك في المجتمع جنباً إلى جنب مع الرجال. لكن حتى هذا البلد البعيد ليس في منأى عن الصحوة الإسلامية وقد بدأت العديد من الشابات بارتداء الحجاب الطويل الذي يغطي الرأس والجزء العلوي من الجسد. وفي إحدى الولايات، كلنتان، تم التبشير مؤخراً بولادة دويلة أصولية صغيرة، كاملة مزودة "بحراس للأخلاق" للإمساك بالشابات والشبان غير المتزوجين إذا ما التقوا مع بعض في موعد.

جلست في الباص بجوار مرشدة في إحدى الجولات الإيرانية الرسمية: وهي رحلة إلى ضريح آية الله الخميني، كانت الرحلات كلها متشابهة: زيارة إلى متحف "الذكريات وعودة الحق لأهله، أ . ك . أ ، قصر الشاه السابق، رحلة إلى معرض بعنوان "كرامة ومكانة المرأة في النظام الإسلامي". قبل انطلاق الباصات في رحلتها الطويلة إلى مقام الخميني ذي القبة المذهبة في الطرف الجنوبي للمدينة، جلبت الموظفات الإيرانيات الكثير من علب المحارم. في البداية خطرت ببالي فكرة غريبة وهي أنهن أعددن العدة لمواجهة الاندفاع العاطفي الذي لا بد سينتابنا لمرأى ضريح الخميني. ثم أدركت أن ما يشغلهن هو أحمر الشفاه الذي تضعه الرياضيات غير الإيرانيات. تناولت مرشدة باحترام منديلاً قُدم لها ومسحت به شفتيها من

لمعان اللون الأحمر. قالت: "حسناً، ثمة أمرجيد في الإقامة هنا، يمكنني أن أوفر ثروة من الماكياج".

ليس بالضرورة. ففي اليوم الأخير للمباريات، اندفعت الرياضيات والموظفات اللائي بهت مكياجهن، في طابور من الباصات واجتزن الحراس على باب الاستاد. في الداخل، رمين حجبهن وتدافعن إلى غرفة تبديل النساء ليضعن الذرور على أنوفهن وليتمسكرن. أرادت كل منهن أن تبدو بأبهى صورة لها استعدادا لتسجيل الألعاب على شريط فيديو الذي كانت تعده مصورة من أجل عرضه لاحقاً في اجتماعات نساء إيران كلها.

جلست بديدة، العداءة الإيرانية وحدها وهي تطقطق بين أصابعها بعصبية بسبحة بانتظار تصويرها وهي تتلقى ميداليتها عن سباق الأربعمائة متر. في الليلة السابقة واسيت عداءة باكستانية ضيعت فرصة في نهاية مباراتها. كان الأمر كارثة بالنسبة لها، لكنها بحلول اليوم التالي كانت تتطلع إلى فرصة أخرى في الألعاب الآسيوية، أو دورة الباسيفيك، أو واحدة من حوالي ست مباريات دولية ستحضرها خلال العام أو العامين القادمين.

أما بالنسبة لبديدة، فكل شيء يتوقف على هذا السباق الوحيد القصير. وستمر أربعة أعوام قبل أن تتاح لها فرصة مباراة دولية أخرى. حين انحنت عند خط الانطلاق، بدا شكلها الطويل الساقين الشبيه بالمهرة هشاً بجانب الرياضيات ذوات العضلات من تركمانستان وقرغيزيا وأذربيجان وإذ دوى صوت مسدس الانطلاق، أسرعت، وبخطواتها السريعة حافظت على موقعها مع منافستها السمينة.

لكن وهم التكافؤ كان قصيراً. وما أن بلغت ثلث مسافة السباق، حتى أصبحت في الخلف وبدا التوتر على وجهها. كان التمرين بالنسبة لبديدة يجري في الفراغ بين محاضرتها الجامعية في الساعات القصيرة المخصصة للنساء في الاستاد المجاور. لم تتدرب أبداً على الاحتمال و لم يدربها مدرب اختصاصي إطلاقاً. اجتازت خط النهاية بعد الفائزة بثلاث

ثوان وبثانيتين بعد الفائزة الثانية. تمددت على الأرض، وضربت على صدرها واستنشقت الهواء بين نشيج الألم والخيبة.

من المستحيل الجزم أنه لو كانت بديدة في مكان وزمان مختلفين ستصبح بطلة، في نظام لا يهتم بالحشمة قدر ما يهتم بالتدريب المنهجي: لكن توقيتها في سباق الأربعمائة متر، رغم أنه لم يكن جيداً بما يكفي للفوز بالمباراة، فقد جاء متقدماً بثماني ثوان على أفضل رقم سجلته سابقاً.

في عشاء الوداع بعد حفل اختتام الألعاب، استعادت بديدة رباطة جأشها وتكلمت باعتزاز عن الميدالية البرونزية التي ساهمت في إحرازها لفريق سباق المراحل الإيراني. "بالطبع كنت أتمنى الحصول على ميدالية لي، ولن أحصل عليها الآن أبداً". ذكرتها بأن كلاً من باكستان وأذربيجان يتحدثان عن استضافة ألعاب نسائية إسلامية في غضون أربع سنوات. ولربما تنال ميداليتها في ذلك الحين.

هزت رأسها وابتسمت ابتسامة حزينة خاطفة ثم قالت وهي تشيح بنظرها: "لا، ربما تفوز بها واحدة أخرى، أما أنا فأعتقد أنه قد فات الأوان".

الثاني عشر

طبّـــال مختلف

"يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً ، عسى ربكم أن يغفر لكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار"

سورة التحريم 66: 8

سهير البابلي، سيدة خشبة المسرح في القاهرة، بدت في ذروة تألقها. فأمام واحد من أكثر شبابيك التذاكر ربحاً في مدينة أحبت ممثليها دائماً، كان دورها كنجمة في دور"عطيات الإرهابية" يجتذب الناس لمدة عام إلى مسرح الفن المصري الذي يتسع لـ700 مقعد.

ثم، فجأة، حين كانت المسرحية على وشك البدء بموسمها الثاني في تموز1993 ، توقفت عن العمل. كانت، كما قالت، تتوب عن العمل الاستعراضي لتفعل الخير وترتدي الحجاب الإسلامي.

كان تراجع سهير جزءاً من موجة استقالات في وسط الفنانات بدأتها راقصات هز البطن القاهريات في الثمانينات. وسرعان ما بدأت عشرات المغنيات والممثلات بتعليق فساتينهن البراقة، ومسح مكياجهن وارتداء

الحجاب وإلقاء الخطب لجمهورهن السابق حول آثام عالم الفنانين، وفي ربيع عام 1992 حدث ما لم يكن بالحسبان: حظرت الفوازير التي كانت تملأ ليالي رمضان بالحيوية باعتبارها لاتتماشى مع الإسلام، مؤدية إلى حرمان مئات الفنانين من عملهم.

لكن الوسط الفني صمد حين استقالت سهير. وقد قام مخرج المسرحية ومنتجها بتنقيح النص ليتلاءم مع الموسم الثاني وليتضمن اشارات إلى موجة التفجيرات الإرهابية الأخيرة على أيدي المتطرفين الإسلاميين. وبدلاً من سهير، اختار ابنته البالغة الثانية والعشرين، والطالبة في الجامعة الأميركية في القاهرة، والتي لم تكن تجربتها المسرحية تتعدى الإنتاج الطلابي.

ليلة عودة افتتاح المسرحية، خرج كل المشتغلين في الوسط الفني من أي نوع للتعبير عن دعمهم. وكان ذلك بداية حركة ارتدادية: فلأول مرة يقف الفنانون معاً في نقدهم الاستقالات المدفوعة دينياً وفي وجه ضغط الأصوليين على الحفلات الفنية. وانتشرت نكتة في القاهرة تقول: من هن صاحبات ثاني أعلى أجر في مصر؟ إنهن راقصات هز البطن،"طبعاً، لأن السياح السعوديين يلقون بالأوراق النقدية من فئة المائة دولار تحت أقدامهن عندما يرقصن. ومن هن صاحبات الأجر الأعلى؟ إنهن الراقصات اللائي تبن الى الله، طبعاً، لأن مشايخ السعودية يرمون بالأوراق النقدية فئة1000 دولار لحسابهن في البنك حين يتوقفن عن الرقص.

إن حالات التحجب كلها تتبع النمط نفسه: تظهر فنانة مرموقة في البرنامج التلفزيوني الشعبي للشيخ محمد شعراوي، وهو المعادل المصري للانجيليين. وهناك تشجب سيرتها السابقة بوصفها إسلامية، تأخذ حجاباً من الشيخ الطاعن في السن وترتديه، مع مباركة الشيخ لها.

يعتقد المشككون المصريون أن السعوديين أسسوا حساباً جارياً مصرفياً خاصاً للشيخ شعراوي لكي يشتري به الفنانات. تقول نوال السعداوي أشهر نساء مصر: "إذا لم يكن من أجل المال، فلماذا تجري الأمور على شاشة التلفزيون؟ لماذا لا تجري سراً، ولا شاهد إلا الله؟"

ويبدو على النساء حديثات التحجب أن لديهن الكثير من النقود بالتأكيد. فقد صرفت شمس البارودي، إحدى أوائل المتحجبات ثروة على شراء نسخ الأفلام التي ظهرت فيها وقد ارتدت أقصر الثياب، من ضمنها مشهد جسور في البانيو ظهرت فيه عارية تقريباً. كانت قد صممت كما تقول، بأن هذه الأفلام ينبغي ألا تعرض ثانية. وامتنعت عن التعليق على مصدر الأموال التي استخدمتها لشراء حقوق تداول أفلامها القديمة، لكن الشائعات في الوسط السينمائي المصري تقول إنها من رجل دين بارز.

وقد أشارت نوال السعداوي إلى أن الكثير من هؤلاء النسوة تجاوزن فترة تألقهن كممثلات أو راقصات بكل الأحوال. "وهن يعلمن أنهن عاجلاً سيرغمن على الاستقالة، فلماذا لا يخرجن متألقات بالشهرة؟ لقد سمعتم بالنكتة التي يرددها الناس في الشوارع قائلين بأن هؤلاء الراقصات كن سعيدات بتحصيل ثروتهن من الإثم في شبابهن وها هن الآن، في شيخوختهن، يرغبن بمشاطرة الفقراء مباهج الجنة. لكن مأزق نوال نفسها ساهم في الوصول إلى توضيح آخر للإندفاع والانخراط وراء الحجاب. فهي كطبيبة نفسية وموظفة حكومية كبيرة في وزارة الصحة في الستينات، شاهدت الآثار الجسدية والنفسية لختان المصريات. وكتابها الأول، المرأة والجنس، المنشور عام 1970، هو إدانة للتعاليم الإسلامية المشوهة التي أحست أنها المسؤولة عن تدمير حياة النساء. وبالرغم من خسارتها لعملها وقضائها ثلاثة أشهر في السجن، تابعت الكتابة حول مواضيع التابوات في أكثر من ثلاثين كتاباً. وصفت جرح الطفولة عندما ختنوها وكيف أصبحت غير قادرة على الوصول إلى الرعشة، وكتبت عن إزالة البكارة قبل الزواج في مشافي القاهرة الجراحية، وعرّت تفشي سفاح القربى في العائلات المصرية.

في الصحف واللقاءات العامة هاجمت الشيوخ المتنفذين. في أحد برامجه شجب الشيخ شعراوي أولئك الذين اختاروا النوم على هدهدات الموسيقى الكلاسيكية الغربية بدلاً من اللحن الإيقاعي لقراءة القرآن. بعد بضعة أيام ألقي القبض على شباب متطرفين في مصر العليا لاقتحامهم حفلة موسيقية

وتحطيم الآلات الموسيقية كلها. كتبت نوال مقالة صحفية متسائلة لماذا اعتقلت الحكومة الشباب، وليس شعراوي، الذي ألبتهم أفكاره.

في صيف عام 1992، وضع الجهاد الإسلامي نوال السعداوي على قائمة الموت، هي والكاتب فرج فودة. وحين اغتيل فرج خارج مكتبه، قامت الحكومة المصرية، التي غالباً ما تبرمت من نوال بتزويدها فجأة بحرس عسكري على مدار 24 ساعة. ولمعرفتها أن قتلة السادات هم أعضاء في خلية سرية لمتطرفين إسلاميين داخل الجيش المصري، وجدت نوال أن قيام المجندين العسكريين أمام بابها ليس مطمئناً. "أنا خائفة منهم أكثر مما أنا خائفة من أي شخص آخر." هذا ما أسرت به. اختارت المنفى عام 1993، وشغلت منصب أستاذة زائرة في جامعة ديوك في أمريكا.

إذا كان الكتّاب مستهدفين، فالمسألة كما حسبتها نوال، مسألة وقت فقط قبل أن يصبح الفنانون الأقل اهتماماً بالسياسة عرضة للهجوم المباشر. والراقصات اللائي شهّرن بمهنتهن غالباً ما كن يتحدثن عن القلق والخوف الذي حل محله الهدوء بمجرد استقلالهن وابتعادهن عن خشبة المسرح. تحدثت حلاح الصافي، إحدى الراقصات الشهيرات، عن حلم رأت فيه أنها تمشي بجوار مسجد وهي تشعر بالرعب لأنها لم تكن ترتدي اللباس المناسب. تقول أن رجلاً، في الحال، خلع عباءته وغطاها. أشارت نوال إلى أنه ليس من الضروري أن يكون المرء طبيباً نفسياً ليفسر الخوف في حلم حلاح بوصفه رد فعل لاشعوري على ضغط المتطرفين الدينيين.

في عام 1993، ثبتت صحة نبوءة نوال. فحين قررت فريدة سيف النصر أن تعود إلى العمل الاستعراضي بعد إعلانها استقالتها، حاول مهاجم مجهول اغتيالها بوابل من رصاص بندقيته.

في مكتبي، كانت سحر تتأمل برضا تام كل قصة جديدة عن فنانة تعود إلى الحجاب. ذات صباح، رفعت بصرها عن إحدى الصحف المحلية لتقرأ لي فقرة حول راقصة شهيرة راغبة في أداء فريضة الحج. رفضت السلطات

الدينية إعطاء المرأة الأوراق الضرورية ما لم تتخلَ عن الرقص. استحسنت سحر قرارهم. قالت: "لماذا تذهب، وتصرف النقود التي كسبتها بالإثم، وتقف على منبسط عرفات وكأنها مسلمة تقية؟".

لكنني أشعر بالأسى وأنا أرى الرقص التقليدي المصري الجميل يُشوه ويُهدد. لقد شاهدت أول راقصة مصرية من خلال إدراك واهن بعد وصولنا إلى القاهرة، حين دعانا أحد الأصدقاء إلى العشاء في نادي هيلتون النيل الليلي، حيث يسهر المصريون حتى ساعة متأخرة، وقد جاهدت خلال العشاء لأتجنب سقوط وجهي في طبقي المليء بالزغاليل. لكن ما إن بدأ الرقص حتى نسيت التعب كله.

دارت سهير زكي على خشبة المسرح على إيقاع الموسيقى. كان الارتفاع والانخفاض البطيئين لنغمة العود يتموج على جسدها. للمرة الأولى يكون للموسيقى العربية معنى بالنسبة لي. استطعت أن أدركها، تغزل في الفراغ أشكال الأرابيسك البديعة. واستطعت أن أدرك شيئاً آخر، جمال جسد انثى ليست شابة ولا نحيلة. سهير زكي هي أكثر الراقصات تبجيلاً في القاهرة، لكنها لم تصل الثلاثين بعد. فاللحم يلتصق متثاقلاً على كفليها وفخذيها. وبطنها ناتئ مثل إجاصة ناضجة. لم أكن قد شاهدت الرقص الشرقي التقليدي من قبل، لكنني فهمت كل حركة. فما كانت تفعله بجسدها هو تماماً ما يفعله الجسد الأنثوي ـ حركات الجنس والولادة الطبيعية، شدت الرقصة الأعين إلى البطن والفخذين، المركز الرئيسي لأنوثة الجسد الأنثوي.

تعلمت وأنا فتاة حركات الباليه الغربية اللاطبيعية والعصية على الفهم، التي ترمي إلى جعل الجسد يبدو لا مادياً كالهواء. فهي باصرارها على الافراط بالارتعاش والامتداد تتنكر للأنوثة، مطالبة الراقصين باستحضار صورة بنات ما قبل سن البلوغ. حين كنت في الرابعة عشرة كان الاستديو الذي تعلمت الرقص فيه مكاناً بائساً، يغص بالتلميذات اللائي يعرفن أنهن لن يكن راقصات باليه أبداً. فقد خذلتهن أجسادهن بأن أصبحت أطول مما

ينبغي، أو أكثر استدارة أو مفرطة الأنوثة. قررت قبل مغادرة مصر أن أحاول تعلم هذه الرقصة الأقدم بكثير التي تمجد كل حركة من حركاتها جسد المرأة دون تزييف.

أرغم الضغط الديني راقصات القاهرة على ارتداء قطعة فصلت خصيصاً لا يبدو منها عري ما بين النهدين. وأي شيء مفرط في الإيحاء كفيل بأن تقوم سرية خاصة تدعى "بوليس الآداب" بزيارة إلى المكان. والمقالات العرضية في الصحف وثقت غارات على النوادي الليلية حيث كان أداء الراقصات مغرقاً في الإثارة الجنسية أو لباسهن موحياً بذلك. وإحدى الراقصات بوجه خاص وهي سحر حمدي، كانت دائماً تساق إلى السجن. وحين تتصفح الجريدة، حيث كانت سحر تقرأ لي هذه الفقرات لأن الاسم شبيه باسمها، وتهز رأسها المحجب استهجاناً للأمر. كانت سحر حمدي مدللة لدى سائح سعودي ثري. وفي بعض الليالي ترقص على خشبة فرشت بالأوراق النقدية أو تغسل قدميها الخفيفتين بشمبانيا ذلك الثري. ولكنها هي الأخرى رأت النور عام 1993 وراحت تتحدث عن الاستقامة والالتزام الديني.

وإذ لم يطق الأصوليون صبراً بحركة استقالة الفنانات البطيئة، أرادوا من الحكومة أن تحظر الرقص الشرقي في الحال، وبشكل كامل. لكن رقص هز البطن كان وسيلة جذب كبير للأثرياء العرب من الخليج (الفارسي)، الذين يتدفقون إلى القاهرة كل صيف. ولتسوية الأمر مع الطرفين، خرجت الحكومة بواحد من أنصاف حلولها الشهيرة: أوقفت إصدار تراخيص للراقصات الجديدات باستثناء فنانات الفولوكلور الكلاسيكي، لكنها لم تحرم الرقص. حين قررت أن أكتب قصة حول هذا الإشكال، نظرت سحر إلى الأرض و لم تقل شيئاً. سألتها: "هل تريدين أن أجد مترجمة غيرك؟" هزت رأسها. فهي لا تريد أن تزور نوادي القاهرة الليلية أو تتكلم مع الراقصات. أخبرتني ذات مرة أن سهير زكي رقصت في عرس والديها والآن تشعر سحر أن طريقة سهير في عرض جسدها طريقة آثمة.

لكن حتى سحر لم تكن مرتاحة تماماً لمطالبات الحكومة بحظر هذا وتحريم ذاك. شعرت أن الدين مسألة شخصية لا ينبغي أن تتحول إلى إكراه سياسي والثورة الإسلامية التي تريدها ستأتي من خلال الإقناع التدريجي للناس وليس بالعنف. وهذه الحالة سادت في مصر وبدا أنها تخدم البلد جيدا. إن من السهل أن تشتري الكحول في القاهرة، لكن لا أحد من أصدقائي المصريين يشربها، وفي حين يساق السعوديون إلى الصلاة بوساطة البوليس الديني، فإن المصريين يتدفقون إلى المساجد طواعية. والكثير منهم يحملون كدمة الإيمان الدائمة على جباههم، التي تأتي بسبب ملامسة الجبين للأرض أثناء الصلاة طوال سني العمر.

إذا ماحُظرت رقصة هز البطن، فستكون سابقة مربكة وتؤدي إلى مطالبات صاخبة متزايدة من أجل مزيد من التعقيدات الإسلامية. ولمعرفة مدى جدية القواعد الجديدة، ذهبت لزيارة محمود رمضان الموظف الكبير لدى دائرة التفتيش الفني. كان محمود المفتش الرئيسي على الراقصات، والذي يصدر الإجازات للفنانات اللواتي ليست ثيابهن ورقصاتهن مبالغة في التعري. تنهد قائلاً:"كان عملي ممتازاً في تلك الأيام". لقد رأى رقصات أدتها كل فنانات مصر الرائدات. النجمات الحقيقيات، بالنسبة له، تألقن في الخمسينات، حين كان كل فيلم مصري يتضمن رقصة من رقصات هز البطن. لقد أُلهت الراقصات وكان يدفع لهن حتى 3000 جنيه مقابل أدائهن الرقص لليلة واحدة على خشبة المسرح أو في عرس خيالي الثراء.

والآن، يراقب محمود هؤلاء النساء وهن يشخن، وما من قادمات جديدات يحللن محلهن. "الجيل الثاني لم يكن بنفس المستوى، وبعده حسناً..." تحشرج صوته وهو يشير إلى الطاولة الخاوية أمامه.

هذه التعقيدات هددت أيضاً زمرة الحرفيات الماهرات اللواتي يخطن ازياء الراقصات الأنيقة، اكثر هؤلاء الحرفيات شهرة في مصر تشغل مكعباً صغيراً في وسط سوق خان الخليل الواسع. في الداخل، كم كبير من الخرز الزجاجي البراق، ومنسوجات صقيلة تتدلى من صناديق مثبتة حتى السقف.

يستطيع الزبائن أن يقلبوا صفحات مجلد مليء بالصور التي تبين التصاميم الممكنة ـ التنانير المطرزة بالبروشات التي تمثل الشمس في غلالاة برتقالية أو ذهبية أو طووايس بالأزرق أو المائي، تتلقى خياطة عجوز الطلبات وقياسات الزبائن. تفجعت قائلة: مامن مصريات إطلاقاً". ففي ذلك اليوم كانت زبوناتها ألمانية وفلندية. وبينما كنت أداعب الخرز بأصابعي وأجرب الأحزمة، دخلت المحل امرأة أخرى، تكلمت مع الخياطة بعربية ملكنة، مليئة بأصوات اسرائيلية "تش" الحلقية. قلت لها بالإنكليزية:"عفواً، هل أنت اسرائيلية؟"

قالت :" نعم، جئت بالباص اليوم من القدس". قبل معاهدة السلام بين مصر واسرائيل، كانت تضطر لإرسال أحد أصدقائها الأوروبيين ليشتري لها أزياءها. قالت: "أن هذه المشتريات لم تكن تأتي على مقاسها تماماً، السلام فرصة طيبة لعملي". لكن الاهتمام الذي تتلقاه من الأصوليين اليهود في اسرائيل لم يكن طيباً جداً. فهم كنظرائهم المسلمين، يريدون تحريم رقصة هز البطن. وكانوا يهددون بسحب شهادة الكشروت – الإثبات بأن الطعام أعد وفق الشريعة اليهودية– من الفنادق التي ترقص فيها ومع أنها هي نفسها ابنة أسرة يهودية متزمتة، لم تكن تطيق صبراً على الحاخامات. قالت:"هذه الرقصة جزء من تراثنا، ولربما كانت أم موسى تعرف جيداً كيف تؤديها. لا يمكننا ترك هؤلاء العجائز يقولون بأنه يجب علينا التخلي عنها".

حين عدت إلى البيت فردت مااشتريته، بدلة تمرين رخيصة، حزاماً وصدارة. وإذ رحت أتطلع إلى الزي، خرجت سحر من المكتب إلى غرفة الجلوس. انتظرت تقطيبة الاستهجان. لكنها بدلاً من ذلك فركت النسيج الشفاف للتنورة بأصابعها. وسألتني

"كم كلفتك؟" أخبرتها.

"هل ترسمين لي خريطة توصلني إلى المحل؟"

"لماذا؟" سألتها وأنا خائفة أن تكون قد خططت لأخذ أصدقائها الأصوليين لتطويق المحل، أو ماهو أسوأ من ذلك.

قالت:"أريد أن أشتري زياً كهذا، أنا راقصة رائعة، سأرقص لزوجي بعد أن نتزوج".

لم يكن سعيي كي أصبح راقصة رائعة يسير على مايرام. فالمصريات يكتسبن ملكة الرقص بشكل طبيعي كما يكتسبن القدرة على المشي، وهن يراقبن أمهاتهن، وأخواتهن وعماتهن. وفي بيت صديقي سيد، تستطيع أن تؤدي حركة الورك المرن والهبوط وحركة المقص. بذلت أخوات سيد كل ما يمكنهن معي، لكن كان من الصعب عليهن أن يعلمن ما لم يتعلمنه أبداً.

قلن لي: "تحتاجين لمعلمة." والعوالم هن معلمات الفن المصري، اللواتي يرقصن ويغنين ويعزفن على الآلات الموسيقية وينقلن هذه التقاليد إلى ورثتهن. كان إيجاد معلمة منذ عقود قليلة خلت أمراً في غاية السهولة. فمنذ قرون، وعشائر المغنين من قرى النيل يتناقلون أنقى شكل من أشكال الرقص المصري القديم من جيل إلى جيل. حين استقرت هذه الأسر في القاهرة تحلقوا حول أحياء الفنانين. ماتزال بقاياهم هناك، على امتداد شارع محمد علي، في محلات صغيرة، رائحتها لاذعة بسبب الفراء ونشارة خشب الأعواد وجلود الأسماك المجففة لصانعي الطبول، ومن العتبة يعلمك أنين العود أو طبطبات الطبل أن حِرَفياً يجرب صنعته لكن الراقصات رحلن. قال أحد الحرفيين الشيوخ:" سئمن مضايقات البوليس. فهو يعاملهن بوصفهن عاهرات، ودائماً يقتحم بيوتهن ليرى إن كان ثمة رجال". والآن لا أحد يشجع ابنته على امتحان الرقص." فالضغط كبير جداً لكنه سينتهي وسيعدن كلهن ذات يوم". بدا العجوز مخضرماً بما يكفي لأن يكون قد شهد كل ماحدث. عندما زار غوستاف فولبرت القاهرة عام 1950 وجد أن كل الراقصات الشهيرات قد حظر عليهن دخول المدينة لأن الحاكم ظنهن يشجعن الدعارة. فاضطر لأن يرتحل إلى أعالي النيل ليلتقي بالفنانات وتذكر يومياته راقصات مثيرات لدرجة أن الموسيقيين المصاحبين لهن اضطروا لتغطية عيونهم بطية من قنابيزهم كي لاتعيقهم الإثارة عن العزف.

وبيدٍ بدت حاذقة جداً في عملها، خط العجوز عنواناً بالعربية على طرف قصاصة من جريدة. قال وهو يناولني إياها:" اذهبي إلى هذا المكان، قولي لها أن صانع الأعواد أرسلك إليها".

سارت التكسي حوالي ساعة في شوارع القاهرة المزدحمة بالبنايات. وقبل أن نأتي إلى طرف المدينة تماماً توقف السائق في الصحراء فجأة ليسأل عن الاتجاه. وكما هي الحال دائماً في مصر أشار إليه كل من الرجلين الذين سألهما باتجاه مختلف. أخيراً وصلنا المكان، وكان بيتاً أنيقاً محاطاً بالدفلى. والموسيقا تصدح خافتة وراء الجدار المنخفض، كان الباب مفتوحاً، فدخلنا، وفي الداخل كان هناك ست نساء وفتيات يرقصن ويثبتن عيدان القصب على رؤوسهن في حين تقوم كل منهن بتحريك وركها حركات منتظمة. أشارت النسوة إلي بالإنضمام إليهن، وحاولت جاهدة أن أقلد حركاتهن لكن سرعتهن وبراعتهن كانت بعيدة المنال بالنسبة لي. بعد ساعة استسلمت مرهقة، ورحت أراقبهن وأنا منزوية في إحدى الزوايا. كانت إحدى النساء الأكثر رشاقة ومهارة هي التي تقودهن، لكن تعليمها لم يكن إلا بضرب المثال. فهي لم تقل شيئاً للأخريات لتصحيح حركتهن أو خطواتهن.

أخيرا، توقفت امرأة أخرى وهي تتصبب عرقاً وخرجت لتشرب. لحقت بها وسألتها عن المعلمة. رشفت الماء ببطء وقالت نحن في بيت أحد أكثر فنانات القاهرة شعبية، لكنها لأسباب خاصة بها لم تعد تظهر علناً على الإطلاق، فإذا ما أردت أن تتعلمي، فيمكنني أن أجدها هناك عصر كل خميس وثلاثاء.

لقد وجدت معلمتي، ومنذ ذلك الحين بدأت أذهب إلى البيت كلما استطعت. وشيئاً فشيئاً، تعلمت كيف أعزل كل مجموعة عضلية، وعندما تمكنت من تثبيت القصبة على رأسي تعلمت أن أستمع إلى الموسيقا وأتبعها بجسدي. وبمراقبتي للأخريات تعلمت أن أتحرك دون مبالغات الصخب الشديد الذي يقرنه الغربيون غريزياً مع الرقص الشرقي. فهو في شكله

الأرقى الأقل صخباً هو الأفضل، وأقوى الحركات، غالباً ما تكون تلك الحركات الضئيلة والانثناءات الأكثر انضباطاً.

بدأت أرغب بوجود طريقة ما للرد على حملة الأصوليين ضد الرقص الفني. أخيراً قررت، كحد أدنى من التعاطف مع الراقصات اللائي رفضن دفع الأصوليين لهن إلى الحجاب، أن أمضي إلى خشبة المسرح في مكان ما في مدينة القاهرة وأؤدي هذه الرقصة دون ترخيص مسبق. بحت بسر خططي هذه إلى صديقي إيّان، السفير الأسترالي. دفن وجهه في يديه وهو يضحك ساخراً. "يمكنني أن أتصور الأمر الآن: سينتزعونني من فراشي في الساعة الثانية ليلاً لأرد على مكالمة أسترالية يائسة، وستكونين أنت هذه الأسترالية التي سجنت بسبب رقصة هز البطن".

تمثلت المشكلة الأكثر إلحاحاً في إيجاد المكان المحتشم بما فيه الكفاية لعرض براعتي. ذهبت إلى شارع محمد علي طالبة النصح. فأصبحت على علاقة ودية مع طبّال يعزف في فرقة الراقصين الشهيرة المسماة "لوسي". وسرعان ما استعرض الفنادق والنوادي الليلية على امتداد طريق الهرم. فكر خالد قائلاً: "هذه الأماكن تتراوح بين الدرجة الأولى والدرجة الخامسة. أما ما ستحتاجينه أنت فهو الدرجة العاشرة بالتأكيد".

اقترح النادي الليلي، أريزونا الجديد، وسعر الدخول إليه تسعون سنتاً. تفحصت الملهى برفقة طوني، كان ثمة رجال ونساء بين الحضور، ولم يكن مستوى الراقصات رفيعاً وبدت الإدارة حيادية بما يكفي للمغامرة برقصة غير مرخصة ما دام سلوكي سيبدو وليد اللحظة. وإذا ما ظهر بوليس الآداب فإنني سأدعي أنني قفزت على قدمي بسبب قوة الموسيقا التي لاتقاوم، وبينما كنت أنتظر دوري بعد بضع ليال، رحت أشك بقدرتي على الدفاع عن رقصة هز بطن ليست مرخصة مسبقاً، كنت أرتدي تحت معطفي بدلة رقص باللون الأسود والذهبي وعليها من الخرز ما يكفي لشراء جزيرة مرجانية صغيرة في المحيط الهادي، كان علي أن أنطلق في منتصف السهرة بعد الراقصة الثالثة أشجان، التي كانت كمعظم الراقصات امرأة متوسطة، ذات جسد

فقد رونقه، كان رقصها رقصاً لامبالياً، لكن النظارة لم يكونوا يأبهون لذلك. وإذا أردنا الحكم عليهم من خلال عمائمهم المنحرفة في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لأمكن القول أن معظم الزبائن من الصعيد، أي أبناء الريف المصري الآتين إلى المدينة لحضور حفلة ليلية صاخبة، واستطعت أن أرى بينهم طاولة أو اثنتين لعرب الخليج، بلباس الرأس المميز المنقط باللون الأحمر. بدا المكان أدنى بكثير من الأماكن التي يذهب إليها أثرياء الخليج: وهؤلاء إما سكروا قبل ذلك وما عادوا يدركون الفرق، أو أسعار النفط انحدرت أكثر مما أظن.

أخيراً انحنت (أشجان) محيية الجماهير ثم قادتني إلى الخشبة، نظرت إلى بحر من العمائم فأحسست بموجة من الذعر تنتابني. لكن ضربات الطبّال الملحة وإقلاع الموسيقا التي انطلقت معها تائهة في دواماتها ورجع صداها، والرقص الشرقي ارتجالي، ويتطلب تفاهماً متبادلاً بين الموسيقيين والراقصة، وحينما تسارعت ضربات الطبل وحدّته، اضطررت أن أحافظ على الإيقاع بحركات وصلت حد الخبل، عازلة منطقة الورك التي جعلت آلاف الخرزات الذهبية تهتز في حزامي. بعد ذلك تباطأت الخطوة حتى أوشكت أن تصل إلى حالة السكون: عضلات قليلة تتثنى على إيقاع الرباب البطيء.

بدا وكأنني على خشبة المسرح منذ ألف ليلة وليلة، أخيرا سمعت نوبة الموسيقا التي تبيح للراقصة إنهاء رقصتها بتحية رشيقة. انحنيت واستدرت لأغادر الخشبة، هب سعودي وهو يلوح بعشر جنيهات طالباً الإعادة. ومما أصابني بالذهول أن بقية الحضور ضربوا الطاولات مطالبين بالمزيد: وصلت (أشجان) التي ترتدي أفضل الأرابيسك في تلك الليلة، وتناولت الجنيهات العشر وأمسكت رسغي باليد الأخرى وأعادتني إلى تحت الأضواء. أدينا الرقصة الثانية معاً، وفي منتصفها انحنت واختلست النظر تحت منتصف بدلة الرقص التي أرتديها والتفتت إلى المشاهدين وصاحت بالعربية "ما فيش". غادرنا المسرح معاً في ظل عاصفة من التصفيق والإعجاب، بعد ذلك انتقد المدير "سامي سلام" رقصي نقداً لاذعاً، قال: "إن رقصك من الناحية الفنية

جيد تماماً لكنك لست مشحونة بالمشاعر الكافية. عليك أن تتعلمي الانفعال مثلما تتعلمين الحركات". أعطاني عنوانه وأشار بأن علي أن أتصل به. كنت أعرف أنني لن أفعل ذلك فقد قمت باحتجاج متواضع من أجل حق النساء في الرقص.

خرجت من النادي المشبع بالدخان إلى هواء الليل الشتوي، ومع أن الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً فقد كانت الشوارع والمقاهي مليئة بالناس الذين يضحكون ويستمتعون. بدا لي من غير المرجح أن يتمكن الأصوليون في مصر من إنكار اللهو ومنعه لفترة طويلة. فالمصريون يبدون كالإيطاليين تماماً: فهم يستمعون للبابا بأدب، لكنهم سيعملون لتوصيل نجمة متألقة الى البرلمان.

كان معظم المصريين شديدي المراوغة في موافقتهم على ضربات الأصوليين الغاشمة للسياح أو الكتاب أو الناس الذين صادف أن كانوا واقفين في المكان الخاطىء لحظة شن الهجمات في شوارع أسيوط والقاهرة. وبالرغم من الحياة الصعبة والاحباط الذي تسببه حكومة الفساد، من الصعب أن نتصور المصريين يديرون ظهورهم لحياة المرح التي تجعل مدنهم المزدحمة وقراهم الموحلة بهيجة مفعمة بالحياة.

كان صانع الأعواد في شارع محمد علي محقاً تماماً، فقد يستغرق الأمر فترةً، لكن الراقصات سيعدن ذات يوم.

الخاتمة

احذروا الدوغمائية

﴿قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد،لكم دينكم ولي دين﴾

سورة الكافرون : **1 - 6**

تعلمت أن أعيش على إيقاع صلوات الآخرين، كنت أستيقظ في القاهرة عند شروق الشمس على أصوات المؤذنين وحددت فترة غدائي بآذان صلاة الظهر. وليس ثمة مؤذنون حيث أعيش الآن، في شارع من شوارع لندن القديمة شيده اللاجئون من فرنسا منذ مائتي عام خلت. وهؤلاء اللاجئون وكلهم من الكاثوليك شيدوا أيضاً كنيسة صغيرة بجوار أكواخهم، وبذلك فإن جرس الانجيليين هو الذي يوقظني في الصباح هذه الأيام ويدفعني إلى المطبخ في الظهيرة لأبحث عن الطعام.

ذات يوم في صيف 1992 كان عندي ضيف على الغداء. جاء قبله شرطي ليفتش حجرتي، ويدخل رأسه في السقيفة، علقت سحابة غبار بشعره، وهو يرسل برقية "كل شيء على ما يرام" من جهازه. هدرت

السيارات في الممر، قال البوليس: "دعي الباب مفتوحاً الآن". لا يمكن لهؤلاء الضيوف أن يغامروا بالتباطؤ عند العتبة، دخل فجأة، وسط مجموعة من الحرس الشخصي. واسدلت على وجهه حاشية قبعة بنية مرنة وأخفت النظارات الشمسية تقوس رموشه المميز وانحناء حاجبيه. بعد الاختباء مدة أربع سنوات أصبح لجلد سلمان رشدي شفافية جلد السمك باعتباره رجلاً لا يرى الشمس أبداً. وأصبحت حالته أشبه بحالة مراهق كسول يقتل نفسه ولا يريد أن يلحظه أحد.

كنت أعيش في القاهرة عندما أثيرت المشكلة حول "الآيات الشيطانية" وبعد حكم الخميني على سلمان رشدي بالموت أخذت نسخة من الرواية إلى نجيب محفوظ، مرشح مصر لجائزة نوبل، الذي خضعت رواياته أيضاً للرقابة على أسس دينية، كنت آمل أن يكتب دفاعاً عن رشدي: دفاعاً عن حرية الأفكار. أخذ محفوظ الكتاب من يدي ورماه إلى أقصى نقطة على طاولته كي لا يضطر للنظر إليه، قال إنه مرهق أضنته معاركه الخاصة مع الأصوليين، وهو لا يعتقد أنه سيدخل في هذه المتاهة.

ربما كان حكيماً، ففي اليوم الذي جاءني فيه سلمان رشدي إلى الغداء، كنت أعد مقالاً حول التأثير المحبط للفتوى على كل الكتاب الذين يتناولون الإسلام. فقد شعرت شخصياً بهذا الإحباط وأنا أجلس على مصطبة مشمسة في جنوب لبنان مع أحد قادة حزب الله. وحينها كنت قد اعتدت على التحديقة المنحرفة للرجال المسلمين المتدينين وأصبح مألوفاً بالنسبة لي أن أتحدث مع شخص يركز ناظريه على الأرض على بعد بوصة أمام حذائي. كان يتساءل إن كان سيسمح لزوجته بلقائي. وجد الأمر مربكاً لأن كتابي سيتطرق لذكر النبي محمد وأزواجه وبناته. "عليك بالحذر الشديد" قالها لي وهو يرفع رأسه المعمم ورمقني بنظرة واحدة ثاقبة. "حاذري أن تخطئي".

لم نكن أنا ورشدي نعلم حين كنا نتحدث بهذه الأمور، أن الكاتب المصري فرج فودة قد أردي قتيلاً في ذلك اليوم نفسه برصاص الجهاد الإسلامي ردا على نقده البليغ بل والجارح أحياناً للتطرف الإسلامي.

في مجلة "حوار" الشيعية التقدمية، يكتب علي العلوي عن صعوبات إمكانية اعتناق الأوروبيين للإسلام وهم يرون الدين منفصلاً عن "الأذى والعادات الاجتماعية البالية في أرض الإسلام". ويقول: "ما إن يتمكن الأوروبيون من فصل الإسلام عن هذه الخلفية الصاخبة حتى يقدروا حقيقته حق قدرها".

لكن صخب الخلفية عالٍ جداً هذه الأيام، وتحمل الأخبار كل يوم تصعيداً جديداً. ويُفجر مركز التجارة العالمي، والشائعة تقول إن وراء الحادث ميليشيا فقيه إسلامي، وفي تقرير للأمم المتحدة حول حقوق الإنسان جاء : أن العقوبات الإسلامية السودانية المرتكزة على القرآن تتعارض مع اتفاقية حقوق الإنسان الدولية التي وقعت عليها السودان نفسها. وكرد فعل على ذلك هددت الحكومة السودانية كاتب التقرير الروماني المولد بالموت. وفي مصر يأمر مسؤول عسكري يُسمى علي يحيى أتباعه بتفجير الأهرامات وكافة الأوابد الفرعونية الأخرى، لأن الحضارات التي وجدت قبل الإسلام هي حضارات كفر وانحطاط. وفي الجزائر أُطلقت النار على امرأتين عند موقف أحد الباصات لأنهما سافرتان. وفي العربية السعودية يذهب محرر الصحف إلى السجن لأن الملحق الانكليزي لجريدته يعرض فيلماً كرتونياً اعتبرته الحكومة السعودية هرطقياً. وفيلم الكرتون المثير للسخط هذا فيه رجل من العصر الحجري يقف على تلة ويسأل : "يا الله إن كنت موجوداً فأرني آية". في اللقطة الثانية يُفاجىء الرجل بزخة مطر فيقول: "حسناً، نعرف أمرين. إنه هناك ولديه الإحساس بالمرح" سجن السعوديون المحرر، الهندوسي، لإنزاله شريطاً كرتونياً يتساءل عن وجود الله.

وهذه الحوادث مثلها مثل الفتوى ضد سلمان رشدي تصلنا من مسافات قصية بحيث إننا، نحن الأوروبيين، لا نمتلك طريقة متماسكة للتفكير بها، بل نهز أكتافنا، فهؤلاء غرباء، من يفهم؟ ومن سيضطر لفهمهم؟.

ومع ذلـك، وبينمـا كنـت أرتـب بيـتي في لنـدن، وأنفـض ذرات الغبـار القليلة الناعمة التي جاءت معي من القاهرة على صفحات كتبي، اكتشفت أن صخب الإسلام باق على الدوام هناك في البعيد، مثل جار يضرب بالمطرقة. وأخيراً اقتنعت أنّ ليس من الممكن ولا من العدل أن نتجاهله.

في ذلك الصيف بعد أن زارني سلمان رشدي بفترة وجيزة، تلقيت اتصالاً هاتفياً من صديق مضطرب جداً يقول إن جارته قد ذبحت. كانت المرأة المذبوحة ابنة أحد الأئمة في السودان. ذبحها زوجها وهو سوداني أيضاً. وحين وصلت القضية إلى المحكمة كان الشتاء قد حل ضيفاً ثقيلاً، فبقيت لمدة خمسة أيام أسير عبر برد لندن الشديد إلى محكمة صغيرة في "الأولد بيلي" كانت القضية بالنسبة لآلة العدالة البريطانية الجبارة قضية روتينية، فالمقاعد المخصصة للصحفيين فارغة. لأن مسألة أهلية بين زوجين متوسطي العمر من ضاحية للطبقة الوسطى كانت دون مستوى الاهتمام.

لم تكن الحقائق المتعلقة بعملية القتل موضوع نقاش، فقبل وقت العشاء تماماً، وفي المطبخ الأنيق في بيته الفكتوري الطراز، ذبح عمر زوجته، عفاف، مشى وبيده السكين التي ما تزال تقطر دماً إلى الهاتف واتصل بصديقه الحميم ليخبره بما فعله ثم اتصل بالبوليس.

في القاعة الصغيرة بين إخوة الرجل وجيران المرأة ، كان الأخوة الذين وصلوا من السودان لحضور هذه المحاكمة يرتعشون في بدلاتهم الصيفية. أما الجارات، وهن من الأمهات الشابات العصريات الحديثات الزواج اللائي عرفن الضحية من خلال لقاءات المعلمين بآباء التلاميذ ليلاً وفي رحلات أيام العطل إلى مراكز الحدائق العامة، فقد كن مضطربات بسبب إجراءات بوليس "الأولد بيلي" المشددة. وفي القاعة بدأن كتابة ملاحظاتهن في دفاتر وضعنها على ركبهن كما لو أن التسجيلات المغرقة في التفاصيل ستساعدهن نوعاً ما في إعطاء معنىً لما حصل في شارعهن الهادىء المحاط بالأشجار. ومرةً واحدة خلال الأيام الخمسة حين رفع محامي الادعاء السلاح ـ سكين مطبخ من النوع الجيد ـ وسأل مُشرّحاً عن الجروح الدقيقة التي أحدثتها

حين غاصت في صدر الضحية وبطنها، وضعت إحدى النسوة قلمها وانفجرت باكية.

كانوا في المحكمة يناقشون ما إذا كان الفعل قتلاً عن عمد أو، كما ادعى الدفاع، قتلاً غير متعمد، وقع حين خرج المتهم عن طوره نتيجة "الاحباط"، جاء رد فعل لعلمه أن زوجته تقيم علاقة غرامية وأنها حصلت صبيحة القتل على أمر من المحكمة يحرمه من أخذ أطفاله من بريطانيا ليعيشوا مع أسرته في السودان.

وبينما كنت أستمع لحقائق القضية استطعت أن أحللها بطريقتين، الطريقة الغربية، كما كان القضاة يفسرونها أدت إلى وصفٍ لشيء نفهمه جميعاً كجريمة انفعالية في نوبة جنون آنية. والطريقة الأخرى، التي تعلمتها وأنا أعيش بين المسلمات، تصف أمراً مختلفاً تمام الاختلاف: إنه تطهير شرف العائلة، قتل متعمد يؤدي في ظل القانون البريطاني إلى حكم بالسجن المؤبد.

ومن مكانهم وراء طاولة القضاء لم يستطع المحلفون والمحلفات أن ينظروا إلى عمر وهو يقف قرب شرطيه كل صباح بانتظار أن يرافقه إلى المحكمة، لكنني استطعت أن أراه من منصة القاعة. وإخوته أيضاً استطاعوا رؤيته. كان كل صباح ينظر إليهم ويرفع قبضته المضمومة بتحية النصر المتحدية. كانت خطاه وهو يدخل قفص الاتهام أنيقة مرحة.

كانت عفاف التي ماتت وهي في الثالثة والثلاثين إحدى قريباته التي تزوجته على الطريقة الشرقية. لم تكن قد تجاوزت الخامسة عشرة بينما كان في الثلاثين من عمره. وكون عمر زوجها وقريبها في آن واحد، أمر له أهميته أكثر من أي حقيقة أخرى في هذه القضية. فكونه قريب، ذكر تربطه بها رابطة الدم، فإن التقاليد تصمه بالعار الشديد بسبب زناها. لقد عاشت عفاف الخيارات القليلة التي منحتها إياها الحياة كاملةً. لم يكن لها خيار حين ختنوها، وحين زوجوها إلى رجل لم تكن تعرفه، وأرسلوها آلاف الأميال خارج الوطن إلى مدينة لا تتكلم لغتها.

عاشت عفاف مع عمر حينما كان يدرس لنيل شهادة الدكتوراه عام 1985، ولعجزه عن إيجاد منصب أكاديمي في بريطانيا، بدأ عمله في العربية السعودية. وفي كل عام كانت عفاف ترعى أبناءها الأربعة لمدة تسعة أشهر وحدها. وبينما كانت تعمل في الأعمال الكتابية تمكنت من إنهاء الثانوية ودورة كمبيوتر وبدأت بدراسة العلوم الاجتماعية، وأفلحت كامرأة ذات ابتسامة عريضة وعقل مفتوح في الدخول إلى عالم البريطانيين المحافظين وإقامة علاقات صداقة. أما عمر الذي يعود مرة واحدة من أجواء العربية السعودية الدينية المتشددة، فلم يكن الأمر سهلاً عليه. كان معادياً لأقرب المقربين من عفاف، خصوصاً أولئك الشبان غير المتزوجين الذين يعيشون في شارعها. كان يشعر أن الجيران من هذا النوع يمكن أن يخلقوا "جواً لا دينياً لأبنائه".

وشيئاً فشيئاً، بدأ الانفصال الطويل وتحوّلت عفاف من زوجة سهلة الانقياد إلى امرأة عصامية حققت ذاتها، بتفكيك عرى الزواج المهلهلة. في عام 1987 توقفت عفاف وعمر عن النوم معاً. وكانت عفاف تخشى أن تطلب الطلاق خوفاً من أن يعيد عمر الأطفال إلى السودان حيث لا يسمح الشرع الإسلامي بإعطائها حق رعايتهم.

بعدئذ وقع في حبها "آندرو" أحد زملاء العمل، وهو شاب طويل مطلق، أجعد الشعر. في البداية احتفظت بمسافة بينها وبينه، لكن مساندته لها في المكتب امتدت تدريجياً إلى البيت، حيث تركت سنوات غياب عمر الكثير من الأعمال غير المنجزة، والغرف خربة. آندرو هذا هو الذي أوضح لعفاف أن القانون البريطاني يصون حقها برعاية أطفالها. في كانون الثاني عام 1991 كتبت إلى زوجها تطلب الطلاق.

وافق عمر، ثم في رحلته التالية إلى البيت علم أن آندرو كان يمر إلى بيته، بل وقضى ليلة بكاملها هناك حين عمل لوقت متأخر في الدهان. ثارت ثائرة عمر خوفاً من أن يكون الجيران قد لاحظوا ذلك. فقد كان همه الأساسي أن تبقى هذه الزيارات سراً، لأنه أخبر المحكمة أنه معني بشرف العائلة في حال أصبحت علاقة عفاف برجل آخر معروفة، وحسب شهادة

آندرو في المحاكمة أن عمر أخبره أن لا اعتراض له على لقائه بعفاف، طالما جرت الأمور بعيداً عن المنزل وعن نظرات الجيران المتلصصة.

وكان من الممكن لعفاف أن تعيش لتطلق عمر وتتزوج الرجل الذي اختارته، لو لم تحصل مشادة عنيفة ليوم كامل حول حق عمر بالذهاب وحيداً مع الابنين الصغيرين اللذين خشيت عفاف من أن يحاول خطفهما. ذهب عمر محبطاً ساخطاً لزيارة صديقه السوداني الوحيد وأسر إليه بشكوكه بعدم وفاء زوجته.

وصف ذلك الصديق الذي استدعي كشاهد إلى المحكمة كيف أنه انفجر باكياً حين تكلم عمر، هذه الدموع ـ المذروفة من أعماق سوداني صديق يعرف أبعاد العار الذي لحق بعمر ـ ربما كانت السبب الرئيسي في موت عفاف. فذهنية عمر المدربة حسب الطريقة الغربية ربما كانت قادرة على كسب الحرب ضد عاداته الاجتماعية البالية لو أن علاقة زوجته بقيت سراً. لكن ما إن علم صديقه حتى أصبح العار حقيقة متحققة، لا يمكن مسحها إلا بالطريقة الدموية القديمة. وكون أول اتصال هاتفي لعمر بعد القتل كان مع صديقه، وليس مع طبيب، ولا إسعاف ولا شرطة، يبدو لي الدليل الأقوى على الدافع الذي قدم في المحكمة. ومع ذلك فإن الادعاء لم يقم بأي ربط من هذا القبيل.

في نهاية الأسبوع توصل المحلفون إلى أن الحادث قتل عن غير عمد على أرضية "المسؤولية المخففة". تلقى عمر لإنهائه حياة زوجته حكماً بالسجن لمدة ست سنوات. وبحسم المدة التي خدمها منذ الحادثة واحتمال حسم سنتين لحسن السلوك فقد يُطلق سراحه في تموز عام 1996.

ومن الحقائق التي قُدمت في قاعة المحكمة الصغيرة لم يكن هناك مجال لحكم آخر. والأمر المفقود في هذه القضية ليس الأدلة، بل فهم العادات الاجتماعية للأراضي الإسلامية والتي حملها عمر معه من السودان، البلد التي ترعرع فيها، ومن العربية السعودية، البلد الذي كان يعمل فيها عشرة شهور كل عام.

لا شيء في ثقافة هؤلاء القضاة الانكليز العاديين ولا في تجربتهم يمكّنهم من فهم أن ما وُصف في المحكمة هو حادثة قتل لغسل العار، وهي واحدة من مئات الحوادث التي تزهق فيها أرواح المسلمات.

هذه لم تكن حالة معزولة، بل صادف ببساطة أنها الحالة التي سمعت بها. في دراسة بريطانية عن العنف الأسري، استكملت بعد فترة وجيزة من موت عفاف وجد الباحثون أن النساء المتزوجات من رجال ذوي خلفية إسلامية من المرجح أنهن عرضة للقتل على يد أزواجهن أكثر بثمانية مرات من أي نساء أخريات في بريطانيا. ومع ذلك، يستمر المحامون والقضاة والمحلفون بالتعامل مع هذه الجرائم بمقاييس غير ملائمة إطلاقاً لتقدير ما يجري فعلاً.

وبتقديم الإحصاءات عن العنف تجاه المرأة أو لدى مواجهة السخط بسبب الفتوى بقتل سلمان رشدي يطلب منا المسلمون التقدميون أمثال علي العلوي ورنا القباني أن ننحو باللائمة على التاريخ الاستعماري اللئيم ومرارة تجربة المهاجرين والتقاليد البدوية ، الثقافة الإفريقية ما قبل الإسلامية. ومع ذلك فإن القرآن حين يُجيز ضرب الزوجة وتنفيذ حكم الإعدام بالمرتدين لا يمكن تبرئته كلياً من تهمة ذبح الزوجات والحكم بالإعدام على الكتاب.

في النهاية فإن ما يقترحه علي العلوي ورنا القباني سطحي سطحية ما يقترحه الماركسيون القائلون إن الاشتراكية في صيغتها النقية ينبغي ألا تدان وترفض بسبب سلبيات "الاشتراكية القائمة على أرض الواقع" فكل ديانة بشكل ما، خصوصاً تلك التي تهدف للإحاطة بطريقة متكاملة للحياة والنظام الحكومي، يجب أن تكون مسؤولة عن نوع الحياة التي تتيحها للشعب في الأرض التي تهيمن عليها.

وبالتالي لن يكون كافياً أن ننظر إلى الإسلام على الورق أو الإسلام في التاريخ، ونتوقف عند التحسينات التي لا جدال فيها، التي أدخلها على حياة النساء في القرن السابع. فالواجب الأكثر إلحاحاً هذه الأيام هو أن نتفحص الطريقة التي حولت الدين إلى أرض خصبة لكل عادة ضد المرأة تقريباً،

واجهها هذا الدين في انطلاقته العظيمة من جزيرة العرب. فعندما وجد عادة الحجاب والعزل في فارس تشربها، وعندما وجد عادة الختان الجنسي في مصر تشربها، وحين وجد مجتمعات لم تصدر نساؤها صوتاً واحداً في الشؤون العامة، تلاشت تقاليده التي كانت تقضي بالمشاركة الفعالة للنساء.

ومع ذلك هناك استثناءات، فعندما اجتاحت الجيوش الإسلامية الهند، اشمأز المسلمون من ممارسة "الساتي" التي فيها تحرق الأرامل أنفسهن وهن على قيد الحياة لدى موت الزوج، وفي نفس محرقة جثمانه. في عام 1960 كتب الرحالة "جين بابتستي تافرنر" عن الأرامل الهندوسيات اللائي يحظر عليهن دينهن الزواج ثانية، ويتحولن بموت أزواجهن إلى حياة الفقر المدقع والمهانة فيخترن بدلاً من ذلك إنهاء حياتهن على الساتي (المحرقة). وقد كتب قائلاً: "لا بد من التنويه إلى أن النساء لا يستطعن حرق أنفسهن دون الحصول على إذن من حاكم المكان الذي تقطن فيه، وهؤلاء الحكام المسلمون يتعاملون مع هذه العادة المخيفة برعب، وليسوا مستعدين لإعطاء الإذن بتنفيذها". ومن أجل إنقاذ حياة هؤلاء النسوة على الأقل يستحق الإسلام الثناء. لكن لماذا لا يقف هذا الدين القوي والمرن موقفاً صلباً على الدوام في وجه "العادات المخيفة"؟

ولحظة بدأت بالعمل في هذا الكتاب، فتشت كل مكان عن نماذج النساء اللائي يحاولن إعطاء صورة إيجابية عن رسالة الإسلام في محاولة لإنفاذ حماس مصلحي القرن العشرين بالطريقة التي أعاد محمد فيها تشكيل حياة كثير من النساء "باستثناء زوجاته سبايا الحروب الإسلامية" في المجتمع الإسلامي الأول في المدينة فتبين لي أنه سعي لا طائل من ورائه. ففي معظم الأماكن بدا لي أن مسار الحوار يمضي باتجاهٍ معكوس تماماً، فالنساء الفلسطينيات والمصريات والجزائريات والأفغانيات كن يشهدن ستارةً تُسدل على عقود من حريةٍ المرأة حيث ارتد القادة الإسلاميون في بلدانهم إلى أكثر التفسيرات افتقاراً للمساواة وتأكيداً على عزل النساء. أما أولئك النسوة

اللائي قاومن التيار فلم تكن النتائج مشجعة و لم يجنين سوى التهميش والمضايقات والنفي.

في المغرب، أثارت فاطمة المرنيسي في دراستها القرآنية قضية مرعبة، وهي دفاعها عن الإسلام بوصفه دين الإنسان والكرامة الإنسانية الذي تم دفن رسالته عبر الزمان على أيدي كارهي النساء في مراكز السلطة. ومع ذلك فإن عملها يُقرأ في الجامعات الغربية أكثر بكثير مما يُقرأ في مساجد المغرب. وبغض النظر عن مدى دقة بحثها في الحديث، فإن المؤسسة الإسلامية التي يهيمن عليها الرجال لا يبدو أنها راغبة بفتح أذنيها لدراسة جاءت من مسلمة لا تتحجب أو يُشك بتقاها.

ربما كان هذا هو السبب في أني وجدت الأمل الأكثر إشراقاً بالتغيير الإيجابي تحتضنه العباءات السود للنساء الإيرانيات. إذ إن أكثر الأصوليين ضيق أفق لا يستطيع أن ينتقد أوراق اعتماد المرأة الإسلامية مثلما تنتقدها ابنة الخميني "زهرة مصطفاوي" أو ابنة رفسنجاني "فايزة هاشمي" فمكانتهن الملتصقة بالقوانين الدينية تمنحهن أساساً قوياً ينطلقن منه في قضيتهن حول حقوق المرأة، وحتى الآن لم يستخدمن هذه المكانة إلا بشكل طفيف لمنح المرأة صوتاً سياسياً أكبر وفرص عمل أكثر مساواة والحق في ممارسة الرياضة. ومن المؤكد أن هؤلاء النسوة لن يخرقن جدران التقاليد أبداً، لن يخضن جدالات تصل إلى حد دراسة مسألة الحجاب أو تعدد الزوجات. لكنهن ضمن هذه الجدران التقليدية يستطعن أن يخلقن خلية أكثر أماناً للنسوة المعرضات للامتهان والاستغلال باسم الاسلام.

قد لا يبدو ذلك كثيراً بالنسبة للنساء الغربيات إذ يسهل عليهن النظر إلى تلك الأشكال المقطبة في أكفانهن كرموز لما هو خاطئ، أكثر مما هو صحيح بالنسبة للنساء والإسلام، لكن بالنسبة للنساء المسلمات في أماكن أخرى، في الأجزاء الأكثر تقييداً في العالم الاسلامي فإن الإيرانيات اللائي يركبن دراجاتهن إلى العمل وشواديرهن بين أسنانهن، فالمسألة تستحق الحسد.

"إنهن الخارقات بالنسبة لنا" هذا ما تقوله إيمان فضل الله زوجة شيخ حزب الله في جنوب لبنان الذي جلس على المصطبة وحذرني بخصوص كتابي. والد إيمان أبرز رموز حزب الله في بيروت، وضع حداً مفاجئاً لدراسة ابنته حين كانت في الرابعة عشرة من عمرها واختار لها زوجاً لم تلتقيه حتى يوم العرس. والآن تقبع في بيتها لتربي أطفالها، وفي إيران حيث عاشت مع زوجها وهو يتابع دراساته الدينية شاهدت عالماً أوسع بكثير حتى بالنسبة لأتقى النساء. كانت تتحدث عن فرص النساء الإيرانيات في الدراسة والعمل . بحزن قالت: "علينا أن نناضل لنصبح أقوياء مثلهن".

لكل أنثى طريقتها في تذكر أسفارها. فبعضهن يحتفظن بالجرائد وبعضهن الآخر بالصور الفوتوغرافية. أما أنا فأذهب إلى غرفة النوم وأفتح خزانتي، فالذكريات معلقة هناك تشير إلى ست سنوات وعشرين بلداً، فهنالك المنديل المزين بالأحمر والأسود، مايزال يصدر رائحة خفيفة للدخان الخشبي من موقد المرأة الكردية الذي فكته عن شعرها ولفته حولي. وهناك التنورة الفلسطينية الطويلة التي أعدتها لي رحمة أم رائدة كي أشعر بالراحة وأنا جالسة على الأرض بينهم، وما تزال لدي البدلة الإيطالية بالرقعة الصغيرة التي تخفي التمزق الذي حصل يوم قمت بجولتي مع الملك الحسين في الصحراء الأردنية ، أما حذاء عرسي فقد رميته ـ الحذاء الذي تلوث بدم الجمل وأنوي أيضاً أن أرمي جوارب الأكريليك السوداء التي اضطررت لشرائها على عجل عندما اعترض مفتش اللباس الإسلامي في طهران على الإنش الظاهر بين جزمتي وفستاني. وعلى علاقة الثياب يتدلى الشادور نفسه، تلك القطعة الحريرية المربعة السوداء الكبيرة. لكن تلك الرقعة السوداء المهترئة والملطخة في أسفلها والممزقة عند الكتفين قد أصبحت صديقاً قديماً ومثلها مثل تنورة عام 1980 التي لبستها احتفالا بالنجاح كانت الوعاء الذي مكنني من أداء عملي في عالم لم أكن محل ترحيب فيه.

وحين أنظر إلى الشادور الآن لا أشعر برعشة الخوف التي كنت أشعر بها حين شاهدت أكثر أشكال اللباس الإسلامي تطرفاً. فمشاعري هذه الأيام أكثر تعقيداً بكثير، فالشادور في ذهني ليس مرتبطاً بالنساء اللواتي شعرت أنني قريبة منهن بالرغم من المسافة الاعتقادية التي تفصلنا عن بعضنا.

حين عشت مع المسلمات أصبحت جزءاً من عالم ما يزال في العقد الأخير من القرن العشرين عالماً شديد الخصوصية. في العلن تبدو معظم النساء مثل أشباح مقيدة جسدياً بالحجاب أو عقلياً بضوابط السلوك التي تستحوذ عليهن، فقط وراء الأسوار العالية والأبواب المغلقة تنال هؤلاء النسوة حريتهن.

إن دخول ذلك العالم بالنسبة لي قد حث مشاعري التي ظلت هاجعة زمناً طويلاً، ومنذ أن توليت عملي كمراسلة للصفحة الرياضية لجريدة"سدني مورننغ هيرالد" دفعتني مهنتي إلى عالم من عوالم الرجال. أصبحت مراسلة أجنبية ومعظم زملائي من الرجال و لم أدرك أنني لم أُقم علاقات حميمة مع النساء منذ أن تركت المدرسة حتى ذهبت إلى القاهرة وبدأت أفتش عن المسلمات.

لقد نسيت كم أحببت أن أكون مع النساء ومع ذلك كان دائماً ألم ما يرفرف على حواف أحلى اللقاءات، وبجلوسي القرفصاء على أرضية مطبخ صديقة كردية أساعدها في إعداد الخبز أدركت كم هو أمر مقبول أن أكون محاطة بالنساء تماماً، أن يكون لنا وحدنا عمل يخصنا، وحين كانت أصابع النسوة تقطع العجين من تحت الشوبك والنار تتأجج تحت الصاج المعدني الأسود، شعرت بالرضا بالمشاركة في عمل يؤدى على أكمل وجه.

لكنني بعد ساعة من العمل، وبعد أن تعب كتفاي وأخذ العرق يتصبب في ظهري سلمت العمل للصبي الذي ظل يفردكومة الخبز الطازج الساخنة ويفصل الأرغفة اللذيذة بقبضته الصغيرة السمينة. كانت أخته التي لا تكبره كثيراً، جاهزة للمشاركة في عملية صنع الخبز. فلماذا ينبغي أن يتعلم وهو بمثل هذه السن، أن عليها ان تتعب لإسعاده؟

تذكرني ملابسي، الشبيهة بملابس الراهبة التي دفعت إلى آخر الخزانة، بتلك المشاعر المختلطة وفي كل مرة تلامس يدي نسيج الشادور الناعم أفكر بناهد أختاي طالبة الطب الإيرانية التي تخلت عن حياة الراحة في لندن لتعود إلى الوطن ولتعمل بأجر متدن خدمة لأهداف ثورتها. أتذكرها في"قم" وهي تندفع باتجاهي عبر المسجد ذي الأرضية المرخمة لتخبرني أنها صلت من أجلي "كي أرزق بأطفال جميلين" وحينئذ أفكر بوجهها الجميل - بالمثلث الصغير الواضح ما بين الحاجب والشفة - وهو متألق صبيحة اغتيال مترجم رشدي الياباني في تموز عام 1990. قالت بزهو: "هذا ما يبين قوة الإسلام" قلت لها أن هذا بالنسبة لي لا يظهر قوة الإسلام أكثر مما يظهر إطلاق الجنود الإسرائيليين النار على طفل فلسطيني قوة اليهودية. سألتها لماذا لا ينظر إلى قوة الإسلام في الأعمال الإنسانية التي تقوم بها إيران حيال طوفان اللاجئين العراقيين الذي كان يصب عبر حدودها؟ قالت: "لأننا حين نفعل ذلك لايلحظه أحد لكن كافة مراسلي الصحف في العالم سيذكرون عملية إعدام مترجم رشدي".

في نهاية المطاف أصبحت حذرة من هذه المناقشات فالصداقة مع نساء مثل ناهد صداقة انفعالية. فكيف لي أن أعجب بها لشجاعتها في معتقدها في حين أن هذه المعتقدات تقودها إلى تفكير بغيض كهذا؟

مباشرة، بعد هذه الرحلة إلى إيران، وبعد أن أرهقتني تغطية الحرب مع العراق وعقابيلها ذهبت إلى استراليا لقضاء عطلة قصيرة، حطت طائرتي في سدني مباشرة قبل وصول رحلة من جاكرتا، وبينما كنت أنتظر أمتعتي فتحت الأبواب المؤدية إلى قاعة القادمين ليدخل حشد من الأندونيسيين والاستراليين الذين ينتظرون للترحيب بأقاربهم، كانت معظم النساء تقريباً محجبات فمرت فكرة خاطفة بائسة عبر دماغي المرهق."لا، من فضلكن ليس هنا أيضاً".

لم أُنشَّأ تنشئة متعصبة، فوالديّ يعتبران التعصب الديني إثماً لأن أمي ذاقت منه الويلات في طفولتها بين المهاجرين الايرلنديين الكاثوليك الريفيين. فقد اعتبر زواج أمها من رجل غير كاثوليكي ضرباً من ضروب الشجاعة، أما

زواجها هي فيعتبر قصة استرالية نموذجية، فعلى امتداد جيلين استطاعت أن ترمي أوساخ الاجحافات الريفية القديمة من حذائها واعتنقت"الديانة"الاسترالية الجديدة ـ وهي العلمانية الرقيقة المحتملة ـ وهذا ما حصل مع الجميع تقريباً، فأحد الإحصاءات الأكثر دلالة التي عرفتها عن بلادي تتعلق بإثني عشر عضواً من الكنيس الرئيسي في هيئة إدارة سدني في عام1890، كان هؤلاء الرجال من أكثر الشخصيات اليهودية بروزاً، وبعد أقل من مائة عام لم يعد لأي منهم أي سليل يمكن منحه الصفة اليهودية، فالزيجات المختلطة وأنشودة العلمانية اللطيفة استوعبتهم جميعاً. وتساءلت إن كان ذلك سيصل لموجة المهاجرين المسلمين الجدد، هل سيتعلم أطفالهم أيضاً أن يشككوا بالوصفات القرآنية التي تحدد لهم كيف يعيشون؟ هل سيلاحظون أن استراليا، التي ينتخب فيها الملاحدة رؤساء وزراء، هي مجتمع أكثر لطفاً وأكثر عدالة من السلطات الدينية في أماكن كالعربية السعودية والسودان؟ أم أنهم بوصفهم أعداداً متزايدة من المتدينين يسعون لفرض قيمهم على ثقافتي؟ حين أثيرت قضية رشدي تظاهر المسلمون الاستراليون وهذا حقهم لكن صور متظاهريهم وهم يحملون يافطات تقول:"ينبغي أن يموت رشدي" أثارت الهلع في المجتمع.

إحدى صديقاتي الإيرانيات المولد والتي تعيش في لندن، وهي امرأة متوسطة العمر تمارس الطب العائلي تقول أن الحرب الوحيدة التي ستخوضها طواعية هي الحرب لإيقاف الأصوليين الإسلاميين الذين يقولون لنا كيف ينبغي أن نعيش حياتنا. إنها زرادشتية عضو في ديانة فارسية قديمة، يتصارع فيها الظلام والنور، والخير والشر، صراعاً أزلياً على السيادة. هل علينا أيضاً أن نناضل لإيقاف المتطرفين الإسلاميين الذين يحددون للآخرين كيف يعيشون حياتهم؟ نحن كغربيين نعترف أننا نؤمن أن الحقوق الإنسانية عملة دولية غير قابلة للتغيير، مستقلة عن الوحدات الثقافية والظروف السياسية. وفي مؤتمر جنيف حول الإعلان الدولي لحقوق الإنسان عام1993، كانت إيران من بين حفنة البلدان التي جادلت باتجاه مغاير. وبإلباس مجادلتهم الملابس التقليدية مثل نسبية الثقافة، فقد ناقش الوفد الإيراني والكوبي والصيني والأندونيسي أن

الغرب قد فرض اديولوجية حول حقوق الإنسان على الأمم التي تعطيها أديانها وتاريخها السياسي المختلفين جداً الحق في اختيار حقوقهم الإنسانية الخاصة بهم. من وجهة نظري فإن جدالهم يريد الوصول إلى الإطروحة المرعبة والتي لايمكن الدفاع عنها القائلة: إن حقوق الإنسان هي ما يقوله البطريرك المحلي.

ساد مفهوم عالمية حقوق الإنسان في المؤتمر ولم يجرِ إدخال أي تعديلات على الوثيقة، ومع ذلك فإن الوثيقة لم تفعل سوى القليل حتى الآن للمختونات والمعزولات بالقوة والمحرومات من حق التصويت في العالم.

فهل هذه معركتنا؟ وكامتحان ذهني أحاول دائماً أن أعكس الجنس. فلو أن تسعين مليون صبي صغير قطعت أعضاؤهم التناسلية هل سيتصرف هذا العالم الآن لمنع ذلك؟ هل تراهنون؟

وأحياناً يكون استبدال العرق بالجنس تمريناً ممتعاً أيضاً، فلنفرض أن بلداً حليفاً غربياً حميماً، وشريكاًتجارياً، نصفه من البيض ونصفه الآخر من السود، والبيض يتحكمون تحكماً تاماً بالسود ويمكنهم ضربهم إذا عصوا أو إذا لم يطيعوا الأوامر ولنفترض أنهم منعوهم أو حرموهم حق مغادرة المنزل دون إذن أو المشي دون مضايقات في حال لم يرتدوا لباس الفصل الرسمي. أو الإمساك بالوظائف العليا في الدولة أو من العمل كله دون إذن من البيض المهيمنين عليهم، فهل ستحصل انتفاضة في بلداننا الحالية؟ هل كنا سنفرض عقوبات تجارية ونخضع هذا البلد للمهانة الدولية؟ راهنوا. ومع ذلك فإن بلداناً كالعربية السعودية تحرم نصف سكانها من هذه الحقوق الأساسية لم تخضع لأي من هذه الإجراءات.

من الممكن على ما أعتقد القول إن الضغط الخارجي يعطي نتائج عكسية حين يتناول التقاليد التي ينظر إليها بوصفها دينية حتى لو لم تكن كذلك. فالمحاولات الأولى للحكومة الكولونيالية لتحريم الختان الجنسي حققت فشلاً ذريعاً، لكن لو كففنا عن التدخل في ما يجري ضمن حدود الآخرين فليس لنا عذر أبداً في ألا نتصرف حيال ما يجري ضمن حدودنا.

ففي منطقة ذات حساسية ثقافية نحن مضطرون للقول إن بعض العادات الثقافية البالية محرمة ومحظورة في بلداننا ولن نقبلها أبداً. يجب أن نحظر تعدد الزوجات، يجب ألا نعترف بالطلاق بمجرد أن يقول المرء "أنت طالق". علينا أن نحرم هذه الأشياء حتى لو كان الكتاب المقدس يجيزها، وسوف يكون من الأسهل أن نقف في وجه الممارسات التي لايجيزها القرآن. فالقتل دفاعاً عن"الشرف" ينبغي أن تحدده المحكمة وتعاقب عليه بوصفه قتلاً عمداً. والشابات بحاجة إلى حماية ضد الزواج الذي يتم ترتيبه أثناء الإجازات السريعة في الخارج للمراهقات الصغيرات جداً اللواتي لا يمكن أن يعطين موافقة مدروسة لكن الأكثر إلحاحاً هو تحريم الختان.

في عام 1994 لم يكن لدى الولايات المتحدة أي قوانين من أي نوع لمنع المهاجرين من بلدان كالصومال والسودان من ختن بناتهم والعمليات التي كانت تجري في مجتمعات المهاجرين على طول البلاد وعرضها. وأول مشروع قانون حول هذه المسألة قدم للكونغرس قدمته الديمقراطية باتريشا شروردر من ولاية كولورادو. وفي حين وجه تعليم المهاجرين وقوانينهم ضد تنفيذ الختان داخل الولايات المتحدة فهو لم يقترح أي وسائل لحماية البنات من الإخراج خارج البلاد ولإجراء العملية.

وهناك شيء آخر يمكننا فعله وهو تقديم ملتجأ آمن على أسس "الخوف الفعلي من الإضطهاد" للنسوة مَن أي بلد حيث الآباء أو الأزواج أو الأخوة يدعون الحق الديني في مصادرة حريتهن. في كانون الثاني عام 1993 منحت الحكومة الكندية بعد دراسة طالت سنتين حق اللجوء لطالبة سعودية، طلبته على أرضية الاضطهاد الجنسي. قالوا إن هذا "استثناء" فلماذا هو استثناء؟ لأن "ندى" كما تحب أن تسمى، عانت نفس المضايقات العنيفة التي تتعرض لها أي امرأة من سلطات بلادها عقاباً على "جريمة" مشيها خارج بيتها دون أن تغطي شعرها. ولو أن ندى بقيت في العربية السعودية واستمرت في العصيان فلربما ألفت نفسها سجينة بل وعرضة للتعذيب دون أن توجه لها أي تهم رسمية. ولسوء الحظ لن يؤدي منح اللجوء الأتوماتيكي

للنساء اللائي يعانين من الاضطهاد الجنسي إلى تدفق اللاجئات. فالقلة القليلة لديها وسائل لمغادرة البلاد، بل وحتى مغادرة بيتهن، في حين يهيمن الرجال على مفاتيح الأبواب والسيارات ولا بد أن يوقعوا موافقتهم على أقصر الرحلات، لكن خطوةً كهذه ترسل إشارة للسلطات التي لا علاقة للقيود التي يفرضونها بالدين الذي يدعونه. وهذه الإشارة تعني أننا نحن أيضاً لدينا أشياء نعتبرها مقدسة، منها الحرية والمساواة وطلب السعادة والحق في الشك.

مر زمن طويل على وقفتي أمام تحديقة رفسنجاني في مؤتمر صحفي في إيران وقلت له أنني أرتدي الشادور "بروح الإحترام المتبادل". في تلك اللحظة وأنا أقف في ثيابي السوداء تحت أضواء التلفزيون الحارة، تكونت لدي فكرة ذهنية عن نفسي، فكما أحببت أن أكون في الصيف عارية على الخليج قرب بيت والدي، فإن "الاحترام المتبادل" الذي أفهمه يقضي بأنه هو وأمثاله عليهم الاعتراف بحقي في الحمامات الشمسية على هذه الرمال الأسترالية. وأن آخذ معي، إن رغبت، آيات شيطانية لأقرأها على الخليج.

في العام الماضي حين كنت في بيتي في سدني، استلقيت على ذلك الخليج قرب أسرة مسلمة، لم يبدُ عليها الاستياء من وجود اللحم البشري المكشوف حولها. وفي حين خاض الرجل في المياه الضحلة بخطىً قصيرة، جلست زوجته على الرمل وثوبها الطويل الفضفاض يحيط بها. أحزنني أن ابنتها الصغيرة التي خاضت المياه بسعادة مع أبيها وأخيها الصغير سوف يطلب إليها عاجلاً أن تنسى هذه البهجة، لكن تلك ستكون معركتها وليست معركتي، فهي في استراليا على الأقل لها الخيار، ويمكنها أن تختار بين قيم أسرتها وما رأته لدى الآخرين.

ومن حين لآخر كانت تعبث أم الفتاة بمنديلها حين كان يتطاير مع نسيم البحر، فهذه المرأة قد اختارت: وكان خيارها مختلفاً عن خياري لكننا ونحن جالستان هناك نتشاطر دفء الرمل ورقة النسيم قبلت كل منا الأخرى، وحين رفعت وجهها للشمس كانت تبتسم.

المحتويات

هذا الكتاب

الأنوثة الإسلامية

عن المؤلفة

- جيرالدن بروكس خريجة جامعة سيدني. درست الصحافة في جامعة كولومبيا، وتعيش في ولاية فيرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية. صحفية استرالية، عملت مراسلة في المشرق العربي، لعدد من الصحف الاوروبية الشهيرة، من بينها (وول استريت جيرنال).

حول الكتاب

- إنها تأخذنا إلى ما خلف الحُجب وإلى بيوت النساء في كل زاوية من الشرق الأوسط. . . ومن خلال شرح لقاءاتها - مثل لقاءها مع زوجة الخميني: خديجة، التي وصفته بالرجل الجديد (ولأجله طلت شعرها بالحمرة المحببة إليه) - تقدم المؤلفة كتاباً بارعاً.

الأوبزيرفر

- كشوفات المؤلفة لحيوات تلك النسوة المتوارية خلف الحجاب، صريحة وفاتنة ومؤلمة.

نيويورك

تصميم الغلاف: الفنان د. محمد نعيم الجابي

